

الْقَوْلُ السَّيِّدُ فِي عِلْمِ التَّوْحِيدِ

تأليف

فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو دقيقة
الأستاذ بكلية أصول الدين سابقاً

تحقيق وتعليق

فضيلة الأستاذ الدكتور عوض الله جاد حجازي
رئيس جامعة الأزهر الأسبق
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذا هو الجزء الثالث من كتاب : « القول السديد في علم التوحيد » لمؤلفه فضيلة الشيخ محمود أبودقيقة الأستاذ بكلية أصول الدين سابقا .

وبدأ هذا الجزء بالكلام على رسالة سيدنا محمد ﷺ ، من جهة أدلة ثبوتها ، وعمومها ، وعدم نسخها .
ونسأل الله لتوفيق .

د/ هوش الله جاد حجازي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد: فهذا هو الجزء الثالث من كتاب: «القول السديد في علم الوعيد» مؤلفه فضيلة الشيخ محمود أبودقيق الأستاذ بكلية أصول الدين سابقاً.

يبدأ هذا الجزء بالكلام على رسالة سيدنا محمد ﷺ، من جهة أدلة ثبوتها، وعسوها، وعدم نسخها.
ونسأل الله العليق.

د/ هريز الله جاد حجازي

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة سيدنا محمد ﷺ

أدلة إلهامها - عمومها - عدم نسخها - دفع الشبه

(رسالة سيدنا محمد ﷺ)

قبل بعثة النبي محمد ﷺ كانت القبائل العربية مختلفة النزعات، أسوية الشهوات، فاسدة العقيدة، سيئة الأخلاق، قباغضة وتقاطعت، واستباححت سفك الدماء، وسبى النساء، وسلب الأموال، واستحسنت وأد البنات، وصنع معبودها يدها .

وكان كل من دولة الفرس والرومان قد وصل إلى حالة تنذر بزوال سلطانيتهما، فقد استمر القتال والتنازع بينهما زمناً طويلاً، واستبد قوئ كل دولة منهما بالضعيف، وسلب من ماله ما وصلت إليه يده، وانغمس الرؤساء في الملاذ، وضلت الأفراد في العقائد، بواسطة التدليس من رؤساء الأديان، وظهر في دولة الفرس من أفهم الناس أن الله بعثه ليأمر بإباحة النساء، والأموال، بين الناس .

أما أهل الكتاب من يهود ونصارى، فرؤساء أديانهم تصرفوا في الكتب فحرفوا وبدلوا، وأوهوا الناس أن هذا من عند الله، فكان حال الناس قبل البعثة في اضطراب، وتخاصم وتقاطع، ليس من العدل، ولا من الرحمة السموات عليه .

لهذا اقتضت رحمة الحكيم الخبير أن يهب القوم من غفلتهم: بواسطة فرد من بني نوعهم، يرسله إليهم يدين سماوى يكفل سعادتهم، فأرسل إليهم محمداً ﷺ مؤيداً بروح من عنده، فأرشدهم إلى الدين الإسلامى، وبين لهم أن اعتناقه والعمل به هو طريق سعادة الدارين .

ظهر النبي بينهم فادعى أنه مرسل من الله تعالى إلى الناس، بشيراً ونذيراً
يهدىهم إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، وكان ما قام به من الأوصاف الجليلة، وما
عرف عنه بين قومه من وقت ولادته إلى أن بعث كافياً في الدلالة على صدقه،
ولكن قوما عاندوا فجهلوا رسالته، فكان لزاماً أن تذكر الأدلة التي أبدها الله بها،
وصدقه في دعواه، حتى إذا ما اطلع عليها طالب الحق، أسير الدليل، اتضح له
أن إنكار نبوته من بعض الناس لم يكن عن شبهة صحيحة، وإنما دعا إليه العناد
والغرور.

الأدلة على صدق دعواه الرسالة

أدلة صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة نوعان:

- ١ — عقلية: يدركها أصحاب العقول السليمة فيقتنعون.
- ٢ — وحشية: أوجدها الله تعالى على يد رسوله لتطمئن نفس المتردد وتتقطع
حجة الجاحد.

أ — الأدلة العقلية

١ (القرآن الكريم: ثبت بالتواتر، وإجماع الأمم كافة أن النبي ﷺ أخبر بأن الله
تعالى أنزل عليه قرآناً عربياً، غير ذي عوج، كما ثبت بالتواتر أنه تحدى فصحاء
عربيه، يطلب منهم أن يأتيوا بمثل ذلك الكتاب، أو بما يماثل سورة من سورته،
فمنهم من آمن به، فمما نصيبهم العجز عن المعارضة.

وحيث إنه تحداهم وجبروا عن المعارضة مع توافر الدواعي، واشتغالهم
بالنصاحة والبلاغة، فقد ثبت أنه ليس من صنع البشر، وإنما هو من كلام رب
العالمين، فيدل على صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة، ويبان جهة إعجازه
سأئل الكلام عليه مستوفٍ في مبحث إعجاز القرآن.

(٢) سيرته قبل الهجرة ومعهها :

ولد النبي ﷺ بجمعاً ، لم يترك له والده من المال إلا شيئاً قليلاً ، لا يكاد يذكر (بحس جمال وبعض نجاح وجانية) ، وفي السنة السادسة من عمره توفيت والدته ، فكفله جده عبدالمطلب ، وبعد سنتين من كفالته نولى جده ، فكفله عنه أبو طالب على ما به من الفقر ، بحيث كان لا يملك كفاف أهله .

نشأ ﷺ في وسط كانت العادة تقضى بأن يتأثر بأخلاقه ، فيلهو وهو صبي ، كما تلهو الصبيان ، ويعظم الأصنام مثل عشيته ، ويتعلق بالأنعام كما كان عليه أوليائه .

ولكنه مع اختلاطه بهم تنزه عن هو الصغار ، وعبادة الأصنام ، والتعلق بالخرافات والأنعام .

واتبعه عن الفحش ، والأخلاق التي تدنس الرجال ، وعرف برجاسة الرأي ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، والأمانة ، والصدق في القول ، فلم يكذب في شيء ما ، ولو كذب لاجتهد أعداؤه في التشهير به .

وقد عرف بين أهل مكة وهو في شبابه بالأمين .

عرف بهذه الأوصاف ، وغيرها من صفات الكمال ، ولم يقم بتريته مهذب ولم يمن بتثقيفه مؤدب من البشر ، بل المعلم والمؤدب له هو رب العالمين ، قال تعالى : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١) ، وقال ﷺ : (أدبني رب فأحسن تأديبي) وكانت تنمو وتزيد أوصاف الكمال على مر الزمان ، إلى أن نرى على رأس الأئمة ، فكان غاية في القصاحة ، قال عليه الصلاة والسلام : (أتيت جوامع الكلم)^(٢) ، ذا خلق حسن ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ

(١) سورة النساء الآية ١١٣ .

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ٥ طبعة محمود توفيق .

خلق عظيم»^(١) وقال عليه الصلاة والسلام «بعت لأتمم مكارم الأخلاق» يفتقر عند المقدرة، ويصبر على المكروه، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقَطْرَ وَأَمَرَ بِالْعَرَفِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣)، وحسبك في هذا ما فعله ﷺ مع أهل مكة وقد آذوه واستهزأوا به، وأخرجوه من داره، ومع أصحابه، وقتلوه وحرضوا عليه، فإنه لما فتح مكة وصار الأكر بيده، غفا وصنع، وقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

وكان رؤوفاً رحيماً قال تعالى: ﴿عَزَّزَ عَلَيْهِ مَا عَنِتَّ بِهِ مِنْ جُنَاحِ الْعَصَىٰ﴾^(٤) وكان عدلاً بشهادة أعدائه، زاهداً في الدنيا، وما يشهد لزمده أنه كان يقول: اللهم (اجعل رزق آل محمد قوتاً) إلى غير ذلك من صفات الكمال.

هذا الذي سمعته من أوصاف النبي ﷺ قليل من كثير، وإذا نظرت إليه أيها الشاك، أو المفكر، بين الإنصاف والاعتدال، لكفاً: دليلاً على صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة، فإن العقل يحيل على من قامت له هذه الصفات عدم الصدق في دعواه، ولذلك اكتفى بعض من أراد الدخول في الإسلام بالوقوف على صفاته، وتنسج آثاره وأعماله ﷺ.

(١) إخبار الكتب السماوية والأنبياء السابقين بنبوته عليه السلام.

مشارب التوراة

في التوراة في السفر الخامس^(١): (أقبل الله من سيناء، وتحيل من ساعير،

(١) سورة قلزم الآية ٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(٣) سورة لقمان الآية ١٧.

(٤) سورة هنية الآية ١٦٨.

(٥) سفر الخامس هو سفر التثنية من كتاب التوراة الإصحاح ٣٨ الآيات ١ - ٣.

وظهر من جبال فاران ، ومعها وابورات الأطهار عن يمينه (هذا النص فيه إشارة إلى نبوة موسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، فلفظ (أقبل الله من سيناء) يشير إلى الجبل الذي كلم الله موسى ونبأه عليه ، ولفظ (تجل من ساعير) يشير إلى المكان الذي ظهر منه عيسى ، وهي قرية بيت المقدس ، ولفظ (وظهر من جبال فاران) يشير إلى الجبل الذي كان يتعبد النبي محمد ﷺ في غارهِ حين نزل عليه الوحي .

و « فاران » هي مكة باتفاق الجميع ، ونظير هذه البشارة قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ وَالزَّهَّادُونَ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ ، فإن الإقسام بهذه الأماكن لظهور الوحي فيها ، فالمراد بالبلد الأمين مكة ، التي بعث النبي منها ، والمراد بطور سيناء الجبل الذي كلم الله موسى عليه ، أما التين والزيتون فالمراد منيهما ، وهي الأرض المقدسة التي ظهر بها عيسى عليه السلام .

وقال في القصة الأولى : « وَأَنَّ الْمَلِكَ ظَهَرَ لَهَا جَرَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَ : « يَا هَاجِرُ : مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتُ ؟ وَإِلَى أَيْنَ نَزِدِينَ ؟ فَلَمَّا شَرَحْتُ لَهُ الْحَالِ قَالَ : « ارْجِعِي » فَإِنِّي سَأَكْثُرُ ذُرِّيَّتَكَ وَزَرْعَكَ حَتَّى لَا يَحْصُونَ كَتَبَهُ ، قَوْمِي أَحْمِلُ »^(١) ولذلك إسماعيل » « وشدى يدك لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك » .

« ومن ولدك يكون وحى للناس وتكون يده على الكل ويد الكل مبسوطة »
« إليه الخضوع » .

فقله من ولدك يكون وحى للناس إن صريح في النبي ﷺ لأنه لم يوجد من ولد هاجر من ينطبق عليه هذه الأوصاف إلا النبي محمد ﷺ .

(١) المراد بالسفر الأول سفر هككين من كتاب قصص .

(٢) جامع الكتاب المقدس - سفر التكوين ، الإصحاح السابع عشر والحجاب المصحح لى بدل دى

المصحح لى تسمية ج ٣ ص ٢١٣ .

(٣) وذلك لأن سيدنا محمد من نسل إسماعيل علمه السلام ، وإسماعيل هو ولد إبراهيم من زوجته هاجر

بشارات الإنجيل

(١) «قال المسيح للحواريين أنا أذهب وأأتيكم بالفارقليط روح الحق»
«لا يتكلم من قبل نفسه إنما هو كما يقال له، وهو يشهد على وأنتم تشهدون
لأنكم» «معكم من قبل الناس وكل شيء أعده الله لكم بمحرمكم به» .

(٢) «في إنجيل يوحنا الفارقليط»^(١) لا يجهكم ما لم أذهب وإذا جاء روح
العالم» «على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه مما يسمع به ويكلمكم
هووسكم» «بالحق ويحرركم بالحوادث والنبوء» .

(٣) «في إنجيل يوحنا إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من
الأب أن يعطيكم «فارقليطاً» آخر يثبت معكم إلى الأبد ويتكلم بروح
الحق» .

(٤) «وإذا جاء الفارقليط» الذي أتى أرسله روح الحق، الذي آمن في
يشهد لي» «قلت لكم حتى إذا كان تؤمنوا ولا تشكوا فيه» .

«الفارقليط» قبل هو المتخلص، وقبل إنه في لغتهم لفظ من ألقاظ الحمد،
أو محمود، أو محمد، وكله ينطبق على النبي محمد ﷺ .

(٥) في إنجيل برنابا في الفصل الثاني والسبعين ما نصه «وفي الليل تكلم
يسوع سرّاً مع تلاميذه قائلاً الحق أقول لكم، إن الشيطان يهد أن يفرلكم
كالخطئة، ولكني توسلت إلى الله لأجلكم، فلا يهلك منك إلا الذي يلقى
أنجيلي لي، وهو إنما قال هذا عن يهوذا، لأن الملاك جيهيل قال له: كيف
كانت ليهوذا يد مع الكهنة؟ وأخبرهم بكل ما تكلم به يسوع فاقرب الذي
يكتب هذا إلى يسوع بدموع قائلاً: يا معلم، قل لي من هو الذي يفسدك؟

(١) (الفارقليط) كلمة معناها الأحد أو المجدد، معناها اللفظ لا ينطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ .

أجاب يسوع قائلا يا ابنها ليست هذه الساعة هي التي تعرفه فيها ولكني أعلمني الشرير نفسه قريبا، لأنني سأصرف عن العالم، فبكى حيثذ الرسل قائلين، يا معلم لماذا تركنا لأن الأخرى بنا أن نموت من أن تركنا، أجاب يسوع لا تضطرب قلوبكم، ولا تخافوا لأنني لست أنا الذي خلقتكم، بل الله الذي خلقكم، يحميكم، أما من خصوصي فأني قد أنبت لأهبي، الطريق لرسول الله الذي يأتي بخلاص العالم، ولكن احذروا أن تغشوا، لأنه سيأتي أنبياء كثيرون، يأخذون كلامي وينجون إنجيلي، حيثذ قال اندراوس يا معلم أذكر لنا علامة لتعرفه .

أجاب يسوع إنه لا يأتي في زمنكم، بل يأتي بعدكم بعدة سنين، حينما يعطي إنجيلي، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا في ذلك الوقت، رحم الله العالم ومرسل رسوله الذي تستقر على رأسه عمامة بيضاء، ويعرفه أحد ممتازي الله، وهو سيظهر للعالم، وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار، ويبدع عبادة الأصنام من العالم، وأني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلم ويعبد الله، ويظهر صدق، وستنظم من الذين يقولون إلى أكبر من إنسان، فليحذر العالم أن يبيذه، لأنه سيفدك عبادة الأصنام، إلى أن قال وسيجيء بحق أجل من سائر الأنبياء، وسيمسح من لا يحسن السلوك في العالم، وستحيا طرعا أبراج مدينة آياتنا، فتمت شهود سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض واعترف بأني بشر كسائر البشر، فالحق أقول لكم أن نبي الله حيثذ يأتي .

أخبار الأنبياء السابقين

قد ورد عن بعض الأنبياء السابقين أخبار كثيرة تبشر بنصرة سيدنا محمد ﷺ، تقتصر على ذكر بعضها، جاء في نبوة أشعيا حاكيا عن الرب سبحانه وتعالى (أشكر حمي ونبي أحمد) وقال أشعيا (إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد) .

وقال دانيال عليه السلام سألت الله تعالى وتضرعت إليه أن يبين لي ما يكون من بني إسرائيل، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم: ويبحث فيهم الأنبياء، أر يجعل ذلك في غيرهم؟

فظهر لي الملك في صورة شاب حسن التوجه، فقال السلام عليك يا دانيال، يا الله يقول: إن بني إسرائيل أغضبوني، وتمرّدوا عليّ، وعبدوا من دوى آلهة أخرى، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل، ومن بعد الصدق إلى الكذب، فسقط عليهم (بمختصر) فقتل رجالهم وسبى ذراريهم، وهدم مسجدهم، وحرق كتبهم، وكذلك يفعل من بعدهم، وأنا غير راض عنهم، ولا مقبلهم عفوهم، فلا يزالون في سخطي حتى أبعث مسيحي ابن العذراء البتول، فأقيم عليهم عند ذلك باللعن والسخط، فلا يزالون ملعونين، عليهم الذلة والمسكنة، حتى أبعث نيا من بني إسماعيل، الذي بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكي فبشرها فأوحى إلى ذلك النبي وأعلمه الأسماء، وأثبتته بالتقوى، وأجعل البر شعاره، والتقوى ضميره والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سته، أعصه بكتاب مضدق لما بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض ما فيها، أسرى به إليّ، وأرقبه من سماء إلى سماء، حتى يعلو فأدينه وأسلم عليه، وأوحى إليه ثم أرده إلى عبادي بالسرور، والقبطة، حافظاً لما استودع، صادقاً فيما أمر، يدعو إلى توحيدى باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ، ولا صخب بالسواق رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، غشّن على من عاداه، نبيهو غومه إلى توحيدى وعبادتى، وبغيرهم بما رأى من آياتى، فيكذبونه ويؤثثونه، ثم سرد دانيال ما أملاه عليه الملك من قصة رسول الله ﷺ حتى وصل آخر أيام آدمى بالنفخة وانقضاء الدنيا.

(٤) إخباره بالمصائب.

أعبر النبي ﷺ بأسور غيبية على لسان القرآن، وأمور أخرى ثبت إخبارها بالنقل الصحيح، أما القرآن فمعه قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم

وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم
ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم^(١) وقد تحقق هذا الوعد زمن الخلفاء .
وقال تعالى : ﴿لَتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمين﴾^(٢) وقد تحقق
ذلك وقال : ﴿سيزعم الجمع ويولون الدبر﴾^(٣) وقد تحقق هذا أيضا في غزوة
بدر .

أما ما ثبت إخباره به من طريق السنة فكثير ، منه إخباره بأن أول من يموت
من أزواجه بعده زينب وكان كما قال ، وإخباره عن الحسن بأنه سيد ، وسيصلح
الله به بين فتيين ، وإخباره بموت النجاشي وهو بأرضه ، ولا شك أن إخباره
بتلك الشؤون الغيبية ، وهو أمي نشأ بين قوم أسيرين ولم يجلس أمام معلم يدل على
صدق نبوته ﷺ .

(٥) انتشار الإسلام بسرعة لم يسبق لها مثيل في الأدیان السابقة .

صبح في التاريخ أن الدين الإسلامي جمع إليه الأمة الذرية في أقل من ثلاثين
سنة ، ثم تناول من بقية الأمم ما بين المحيط الأطلسي والصين في أقل من قرن
واحد .

وهذا أمر لم يعرف في تاريخ الأدیان ، خصوصا وأن الدين مهما سهلت
تكاليفه فقيه التقيد بعد الإطلاق ، والتزام أمور قد تخالف موى النفس ، فعجب
الناس لهذا الانتشار السريع حتى ضل البعض في معرفة السبب الحقيقي ، فزعم
أن هذا الانتشار السريع ليس له سبب سوى السيف ، والإكراه على اعتناق هذا
الدين ، وهذا بيتان ، واقرأه ، والسبب الصحيح ما سبقت على سمعك :
محاسن الدين الإسلامي ، وموافقة قواعده وأصوله للعقل الصحيح ، وكفالاته

(١) سورة النور الآية ٥٥ .

(٢) سورة الفتح جزء الآية ٢٧ .

(٣) سورة القمر الآية ١٥ .

السعادة في الدارين للفرع الإنساني، وسهولة تكاليفه، وتسامحه مع أهل الديانات الأخرى، هو السبب الوحيد في انتشاره بتلك السرعة، كان الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة بنوا دعاة في أنحائها تحمل أهلها على اعتناق دينهم ولا حجة لهم على ذلك إلا الغلبة والقوة !!

أما المسلمون فكانوا يدافعون عن الحق بالدليل العقل، وإذا ظفروا بفتح بلد ووضعت الحرب أوزارها، واستقر سلطانهم عطفوا على المغلوبين وركبهم متسكين بدينهم، مقيمين لشعاره، آمنين مطمئنين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وتأخذون من مالهم جزءاً قليلاً، مقابل القيام بشؤونهم وحفظ دماءهم وأموالهم، لم يشرحون لهم كتاب الله تعالى، وشريعته، ويتركون الخيار لهم في القبول وعدمه، ولا يستعملون شيئاً من القوة لإكرامهم على الدخول في الدين !!

أمر الإسلام الناس بالنظر في الآيات الكونية . فأعطاهم حرية التفكير بخلاف غيره من الأديان .

أباح لهم التمتع بالطبائع من الرزق، ومقت الرهبانية التي لا تلائم الطبيعة البشرية بخلاف بعض الأديان، ربط أفراد بعضهم ببعض بواسطة معاونته الفنى للفقر بالمال، وسوى بينهم في التقاضى واحترام الحقوق .

فتح باب التزهد للعاصي: فبشره بخفران ذنبه متى حسنت التوبة وهكذا من المحاسن التي تضمنتها هذه الشريعة السمحاء .

ودين لا يحجر على العقل، ويتسامح مع مخالفه، ويكفل مصالح الناس في الدارين، لا شك أن المرشد إلى اعتناقه يكون صادقاً في دعواه الرسالة، فمحمد صادق حقاً .

(٦) قضى العقل والنقل بأن وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تكميل النفوس البشرية ومعالجة الأمراض القلبية .

وقد نواتر أن نبينا محمدا ﷺ ظهر بين قوم معرضين عن الحق عاكفين: إما على عبادة الأصنام كمشركي العرب، وإما على تزويج المفترهات كاليهود، فقد استحلوا الربا وهو محرم عليهم، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وإما على القول بالآب والابن والتثليث كالتنصاري، وإما على عبادة إلهم ونكاح اهازم كالجوس. ١

قام النبي بين هؤلاء الأقوام فادعى: أنه مبعوث بكتاب ينير لهم طريق السعادة ويهديهم إلى الطريق الأقوم، ويبين لهم ما يصحح عقائدهم وما هم مكلفون به من الأعمال، كما أنه جاء إليهم ليتمس مكارم أخلاقهم، ويشتل العالم من وهدة الفساد والظلمة.

ادعى النبي هذا وقام بما أخبر به والتزمه، فهداهم إلى الطريق المستقيم وغير حالة الناس من ظلمة إلى نور، ومن نقص إلى كمال، ومن تحبط في العقيدة إلى اعتدال وتمسك بالحق الواضح، وظهر دينه على كل الأدهان فاضحلت تلك العقائد الزائفة، وأشرقت شموس التوحيد في الجزيرة وما حولها، وليس للنبوة معنى سوى هذا، فمحمدا ﷺ صادق في قوله إنه رسول إلى الناس، لأنه حقق معنى النبوة بما قام به، وما حصل على يديه.

٢ - الأدلة الحسية

الناس بالنظر إلى استعدادهم، وإدراك الحق، وتميز الخبيث من الطيب والصدق من الكذب، ليسوا في مرتبة واحدة، فمنهم من سمى أفكارهم وعلت مداركهم، فأمكنهم أن يصلوا إلى إدراك ما خفى من الأسرار، وإلى كشف ما استهم على غيهم، ومنهم من انحطت قوته الفكرية وضعفت، فاستسلمت لعالم الحس فكان رائدها ومرجعها، فلا تنفع إلا بما يقع تحت الحس.

ولم يخل عصر النبي ﷺ عن هذين الفريقين ، فلهذا جاء في تأييد دعواه بما يناسب كل طبقة .

فأيده الله تعالى بالقرآن الكريم ، والأدلة العقلية التي تقدم ذكر بعضها ، فاقنع بها المتصفون من العقلاء وأهbab الأفكار السامية .

أما الفريق الثاني فلم تكفه تلك الأدلة القاطعة لمعجزه عن فهم الأسرار وإدراك المقولات على الوجه الصحيح أو عناده ، فأراد الباري سبحانه وتعالى أن يقطع حجته ، ويأني له بآيات تناسب حاله الذي ظهر به ، فأظهر على يد النبي ﷺ كثيرا من المعجزات الحسية المخارقة للعادة .

وقد تقدم في بحث أقسام المعجزة ذكر كثير منها ، فارجع إليه إن شئت .
وملخص ما تقدم أن الله سبحانه وتعالى أهد نبيه محمدا ﷺ بأدلة عقلية وحسية ، إذا تأملها المتصف لا يسعه إلا الجزم بصدق من ظهرت على يده ، وبأن من خالفه معاند مجادل بغير حق فلا يلتفت إليه .

عموم رسالته ﷺ

في مبدأ تكليف النوع الإنساني باعتناق دين سماوي كانت أفرادها بالنسبة لفهم مصالحهم ، وتحصيل شغوتهم النافعة ، كالطفل الحديث العهد بالوجود ، فلا يألف منه إلا ما وقع تحت يده .

فاقتضت حكمة اللطيف الخبير بعبادته أن يسير بهم في شأن التكليف بالتدرج على حسب الاستعداد الموجود عندهم ، فكان يرسل ما بين وقت وآخر إلى كل طائفة على حدها رسولا ، يصلح من شأنها ، ويكلفها بما يناسبها ، فيكون ذلك الرسول وحيته بين أفراد الأمة التي أرسل إليها .

ولم تعم رسالة نبي قبل سيدنا محمد ﷺ جميع الناس ، لأن العالم لم يكن قد

يقضى إلى درجة التفكير في الآيات الكونية، والنظر في مصالحه على الوجه الصحيح حتى يدرك بواسطة النظر والتفكير أن الإنسان مدنى بطبعه، وأن أفرادَه في حاجة إلى بعضهم، وأن انتظامه تحت راية واحدة تظله، وقانون عام يكفل مصالحه، أولى به من التفرق والتقاطع، والتباغض .

ولما جاء وقت لإرسال سيدنا محمد ﷺ، وكان الإنسان قد وصل إلى كماله البشرى، واستفاد من الحوادث الماضية ما ينهيه إلى وجوب استكمال عقله، وإلى أنه هو المرجع في الحكم، والمميز بين صحيح القول وخالفه .

في تلك الحالة يكون جمع الناس على كلمة واحدة، وتدينهم بشيئ واحد بمطالب العقل، وتدعوهم إلى التدبير، ومشاركة الحس في تفهم المصالح، عن طريق الصواب بين أفراد ذلك النوع الواحد أمرا ميسورا .

وإذا نظرنا إلى سيدنا محمد ومنزله بين الأنبياء اتضح لنا أنه وإن اشترك مع إخوانه الأنبياء في أن الله تعالى جعلهم بالأخلاق العالية، وحفظهم من النقائص البشرية، إلا أن سيدنا محمدا ﷺ امتاز بكمال تلك الأخلاق فيه أكثر من غيره، وهذا لا يؤدي إلى نقص في الأنبياء، لأن التفاوت في الكيف لا في الكم، بمعنى أن الصبر والشجاعة مثلا فيه أكمل وأتم من غيره، أما أصل الصفات الفاضلة، والأخلاق العالية، فهي متحققة في جميع الأنبياء، وإذا كان سيدنا محمد ﷺ قد أكرمه الله تعالى فمن عليه بتلك النعم الكاملة التي تستحق آثارا تناسبها، والناس على ما سمعت قد انتقلوا من طور الطفولية إلى طور الكمال البشرى .

فإن المصلحة والحكمة تقضى بأن يكون الكل خاضعين لقانون واحد، يكفل مصالحهم ويجمعهم على التعاون، والتآخي، لهذا جاء القرآن الكريم مبينا بصحيح رسالة سيدنا محمد ﷺ، وأنها لا تخص برمان، ولا مكان، ولا بطائفة دون طائفة، وإنما محمولة للناس من تقاطع، وتباغض، إلى اتحاد وألفة، ومن تعدد

معجزات باطلة إلى الانتفاخ حول معبود واحد، هو الموجد للمخلوقات، المستحق للمادة وهو الرحيم بهم .

قال تعالى . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ^(١) .

وقال تعالى . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى . ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى . ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا عسى أن تكونم مفلحين ﴾ .

وقال تعالى . ﴿ مبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى . ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ .

وقال تعالى . ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويظهر عن كثير ﴾ ^(٥) .

وقال تعالى . ﴿ وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصوا فلما قضى ولوا إلى قومهم مبسطين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصفياً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجبوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويمحرمكم طلباً أثيم ﴾ ^(٦) .

- | | |
|--------------------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة الأسماء الآية ١٠٧ | (٢) سورة سبأ الآية ٢٨ . |
| (٣) سورة الأعراف الآية ١٥٨ | (٤) الآية الأول من سورة الفرقان . |
| (٥) سورة المائدة / ١٥ . | |
| (٦) سورة الأعراف / ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ . | |

الشرعة المحمدية دائمة لا تصح

إن الله تبارك وتعالى لم يكلف العباد، وهزمهم بالوقوف عند حدود لا يتعدونها
لفرض استيادهم، وإذلالهم، وإظهار سلطانه عليهم، وإنما كلفهم لمصالح تعود
عليهم، وللوصول إلى سعادة مرتبطة باستألفهم لما طلب منهم فعله أو تركه .

وقد جاء على لسان الرسل السابقين شرائع كثيرة، كل واحدة منها كانت
تكفل لمصالح الأمة، التي أرسل إليها صاحب تلك الشرعة في زمن خاص .

ومضى انتهى ذلك الزمن وأهله وجاء خلق جديد تجددت الحاجة إلى شرع
آخر، يناسب هذا الخلق، ولم يعرف أن شرعة قبل شرعة سيدنا محمد ﷺ
جاءت صالحة لجميع الأزمان لما علمت أن الناس في زمن الأنبياء السابقين لم
يكونوا قد وصلوا إلى الكمال البشري، والتعرج العقلي، فكان خطاهم على
حسب استعدادهم^(١) .

أما شرعة سيدنا محمد ﷺ، فقد جاءت والإنسان قد كمل في باب
الإدراك، وتفهم المصالح العامة والخاصة، فافتضت المصلحة، والحكمة أن تكون
تلك الشرعة صالحة لجميع أفراد العالم، ملائمة لجميع الأزمان .

ولما فطر عليه الإنسان بأصل خلقته، متوسطة بين الإفراط والتفريط، كهيئة
بالسعادة، فقد أرشدت الإنسان إلى ما يرفع شأنه، ويحقق إنسانيته، فطلبت
منه أن يبتدع عبادة الأصنام والكواكب، وأن يقصر عبادته على معبود واحد، هو
الذي خلق السموات والأرض وما بينهما .

وأطلقت فكره في التأمل في ملكوت السموات والأرض، ليستدل بذلك
الصنيع الربيع المتقن على وحدة المعبود الحق، وعلى أنه عز وجل لا يشركه شيء .

(١) في الطبري على حسن استعدادهم والضرر في كتابه .

سواء، ﴿إِنْ فِي حَقِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١) ورغبته في التحل بمكارم الأخلاق، وأباحته له من طيبات الدنيا ما لا يضر بالعرض، أو النفس، أو الغير، أو المال، وشرعت له عبادات من صلاة وصوم، وزكاة وغير ذلك، مما من شأنه أن يزرع في نفس أنكلف خلقاً طاهراً، ونفراً من المحاث، ومعاونة لإخوانه المؤمنين .

وأمرته بالسعى في المصالح الدنيوية على وجه لا يضر بآخرته، ووضعت قوانين تكفل حق الأفراد، والأسر والجماعات .

ولم تترك شيئاً مما يحتاج إليه الإنسان حتى آداب النوم والأكل والشرب!! فشرحه جاءت وافية بجميع مصالح الإنسان، ويان ما يؤول إليه أمره في العالم الأخرى، ومطابقتها للفطرة الإنسانية جليلة بأن تكون آخر الشرائع، وناسخة لكل شريعة قبلها، وصاحبها يكون خاتم النبيين، وسنة الترقى تنبى بالكمال، قال تعالى . ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ .

وقال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران / ١٩٠ .

(٢) سورة الأحزاب / ٤٠ .

(٣) سورة المائدة جزء الآية / ٣ .

شبه المكيين لهجة عليه السلام

المكيون لهجة سيدنا محمد عليه السلام فرقان :

الأولى أنكرت بعته إلى العرب وغيرهم .

والثانية أنكرت بعته إلى غير العرب ، وسلمت بعته إلى العرب .

والذين أنكروا بعته على الإطلاق هم : النصارى وجميع طوائف اليهود ما عدا
المسيحية :

وهؤلاء الذين أنكروا بعته على الإطلاق اختلفوا من حيث الشبه التي
استندوا إليها في إنكارهم ، فاستند النصارى في إنكارهم إلى القدح في معجزاته
عليه السلام .

ومحصل ما قالوا : أن المعجزات تنحصر في نوعين :

النوع الأول القرآن .

والنوع الثاني غيوه من خوارق العادات التي ظهرت على يده ، فقدحت في
إعجاز القرآن شبه سبأ في ذكرها ، وأرد عليها عند الكلام على مطاعن القرآن ،
وقدحت في غيوه من الخوارق بأنه من باب السحر والكهانة .

وهذا قدح مشؤوه التباس الأمر على ذلك الناظر ، وعدم التفرقة بين المعجزة ،
وغيرها ، وعدم النظر إلى أحوال مدعى النبوة ، وأحوال الساحر .

والمقل السليم لا يسلم ذلك القدح لوجه كثيرة :

منها أن النبي عليه السلام ما كان يطلب شيئاً تعذر ثمرته على شخصه حتى ينهم
بذلك ، بل كل ما كان يطلبه ويتفضيه هو السعادة لقومه في الدارين
ومنها : أن سيرة النبي عليه السلام ، وما كان عليه من الأخلاق الفاضلة ، وانحسرت

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصفح عن ظلمه، وعدم الانتقام لنفسه،
وغير ذلك من صفاته، بمنع توهم كونه ساحرا .

ومنها: أن مثل انشقاق القمر. لو كان سحرا لحيل لمن وجد مع النبي ﷺ
قط، حين من كان مسافرا، ولا علم له بتلك الحادثة، وقد ثبت أن المسافرين
أعبروا بعد قدومهم من السفر بأنهم رأوا القمر قد انشق فلقنتين .

وأیضا قد علمت فيما سبق أن المعجزات: من قبيل الخارق للعادة،
والسحر ليس من الخارق للعادة، فالقول: بأن هذه الخوارق من قبيل السحر
باطل .

أما طوائف اليهود غیر المسيحية، فاستدلوا في إنكارهم بعنة النبي مطلقا
إلى شيتين:

الأولى. قولهم، لو كان محمد نبيا مبعوثا لترتب على ذلك نسخ شريعة من
سبقه من الأنبياء المرسلين، لكن النسخ باطل، فما أدى إليه، وهو كون محمد
نبيا مبعوثا باطل، ثبت نقيضه، وهو أنه ليس نبيا مبعوثا، وجه لزوم النسخ
لبعثه: أن شريعته مخالفة للشرائع السابقة في كثير من الأحكام الشرعية العملية،
فالعمل بها مؤد إلى إبطال العمل بالشرائع السابقة في تلك الأحكام .

وجه استحالة النسخ وبطلانه: أنه يستلزم واحدا من أمرين: الجهل أو
العيب، لأن النسخ إن كان لحكمة ظهرت؟ ولم تكن معلومة من قبل، بلزم
الجهل، وإن لم يكن لحكمة اقتضته فهو عيب من غير فائدة، وكل من الجهل
واشبه محال على الله تعالى .

ويجاب عن ذلك: بأننا نختار أن النسخ لحكمة، ومصلحة اقتضته، ولا يلزم
الجهل لأن الله تعالى علم في الأزل، أن المصلحة في العمل بمحكم كذا في وقت
معلوم، وبعد ذلك الوقت تكون المصلحة في العمل بغيره، ولا ضرر في ذلك،
لأنه يرجع إلى أن الأحكام وجدت في الخارج طبقا لعلم الله تعالى .

والجهل بالمصالح راجع إلينا لعدم إطلاعنا على الغيب، وقد جاء في شريعة موسى: حرمة التزوج بالأخت مع أنه كان مباحاً في شريعة آدم وهذا نسخ.

الشبهة الثانية: أنه قد نقل عن سيدنا موسى عليه السلام أنه قال في وصف شريعته: (هذه شريعة مؤبدة) ونقل هذا تواتراً، فلو نسخت شريعته لبطل قوله هذا، وكيف يكون قوله باطلاً، وهو نبي مرسل لا يخبر عن شيء إلا بحسب ما ٢٢١١ وإذا كان نسخ شريعته مؤدباً إلى إبطال قوله، وهو باطل، فما أدى إلى نسخ شريعته وهو إرسال سيدنا محمد ﷺ يكون باطلاً.

ويجاب عن هذه الشبهة. بجوابين. الأول بالتسليم، وحاصله: أنا نسلم أنه من قول موسى:

ولكن يجب تأويله: جميعاً، وبين ما تواتر عن سيدنا موسى من أخباره برسالة سيدنا محمد ﷺ وما اشتملت عليه التوراة التي نزلت على موسى، من التبشير برسالة سيدنا محمد ﷺ، فيحمل التأيد في قوله (مؤبدة) على طول الملكة فقط.

والجواب الثاني: بالمع، وحاصله أنا نمنع كون هذا من قول موسى، بل هو مخلق، لاختلقه ابن الرابوندي، وقد عرف اليهود باقتراء الكلب على الله وتحريف الكلم عن مواضعه، فلا اعتماد على نقلهم.

وتجيب: إن قول موسى هذا نقل تواتراً عنه، بغير مثل تواتر نقل عيسى عليه السلام، مع أنه شبه بلعم، وهو كان هذا الملقب من قول موسى: محجت به شهود على الناس عند مخالفتهم له، ومن لم يأخذ بحسب ذلك، احتجوا أيضاً بأنه يوجد في التوراة: (تمسكون بالسيف، فماتت الـ... إلخ) فلو كان نبياً بقدر استقامة الشريعة المرسومة وشبهه نسحقه.

ويجاب عن هذا بأنه لا تواتر في التوراة الموجودة الآن، لاختناق علماء التاريخ على أن اليهود لا يخبروا نبي الله أنهماء لسلط الله عليهم ذات الظالم المسمى

(بعت نصر)، قتل ثلثهم وسب ثلثهم، وركب ثلثهم، وأحرق أسفار التوراة، وكان جميع الحفظة لها من المقتولين .

وأما الذين أنكروا بعثه إلى غير العرب وسلموا بعثه إلى العرب فهم: المسيحية من اليهود .

هذه الفرقة قالت: إن محمدا بعث إلى العرب خاصة، وأنكرت بعثه إلى باقي الخلق .

واستندت في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾^(١) فإن هذه الآية تفيد أن الرسول يكون لسانه لسان قومه الذين بعث إليهم، وحيث كان لسان محمد ﷺ العربية، فيكون قومه هم العرب لا غير . والجواب أن الآية صيغت لحكاية حال الرسل السابقين، مع أنهم، فإن معناها: وما أرسلنا في الأمم الخالية من قبلك رسولا إلا وهو متكلم بلغه من أرسل إليهم من الأمم .

والحكمة في ذلك: تسهيل فهم الخطاب على قوم ذلك الرسول حتى لا يحتاجوا إلى مترجم .

فكيف الآية حاكية لحال الأنبياء مع أممهم غير متعوضة لحال النبي مع من أرسل إليهم .

وسيفيد يقال: إن لم تتبع تلك السنة مع سيدنا محمد ﷺ، وينزل القرآن الكريم بجميع اللغات سهلا على قومه ٩٩ .

والإجابة على ذلك تقول: علمت من مبحث عموم الدعوة أن عموم رساله ﷺ قضت به الأدلة القطعية: عقلية وتقالية، فصحت دعوته العرب، والعجم،

(١) سورة البقرة جزء الآية رقم ١٢٠ .

والأسود، والأحمر، والجن، والبشر، فلو نزل القرآن بجميع اللغات وتعدد نظمه حسب تعدد ألسنة الأمم لأدى ذلك إلى التنازع واختلاف الكلمة، وتطرق أبهى التحريف، وكان اختصار النظم العربى والإعجاز دون غيره مظنة القدح فى ذلك الكتاب، فالحكمة إذاً هى فى اتحاد النظم الكريم، وبجته بلغة واحدة .

ولما كانت لغة العرب أشرف اللغات، وهى لغة النبى وقومه، الذين بحث فيهم وهى التى بها كان القرآن معجزاً نزل الكتاب باللسان العربى المبين .

وفهم الآية على ذلك الوجه لا تصلح الآية حجة لذلك الفريق القائل إن رسالته للعرب خاصة، لأنها مسوقة للذكر حث الأبياء السابقين مع أمهم .

وقيل . إن الآية شاملة للنسب وغيره، والمعنى وما أرسلنا رسولا إلا وكانت لغته لغة قومه، الذين بحث من بينهم، وهذه رسالته تكون لقومه وغيرهم .

والجملة فالآية محتملة، وليست نصاً فيما فهمه ذلك الغالب، فلا تعارض ما كان نصاً فى عموم دعوتى، وهو الآيات المسطورة فى مبحث عموم الدعوة التى سبق ذكرها .

وأما يقال لهذا الطاعن فى عموم رسالة النبى ﷺ المسلم بإرساله إلى العرب: حيث إنك علمت بعته إلى العرب فقد اعترفت بأنه نبي مبعوث .

ومن لوازم كونه مبعوثاً أن يكون صادقاً فى خبره، وقد نقل عنه تواتراً أنه أخبر بأنه نبي مبعوث إلى الخلق كافة، ودل القرآن الكريم المنقول إلينا تواتراً على ذلك، فيلزمك أن تصدقه فى قوله إنه مبعوث إلى الخلق، وأن تصدق القرآن فى ذلك حيث إنك مستدل بالآية السابقة الذكر .

(١) هكذا وجدت الإمارة فى المطبوعين وإني أن العبارة نراً خطأ مضمناً، وأقبل أن تكون العبارة: وهذا لا ينال أن تكون رسالتك لقومه وغيرهم.

الصحف والكتب السماوية

التي أنزلت قبل القرآن

ثبت بالقرآن والتواتر والإجماع، أن الله سبحانه وتعالى أنزل على داود عليه السلام كتاباً سماوياً، وعرف باسم خاص وهو (الزبور)، وأنزل على موسى كتاباً سماوياً هو التوراة، وأنزل على عيسى كتاباً سماوياً هو الإنجيل، قال تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبوة الذين أسلموا للدين هادوا﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وقفنا على آثاريهم بعيسى بن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وآتياه الإنجيل فيه هدى ونور﴾^(٢).

أما الصحف فقد ورد في شأنها آثار كثيرة، وأرجحها أنها مائة صحيفة يحسون نزلت على شيث عليه السلام، وثلاثون نزلت على إدريس عليه السلام، وعشرة نزلت على إبراهيم، وعشرة نزلت على موسى، والظاهر أن هذه الصحف كانت مشتملة على مواضع ولإرشادات إلى التحمل بمكارم الأخلاق، والتخلل عن مساوئها، ولم يعرف عنها شيء يقينا لعدم وجود ما يفيد يقينا بشأنها.

ما طرأ على الكتب السماوية

الذي يؤخذ من كلام الكاتبين في هذا النوع أن الزبور الذي نزل على داود عليه السلام، لم يأت بشرع جديد ناسخ لشرع موسى، وإنما كان عبارة عن مواضع وتوجيهات، فيشأ يمنع، ويمنع من الضلال. ولذلك لم ينسخ بالشرع ذاته، جاد بعده. لأن النسخ إنما يكون في الأحكام والتكاليف الشرعية.

ولقد كان من المظنون أن مثل هذا الكتاب لا يتطرق إليه التغير والتبدل لعدم وجود الداعى إلى ذلك، ولكن ذكر ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح في آخر الجزء الأول ما نصه:

(وكذلك رأينا في الزبور نسخا متعددة يخالف بعضها بعضا مخالفة كثيرة في كثير من الألفاظ، والمعالي يقطع من رآها أن كثيرا منها كذب على زبور داوود وليس من زبور داوود عليه السلام).

أما التوراة والإنجيل فقد ذكر الكاثيولون أنه طرأ على كل منها تحريف وتغير، كان من لوازمه قطعاً أنه لا يمكن الجزم معه بأن سفر كذا أو إصحاح كذا نزل من السماء.

وسأبين لك بطريق الإيجاز مفهوم التحريف وأنواعه، وأذكر لك الأدلة التي تثبت وقوعه في التوراة والإنجيل.

مفهوم التحريف

قال في القاموس: التحريف: التغير، وقال في مختار الصحاح: تحريف الكلام عن مواضعه: تغييره، ومن هذا يبين أن تحريف الكلام هو تغييره، والعدل به عن جهته.

وتدرج تحت هذا المفهوم نوعان: التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي، والتحريف اللفظي: يندرج تحته أمور ثلاثة.

الأول تبدل لفظ بلفظ، أو جملة بجملة يكون بينهما مقابلة في المعنى الثاني زيادة كلمة، أو جملته فيجوز تغيير المعنى.

الثالث نقص كلمة أو جملة بجملة يكون بينهما مقابلة في المعنى أما النوع الثالث فيدرج تحته نوعان: الأول نقص كلمة أو جملة بجملة يكون بينهما مقابلة في المعنى

النصارى لفظ (الفارظيط) الذى معناه فى لغة الإجميل الأصلية (أحمد) عن روح القدس توصلا لإنكار بشارة الإجميل بنينا **سنة** .

أما الدليل على وقوع الصحيح فى هذه الكتب : فهو .

(١) الاختلاف الواقع بين نسخ التوراة الموجودة فى أيدي اليهود، وكذا ل نسخ الأنجيل الموجودة فى أيدي النصارى، فإن هذه النسخ لو كانت سماوية. وهى التى جاء بها الوحي ما وجد فيها هذا الاختلاف المؤدى إلى التناقض هنا، بحث لا يمكن الجمع بينها .

(٢) اشتغال هذه الكتب على ما يحمله العقل، وبخلاف الفطرة السليمة .

(٣) اعتراف أكابرهم بوقوع الاختلاف فى هذه الكتب .

أما الاختلاف الواقع فى نسخ العزراة، فقد حصل فى مواضع كثيرة يبرنها من نظر فى نسخها وإلى أذكر لك شاهدا على ذلك .
النسخ المشهورة للتوراة: عند اليهود ثلاثة :

الأولى: النسخة العبرانية: وهى المتبعة عند اليهود وجمهور علماء البريستات .

والثانية: النسخة اليونانية وهى التى كانت متبعة عند المسيحيين إلى القرن الخامس عشر الميلادى . وكانوا يحتفظون إلى هذه المدة بنسخة العبرانية .

والثالثة: النسخة السامرية، وهى المتبعة عند السامريين .

هذه النسخ الثلاث نعت على مقدار الزمن من خلق آدم إلى طوفان نوح عليه السلام .

ولكن النسخة العبرانية قدرته بـ ١٦٥٦ بألف وستة وستين سنة، والنسخة اليونانية قدرته بـ ١٢٦٢ بألف ومائتين وأربعين سنة، والنسخة السامرية قدرته بـ ١٣٠٧ بألف وثلاثمائة سنة وسبعة .

فانظر إلى هذا الاختلاف الفاحش الذى يتعين معه كذب الكل، أو
البعض .

ولأجل هذا الاختلاف الفاحش لم يعتمد المؤرخ الشهير عندهم يوسيفس
اليهودى التقدير الموجود فى هذه النسخ، واختار أن المدة المذكورة ٢٢٥٦ ألفان
وسمئتان وست ومحمسون سنة .

كذلك ذكر فى التوراة العينة أن الزمان من الطوفان إلى ولادة إبراهيم عليه
السلام ٢٩٢ سنة، وقدر فى اليونانية ١٠٧٢ بألف واثنين وسبعين سنة، وقدر
فى السامرة بتسعمائة واثنين وأربعين سنة .

وفى سفر الخلق فى الباب السادس والثلاثين آية ٣١ هذا النص :

(وهؤلاء الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم قبل أن يملك لبنى إسرائيل) هذه
الآية قال فيها آدم كلارك فى المجلد الأول من تفسيره ما نصه غالب ظنى أن
مرسى عليه السلام ما كتب هذه الآية : والآيات التى بعدها إلى الآية التاسعة
وثلاثين . بل هذه الآيات، هى آيات الباب الأول من السفر الأول من كتاب
أخبار الأنبياء، وأظن أننا قرأنا من الباقين، أن هذه الآيات كانت مكتوبة على
حاشية نسخة صحيحة من التوراة فظن الناقل أنها جزء المتن فادخلها فيه اهـ .
فهذا اعتراف من ذلك المفسر بأن تلك الآيات ليست من التوراة، وأنّها
نهدت من النسخ .

وفى الباب الرابع من سفر التكوين فى النسخة العبرانية الآية الثامنة هكذا،
(وقال قابيل لحابيل أخيه، ولما صار فى الحقل قام قابيل على هابيل أخيه فقتله)
وفى النسخة السامرة، واليونانية والتراجم القديمة هكذا .

(وقال قابيل لحابيل أخيه . تعالى نخرج إلى الحقل، ولما صار فى الحقل قام
قابيل على هابيل أخيه فقتله) فإذا قارنت بين هذه النسخ ترى أن النسخة
العبرانية سقط منها ما ثبت فى السامرة، واليونانية .

وقال بعض الكاتين، قد نقل عن علمائهم تسليم ذلك .

أما الاختلاف الواقع في نسخ الأناجيل فهو كثر أيضا، وهذه شرايعه .

قال صاحب روح المعاني في تفسير سورة آل عمران عند كتابته على يد تعالى . «وإن منهم لفرقة بلعون ألسنتهم بالكذاب لصحبه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»^(١) ما نصه، وما يؤيد وقوع التغير في كتب الله تعالى، وأنها لم تبقى كما هي نزلت ووقع التفاضل في الأناجيل، وتعارضها وتكادها ونهايتها ومصادمتها بعضها ببعض، فإنها أربعة أناجيل .

الأول، «إنجيل متى»، وهو من الاثني عشرة الحواريين، وإنجيله باللغة السريانية. كتبه بأرض «فلسطين» بعد رفع المسيح إلى السماء بثمان سنين، وعدة إصحاحاته، ثمانية وستون إصحاحا .

والثاني «إنجيل مرقس» وهو من السبعين وكتب إنجيله باللغة القبطية بمدينة «رومية» بعد رفع المسيح بالثني عشرة سنة، وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعين إصحاحا .

والثالث «إنجيل لوقا»، وهو من السبعين أيضا. كتب إنجيله باللغة اليونانية بمدينة «الإسكندرية» بعد ذلك، وعدة إصحاحاته ثلاثة وعشرون إصحاحا .

والرابع «إنجيل يوحنا» وهو حبيب المسيح كتب إنجيله بمدينة «إفسس» في آسيا، بعد رفع المسيح بثلاثين سنة .

بعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحا .

وقد تضمن كل إنجيل من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر، واشتمل

(١) سورة آل عمران الآية ٧٨ .

على السوء وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها، أو على ما يخالفها، بل فيها ما
يحكم الضرورة بأنه ليس من كلام الله تعالى أصلاً .

فمن ذلك أن «معي» ذكر أن «المسيح» صلب وصلب معه لصان
أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، وأنها جميعاً كانا يبرآن بالربيع مع
اليهود، ويحرقانه، وذكر (لوقا) خلاف ذلك فقال: إن أحدهما كان يبرأ به،
والآخر يقول له، أما تحبني الله تعالى، أما نحن فقد جورينا، وأما هذا فلم يعمل
فيهما، ثم قال للمسيح ياسيدى أذكرك في ملكوتك فقال حقاً إنك تكون معي
في الفردوس .

ولما انتهى أن هذا يؤول إلى التناقض، فإن النصين عند (معي) كافران، وعند
لوقا أحدهما مؤمن والآخر كافر !! وأغفل هذه القصة «يقبس ويبحث» !! .

ومنه أن لوقا ذكر أنه قال يسوع: إن ابن الإنسان لم يأت ليهلك نفوس
الناس . ولكن ليحيى ، وخالفه أصحابه، وقالوا بل قال: إن ابن الإنسان لم
يأت ليخلص على الأرض سلاماً: لكن سيفاً وضرم فيها ناراً!!! ولا شك أن هذا
تناقض غريب، أحدهما يقول: جاء رحمة للعالمين، والآخر يقول جاء نقمة على
الخلائق أجمعين !!

ومن ذلك أن «معي» قال: يسوع للتلاميذ الإثنى عشر أنهم الذين تكونون في
الزمن الآتي سجلوس على اثني عشر كرسيًا تدبثون اثني عشر سبط إسرائيل
فشهد لكل بالفوز والبر عامة في القيامة .

ثم نقض ذلك (معي) وغیره، وقال مضي واحد من التلاميذ الإثنى عشر
وهو يهوذا صاحب صندوق الصدقة، تزوّج على يسوع ثلاثين درهماً، وجاء
بالشرطي فسلم إليهم يسوع فقال، يسوع: الويل له خير له أن لا يولد .

ومنه أن «معي» أيضاً ذكر أنه لما حمل يسوع إلى تلامذته القائد قال: أي
شر فعل هذا فصرخ اليهود وقالوا يصلب يصلب، فلما رأى عزمهم وقه لا يتمتع
فهم، أخذ ماء وغسل يديه وقال أنا بريء من دم هذا الصديق، ولستم أبصر ،

وكذب يوحنا ذلك فقال لما حمل يسوع إليه قال لليهود ما تريدون فقالوا:
يصلب فضرب يسوع ثم سلمه إليهم إلى غير ذلك مما يطول .
فإذا وقع هذا التغيير والتحريف في أصول القوم ومعتقدهم فما ظنك و
فروغهم ومأعيرهم ا هـ .

ولا شك أن هذه الاختلافات الواقعة بين النسخ بتبديل، أو زيادة أو نقص،
بل تعدد هذه النسخ أقوى دليل على أن تلك الكتب ليست هي الكتب التي
نزلت على سيدنا موسى، وسيدنا عيسى عليهما السلام، بل هي بين أمرين: إما
أن تكون بنماها من وضع البشر واختراعاتهم، وإما أن تكون قد أدخل فيها ما
ليس منها. وعلى كل فقد أصبحت تلك الكتب مشكوكا فيها فلا اعتماد عليها،
هذا ما يتعلق بالدليل الأول وهو الاختلاف بين النسخ .

وأما الدليل الثاني: وهو اشتغال هذه الكتب على ما يحيله العقل ويجب أن
يتزهد عن مثله كل كتاب مقدس فشاهده عدة أمور :

(أ) اشتملت كتب العهد الحقيق على نسبة السكر وانكشاف العورة لنوح
عليه السلام .

(ب) نسبة السكر والزنا بالبنات للوط عليه السلام .

(جـ) نسبة الزنا بالمرأة أوبيا وتعرض زوجها للقتل لداوود عليه السلام .

(د) إحضار شاة جميلة إلى داود في آخر أيامه .

(هـ) رى يهوذا بن يثوب، بأنه زنى بالمرأة ابنة، فأثت بفارس بن أحد
أجداد المسيح، كما أنه اشتمل الإتييل على ما يفيد اعتقادهم بحمل المسيح،
وجعل داود عسا ذنوبه أبو البشر .

لا شك أن العقل يحيل على الأنبياء ارتكاب الخطايا وبخاصة إذا كانت
شعرة بخسة كالزنا، وكذلك يحيل معاقبة شخص بما ارتكبه غيره لأنه ظلم .

كما يجب أن تنزه الكتب المقدسة عن ذكر مثل هذه المغازي التي تقشع منها الأجسام، وتتصبب منها حين الإنسانية عرقاً، ويحمر لها وجه الفضيلة حياءً ورجلاً .

وأما الدليل الثالث . وهو اعتراف أكابرهم بعدم الاعتماد على هذه الكتب فإليك بيانه :—

نقل الكاتبون في هذا الموضوع اعترافات كثيرة لعلماء اليهود والنصارى بتحريف التوراة، والإنجيل، وإلى أقصر على ذكر بعضها لتزداد يقيناً بمحصل التحريف المستلزم عدم الاعتماد عليها .

قال خارصلي في صفحة ٣٣٠ من المجلد الأول من نفسه «إن كنككات في الباب السابع عشر من سفر صموئيل يعلم أن عشرين آية من الآية الثانية عشرة إلى الآية الحادية والثلاثين إلخافية وقابلة للإخراج، ويقول إذا صححت ترجمتنا مرة أخرى فلا تدخل هذه الآيات فيها ام .

وقال هارصلي أيضاً . في صفحة ٢٧٥ من المجلد الثالث من نفسه، هذا القول صادق البتة أن المتن العبري كان بعد حادثة (بخت نصر) بل لعله كان قبلها أيضاً، قليلة يسوة في أشنع حالة للتحريف بالنسبة إلى الحالة التي حصلت في وقتها، بعد تصحيح عزرا .

وقال أيضاً في صفحة ٢٨٢ من المجلد الثالث من نفسه في مقدمة كتاب يوشع أن المتن المقدس حرفه لا يجب فيه، وذلك من أجل أن السامع لا يفسد النصيحة في العبارات المختلفة لا تكون إلا واحدة . وهذا مذكور في أنشور، قهرم من اليقين، إن العبارات أقيحه جداً فدخلت في بعض الأحيان في المتن المطبوع، ولكن لم يظهر في دليل على أن التحريفات في كتاب (يوشع) من سائر كتب العهد العتيق .

وقال (وارد كاتوليك) في كتابه : ومن عرضحال من فرقة يروسانت إلى

السلطان (جس الأول) بهذا المضمون، أن الزهورات التي هي داخلة في كتاب صلاتنا مختلفة للعمري بالزيادة، والنقصان والتبديل، في مائتي موضع (تحمينا) اهـ وقال أيضا (وارد كاتوليك) في كتابه مينا أحوال الإنجليز البروسانت. وما أنفسهم في تراجعهم للتوراة والإنجيل، قال المستر كارل: المترجمون الإنجليز أنفسهم المطلب، وأغفوا الحق، وخذعوا الجهال، وجعلوا مطلب الإنجيل الذي كان مستقيما مروجاً، وعندهم الظلمة أحب من النور !! والكذب أحب من الصدق !! اهـ .

وقال أيضا وارد كاتوليك في كتابه استدعى مستر بروتن من أراكين فونسلو للترجمة الجديدة قائلا إن الترجمة التي هي مروجة في إنجلترا هي مملوءة من الأخطاء وقال للقسيسين: إن ترجمتكم الإنكليزية المشهورة حرفت عبارات كتب العهد العتيق في ٨٤٨ ثمانمائة وثمانية وأربعين موضعا، وصارت سببا لرد أناس غير محصوين، كتب العهد الجديد ودعولهم النار .

وقد ألف (سلسوس) من علماء الوثنيين في القرن الثاني للميلاد كتابا لإبطال الديانة النصرانية قال فيه كما نقل عنه (أكهارن) من علماء ألمانيا ما ترجمته (بدل النصارى أناجيلهم ثلاث مرات، أو أربع مرات بل أكثر من هذا تبديلا كان مضامنها بدلت اهـ) ولى كتبهم: إن الفرقة الأيونية من فرق النصارى في القرن الأول للميلاد كانت تصدق بإنجيل (متى) وحده وتكر ما عداه ولكن كان ذلك الإنجيل مخالفا لإنجيل (متى) الذي ظهر بعد ظهور نسطورين . وإن الفرق المارسيونية من فرق النصارى القديمة كانت تتخذ بإنجيل أريو وثلاث النسخة التي تؤمن بها غالبية المبرجودة الآن، وكانت تشكر سائر الأناجيل، وهي عندهم من المبتدعة .

وأظن أنك تريد أن سمعت تلك النصوص المتعارضة، وحكم العقل على هذه الكتب بالتحريف، لاشتغالها على الاستحصال، واعتراف أكابرهم بالتحريف، لا متى عندك شك في أنها طرأ عليها من التغيير والتبديل ما لا يمكن منه الجزم بصحتها اهـ .

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو اللفظ العربي المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا نواتراً، المتحد بتلاته، المتحدى بأقصر سورة منه .

أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام منجماً في ثلاث وعشرين سنة، ولم ينزل جملة واحدة كدوره من الكتب السماوية، لتستعد القوى الإنسانية لتلقيه، وليتيسر كتابته وحفظه .

اشتمل ذلك الكتاب على مائة سورة وأربع عشرة .
منها ما نزل قبل الهجرة ويسمى مكيّاً .

ومنما ما نزل بعد الهجرة ويسمى مدنيّاً . وكانت كلما نزلت آية أو سورة بلغها النبي إلى أصحابه، وطلب منهم حفظها، فيحفظونه، وتتلون أمامه ما حفظوه ليشتوا من حفظه كما سمعوه من الرسول ﷺ .

ولم يكتب النبي بتحفيظ أصحابه، بل كان يأمر كتّاب الوحي بكتابة ما ينزل وقت نزوله، وهم كثيرون منهم زيد بن ثابت، وعمل بن أبي طالب، وعثمان ابن عفان، وعبد الله بن مسعود، ومعاوية بن أبي سفيان، فكانوا يكتبون ما يلقى عليهم في الجلد، وأطراف الجريد التي ليس فيها غوص، والعظام مع ملاحظة ترتيب الآيات في السور كما يأمرهم الرسول، ولم يتقل رسول الله إلى الرفيق الأهل حتى عرض القرآن بعد تمامه عرضتين على جليل، ثم تراء عليه أصحابه بعد ذلك على الترتيب المعروف، وسننى جميع في الصفوف، نهاية الأمر أن الصحائف والأقواس التي كتب عليها لم تكن مجموعة بين دفتين في مصحف واحد، كما أنها لم تكن جميعها تحت يد واحدة، بل كانت مفردة عند الصحابة . ونفى القرآن في تلك الصحف المفردة عند الصحابة إلى أن كان حرب الردة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وكثر القتل في القراء، وفي واقعة الجمامة، فخاف سيدنا عمر أن يعم القتل جميع القراء فيذهب كثير من القرآن .

فرض على أي بكر رضى الله تعالى عنه جمع القرآن فلم يصادف هذا الأمر في بدايته قبولا عند أي بكر، لكونه لم يفعل في زمن الرسول ﷺ، وعرض أبو بكر هذا الرأي على نهد بن ثابت فرأى ما رآه الخليفة .

ولكن عمر صمم على ما رآه ولا زال يقفد رأيه حتى وافقاه، فجمع أبو بكر الحفظة المعروضين بالإتقان، فاجتمعوا مرة أخرى وأحضروا تلك الصحف التي كانت مكتوبة في زمن النبي ﷺ، وأخذوا يقرأونها ويقابلونها حتى وصلوا إلى قوله تعالى ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عدم حرمكم عليكم بالمؤمنين وصدق رحيم﴾ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم^(١) فلم يجدوه ضمن المكتوب مع كونه محفوظا عند الحفاظ، فما زالوا يبحثون حتى وجدوه مكتوبا عند أبي خزيمة بن أسير الأنصاري .

وكذلك آية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنه من قضي نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾^(٢) من سورة الأحزاب فإنهم وجدوها عند خزيمة بن ثابت فكتبوا القرآن: آياته، وسوره على الترتيب، والضبط اللذين تلقوهما عن رسول الله ﷺ، ووضع عند أبي بكر فلما تولى كان عند عمر، وبعد وفاته وضع عند السيدة حفصة أم المؤمنين بنت سيدنا عمر رضى الله تعالى عنهما .

ولم تزل هذه الصحف عند السيدة حفصة حتى كانت خلافة سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه .

فأشار عليه بعض أصحابه أن يكتب للناس مصاحف ويرسلها إلى الآفاق التي انتشر فيها الإسلام ليجمع المسلمون على مصحف واحد، وحتى لا يقع

(١) الآية في آخر سورة هجدة .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

في القرآن زيادة ولا نقص، ولا تبديل في آياته، ولا تغيير في ترتيبه، فأرسل
سعدنا عثمان إلى السيدة حفصة يطلب منها الصحف الموجودة عندها لتتسخ في
المصاحف، فأرسلتها حفصة إليه، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير،
وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في
المصاحف، وأرسل إلى كل مصر مصحفاً، وأبقى بالمدينة مصحفاً، وأمر بما
سواه من الصحف أو المصاحف أن يحرق، وصار الناس يقرؤون على مصاحفه
فيكتبون منه مصاحفهم .

ولم يكن ذلك المصحف مشكولاً ولا منقوفاً، واستمر هكذا إلى أن دخل في
الإسلام غير العرب من الفرس وغيرهم، وفشا اللحن على الألسنة، فخيف أن
يفتح اللحن في قراءة القرآن، فطلب أمير العراق وهو زياد (من أبي الأسود
الدؤلي) أن يضع علامات تضبط قراءتهم، فشكل أواخر الكلمات، وجعل
الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة تحته، والضممة نقطة إلى جانبه، وجعل
علامة الحرف المتون نقطتين، وانتشرت هذه الطريقة، وعمل بها الناس، لكنها لم
تُحفظ الألسنة من الخطأ كل الحفظ، فدعت الحاجة إلى نقط الحروف، وشكل
أوائل الكلمات وأواخرها، وأوسطها، فقام بنقط الحروف نصر بن عاصم، بأمر
الحجاج وقام بشكل الكلمات (الخليل بن أحمد) وجعل الفتحة ألفاً مسطوحة
فوق الحرف، والكسرة ياء تحته، والضممة واو في أعلاه، ووضع علامات المد
والتشديد. ولقد عني القراء والحفاظ من بعد ذلك بوضع فواصل بين آياته،
وعلامات تبين مواضع الوقف، والإبتداء فيه، وعلامات أخرى تعين على أحكام
تلاوته .

وجرت عادتهم أن يبينوا في أول كل سورة أهم مكية أم مدنية، ويذكر عدد
آياتها، وما زال المسلمون من الملوك والأمراء وغيرهم يتنافسون في تحسين كتاباته،
يتبارون في تجويد قراءته، يتلقاه عندهم عن خلفه. إلى أن ظهرت المطابع
فطبعت الآلاف من نسخه في جميع الجهات الإسلامية من الإنفاق والضبط .

ومن هنا نعلم أن المسلمين في جميع الأعصار عتوا بالقرآن المجيد عتاه لم يسبق لها مثل في التاريخ، وهذا تحقيق لوعده تعالى في قوله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(١)

إعجاز القرآن الكريم

من الأدلة الدالة على صدق النبي محمد ﷺ في دعواه الرسالة القرآن الكريم، حيث جاء فوق طاقة البشر، ولم يمكنهم معارضته، فكان ذلك دليلاً على أنه من عند الله لا من عند محمد، ولنا مسلكان في بيان إعجازه:

الأول من جهة التحدى.

والثاني من جهة كونه كلاماً معناداً أو خارقاً للعادة.

وبهان الأول أن يقال: القرآن تحدى به النبي أهل الفصاحة والبلاغة وعجزوا عن معارضته، وكل ما كان كذلك فهو معجز، ينتج القرآن معجز. فهذا قياس مركب من مقدمتين أنتج المطلوب وهو أن القرآن معجز. ولأجل أن يكون الاستدلال صحيحاً ومسلماً يجب النظر في مقدمته، وأبصال ما كان نظرها منبهاً إلى الضرورة.

وبالنظر في المقدمتين يتضح لنا أن الصغرى نظرية فيجب إثباتها وإحصائها إلى الضرورة، أما الكبرى فهي ضرورية فلا يستدل عليها.

ولذلك نقول إن الصغرى تضمنت أمرين:

الأول: أن النبي تحدى العرب بالقرآن، وطلب منهم الإتيان بمثله.

الثاني: أنهم عجزوا عن المعارضة، دليل الأول آيات التحدى، التي اشتمل

(١) سورة الحجر الآية ٩.

عليها القرآن المنقول إلينا تواترا، والخواير دليل قطعي بالإجماع، وقد سلك الله بهم في الصلحى طريق التسلل، قطعا لحجهم، فحملهم بالقرآن كله قال تعالى ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾، ثم بعثر سور منه قال تعالى ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ يَهْتَكِرُونَ﴾، ثم بعثر سور مظه مظهرات، ثم سورة منه قال تعالى ﴿وَأَن كُفِّرُوا﴾، ثم ما نزلنا على محمدنا فأتوا بسورة من مثله^(١) فهذه الآيات دلت على وقوع التحدى مرة بالقرآن كله، ونزلة بعثر منه، ومرة بسورة واحدة منه، وهذه هي النهاية في التحدى .

وأما دليل القالى وهو العجز عن المعارضة فهينى أن يبعد له بيان معنى العجز أولا ثم نتبه، ولذلك نقول: العجز عن الشيء هو عدم الممكن من الإتيان به مع وجود الداعى والآلات، ولقد كان الداعى للمعارضة متحققا عند العرب، والآلات التى يستعينون بها على المعارضة أيضا متحققة، وذلك أن النبى ﷺ طلب منهم ترك دينهم، والتنازل عن ربابهم، واعتناق دين الإسلام والانقياد لكاليفه، مع كونها توجب مطقة تلحق البدن، ونقصا فى المال، وتركاً لعبادة الأصنام، التى هى أحب إليهم من أنفسهم، ولم يكن النبى فى ذلك الوقت ذا جاه وقوة، بحيث تخاف العرب قهره وسطوته، ومع هذا فقد كانوا مصفين بالشجاعة، وكانوا أهل فصاحة وبلاغة كما لا يخفى، فعبث كانت هذه الدواعى متوفرة من كل جانب، والمعين على المعارضة متحققا عند العرب ولم يتمكنوا من الإتيان بما يعارض القرآن، كانوا عاجزين لا بحالة، ولو كانوا قادرين على المعارضة لأتوا بما يماثل القرآن، واشتهرت معارضتهم ونقلت إلينا لكنها لم تنقل خبث العجز .

وقد أوردت نقوض على كل من الأبرهن المذكورين فى المقدمة الصغرى لا مانع من إيرادها، والإجابة عنها، حتى يسلم الدليل تماما .

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .

(١) قد عولم في إثبات التحدى على الآيات القرآنية المتضمنة للتحدى وادعهم أنها متواترة ونحن نمنع تواترها، لأن الذى ثبت تواتره هو جملة القرآن، لا كل آية على حدها، بدليل أنه نقل عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه أنكر كون الفاتحة والمؤمنين من القرآن، ونقل أيضا الخلاف في قرآنية (بسم الله الرحمن الرحيم)، التى في أوائل السور، ونقل أيضا أن أبى بن كعب أثبت في مصحفه آية القنوت وهى (اللهم احملني نعمن هديت) وأثبت أيضا (لو أن لابن آدم واديين من ذهب لأجنى لهما ثالثا) ولا يخفى أن هذا الخلاف دليل على أن القرآن غير متواتر في تفاصيله .

وآيات التحدى من جملة التفاصيل فلا تكون دالة على التحدى قطعا .
وبجواب عن ذلك بأن الذى نقل عن ابن مسعود في الطرق الصحيحة ليس إنكار القرآنية في هذه السور، إنما الذى فيه الخلاف هو كتابتها في المصحف فإن ابن مسعود كان يرى عدم كتابتها في المصاحف لكثرة تلاوتها في الصلوات وحصول الرق بها فلا يخاف عليها من الضياع، وهذا خلاف لا ثمة له، وأما التسمية فالمعمل عليه في نقل الخلاف هو أنها هل هى آية من كل سورة، أو آية من القرآن، أنزلت للفصل بين السور، وأما الذى كتبه أبى بن كعب في مصحفه من آية القنوت وقوله (لو أن لابن آدم ألغ) فلا يؤخذ من كتابته في مصحفه أنه كان يقول بقرآنيته، ولم ينتقل عنه القول بقرآنيته، فعلى تسليم أنه كان مكتوبا في مصحفه لا يلزم قوله بقرآنيته .

(٢) لقائل أن يقول سلطنا وطوع التحدى، ولكن هذا التحدى لا يختار إلا إذا وصل إلى جميع العالم، ولا يمكن القول بذلك، لأننا نعلم بالضرورة أن سائر الأكليم البعيدة عن جزيرة العرب، ما كان يعلم ساكتوها بوجود النبى **ﷺ**، فضلا عن علمهم بتحديه بالقرآن، فحين أن التحدى وصل إلى البعض لا غير، وهذا لا يكتفى، لأن عجز البعض لا يكون عجزاً للجميع .
وبجواب عن ذلك بأننا لمختار أنه وصل إلى البعض، ولكن إذا كان ذلك

البعض الذى وصل إليه أقدر على المعارضة، وحصل منه العجز، كان عجزه، مستلزما لعجز البعض الآخر، وحيث ثبت أن العرب الذين هم أهل الفصاحة والبلاغة وقد نزل القرآن بلغتهم، عجزوا عن المعارضة ففهم الذى لا علم له بأساليب الكلام البليغ يكون أعجز .

ولنا أن نختار أنه لابد فى التحدى من الوصول إلى الكل، ونقول قد وصل القرآن الآن إلى جميع الناس، وغجز الكل عن المعارضة .

(٣) ممنع قولكم إن العجز عن المعارضة قد تحقق بل حصلت المعارضة من سلسلة فقد نقل أنه عارض قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الخ بقوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجُمَاهِرَ فَصَلْ لِرَبِّكَ وَجَاهِرْ﴾ وقال أيضا (والطاحنات طحننا والمخابرات خبيرا .

ويجاب عن ذلك بأن المعارضة بين الكلامين إنما تتحقق إذا كان بينهما مماثلة أو مقاربة بحيث يلتبس أحدهما بالآخر، أو يشبه به، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان الكلام المعارض به مماثلا للقرآن فى الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، ولم يتحقق هذا فى كلام معارض أصلا، أما مجرد التماثل فى الفواصل، أو الإخبار بالأمور الماضية، من غير اشتغال على الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فلا يكفى .

المسلك الثالث لإثبات إعجاز القرآن

المشتون لإعجاز القرآن من جهة كونه كلاما معتادا، أو شارقا للإعادة، افترقوا إلى فرقتين :

فرقة قالت إنه كلام معتاد وفى إسكان العرب تملغاه إذا تركبوا وشأنهم أن يأتوا بمثله .

وفرقة قالت إنه خارج للعادة ولا يمكن للعرب مع علو كعبهم لى الفصاحة

وبالخاصة أن يأتي بمثله ، وكل من الفرقين يثبت له الإعجاز .

الفرقة الأولى قالت نقل عن العرب عظم ورسل وقصائد جمعت من ضروب البلاغة والفصاحة ما يجعلها في أعلى طبقات البلاغة ، وكل من قدر على الإتيان بمثل هذه التراكيب ، فهو قادر على معارضة القرآن بمثله ، من التراكيب الجليلة لكل الأساليب البلاغية ، وغاية الأمر أن الله تعالى صرفهم عن معارضة القرآن بسلب العلوم التي توصلهم إلى ذلك ، أو بإلحاحهم وقسرم ، مع بناء التعلل والنوعى التي توصل إلى المعارضة . وبهذا يثبت إعجاز القرآن .

هذا القول وإن نقل عن بعض العلماء لكنه لا يصح التعميل عليه في هذا الباب ، فإنه يترك للمعارض باباً واسعاً في القدح في إعجاز القرآن ، لأنه يؤدي إلى أن الإتيان بمثل القرآن ممكن ، والامتناع إنما جاء من كون الله سبحانه وتعالى لم يمكن المعارضين من المعارضة ، ولو كان الأمر هكذا ما كان القرآن معجزة ، لأن المعجزة مقدورة لله تعالى ، وليست مقدورة للعبد ، وكيف هذا وقد ورد أن الوليد بن المغيرة لما سمع قوله تعالى ﴿ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالْعَالَمِينَ إِحْسَانًا وَإِتِّعَاءً ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ إلى آخر الآية دهش لفصاحته وبلاغته ، ووصفه بما يفيد أنه أدرك ما اشتمل عليه من وجوه الإعجاز ، حيث قال (والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمخفق وإن أعلاه لمشر) .

فلو كانت العلوم التي تؤهل العرب للمعارضة سلبت ما أدرك المغيرة حسن نظمه وتأليفه ، لهذا لا يصح التعميل على هذا القول .

الفرقة الثانية قالت إن القرآن خارق للمادة وحيث كان خارقاً للعادة وظهر على يد مدعى النبوة وتوفرت فيه شرائط المعجزة فهو معجز ، ولكن أصحاب هذا القول يختلفون في تعيين الجهة التي كان بها خارقاً للعادة ، ومعجزاً ، فمنهم من قال خلوه عن المناقضة ، وهذا فاسد لأوجه كثيرة منها أن الإجماع متعقد على أن التحدى وقع بأقصر سورة من سور القرآن ، وقد يوجد في كثير من الخطب

والشعر والرسائل ما يكون في مقدار سورة كسيرة ، فضلا عن صبيحة ، غداً من
ثنايهم فيلزم أن يكون معجزاً وليس الأمر كذلك .

ومنهم من قال اشتباهه على الأمور الغيبية وهو فاسد أيضاً لأنه يؤدي إلى أن
النافع للعرب عن معارضته عدم علمهم بالأمور الدنيوية ، فكان من حتمهم أن
يقولوا إنا متمكنون من معارضة القرآن لولا اشتباهه على الأمور الغيبية .

ولكنهم لم يقولوا ذلك ، فكانت دليلاً على عدم التعبد على ذلك القول .

ومنهم من قال جهة الإعجاز هي الفصاحة وفيها بساطة ففازوا من
التعبد وهو فاسد أيضاً لأن كثيراً من شعر العرب ونحوهم وسائرهم ليس في
ألفاظه تعبد ، فلو كان إعجاز القرآن من هذه الجهة لكان كثير من كلام
العرب معارضا للقرآن ، وأيضاً لو كان وجه الإعجاز هو الفصاحة المناسبة لهذا
المعنى السابق لكان قول العرب (القتل أنقى للقتل) مساوياً لقوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُمْ
فِي الْفَصَاحَةِ حَمَلٌ ﴾ وليس الأمر كذلك ، فيطل ذلك القول أيضاً .

وقال بعضهم جهة الإعجاز هي تجدد المعاني كلما تأمل الناظر في ألفاظه ،
وهذا فاسد أيضاً ، لأن الأصل في وجه الإعجاز أن يكون القرآن متغيراً به لا
بشاركه غيره فيه ، وتجدد المعاني عند تكرار التأمل ليس خاصاً بالقرآن ، فإننا
نرى أن الكتاب المعنى بتأليفه وجمعه في أي فن من الفنون ، كلما تجدد فيه
النظر ظهرت معان من جديد في كل مرة ، فكان اللازم أن تكون الكتب التي
على هذا الوجه معارضة للقرآن ، وليس الأمر كذلك ، وأيضاً فبعض الآيات
مهما كررت النظر فيه لا يفيد إلا معنى واحداً ، مثل قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهُ
وَاحِدٌ ﴾ وقوله تعالى ﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ ﴾ فإنها تفيد بصريحها وظاهرها إثبات توحيدانية الله تعالى ، وما عدا ذلك
من المعاني لا يخلو حاله إما أن يستقل العقل بفهمه أو لا فإن استقل بإدراكه
فقد أحاط به كغيره من سائر الكلام ، فلا تفرقة بينه وبين غيره ، وإن كان لا
يستقل بفهمه فهو من قبيل الأمور الغيبية ، وقد تقدم بيان بطلان كونها جهة

إعجاز . وقال بعضهم إن ألوجه في إعجاز القرآن هو البلاغة وفسرها باستماله على وجوه الاستعارة والتشبيه ، والفصل والوصل ، والتقديم والتأخير والإسار والإظهار إلى غير ذلك .

وهذا القائل إن أرجح ذلك الوجه إلى المعاني فقط دون الألفاظ فلا يصح جملة جهة إعجاز ، لأن القرآن معجز باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعا ، وقال بعضهم إن ألوجه في إعجاز القرآن هو نظمه وتأليفه الذي امتاز به عن سائر الكلام ، وهذا الوجه بانفراده لا يصح أن يكون وجهاً للإعجاز ، لأنه يجوز أن يكون مع جودة نظمه غير فصيح أو غير بليغ .

القول المختار في إعجاز القرآن

الذي اعتمده المحققون في هذا البحث أن المدار في إثبات إعجاز القرآن على أمور ثلاثة لابد من تحققها .

الأول الفصاحة في الألفاظ بمعنى أنها برقة من التعميد والثقل ، خفيفة على اللسان .

الثاني البلاغة في المعاني .

الثالث جودة النظم وحسن السباق فهذه الأمور الثلاثة هي التي عليها المعول في إثبات إعجاز القرآن .

ولما ائحار المحققون هذا الوجه دون غيره لأن آيات التحدى مطلبت الإتيان بالمثل ، وقد ذكر مطلقا مع العلم بأن الجهات الماثلة بين الكلام كثيرة ، ولم تسأر ، فاعرب النبي ﷺ عن المثل المطلوب لما تحداهم .

فدل ذلك على أن الماثلة التي بها المعارضة كانت مطلوبة فيما بينهم والرجوع إلى ما أكر من العرب من تفاخرهم بالقصائد والخطب ، يتبين لنا أن التحدى كان بينهم بهذه الأمور الثلاثة ، دون سواها ، فوجب أن تكون هي جهة

الإعجاز ولم يثبت أن العرب عارضوا القرآن بكلام اشتمل على هذه الأمور الثلاثة، وإذا ثبت عجزهم ثبت أن القرآن معجز .

وقد أورد على كون إعجاز القرآن من جهة الفصاحة والبلاغة وجودة النظم أمور يحسن ذكرها والإجابة عنها حتى يسلم ذلك الوجه وتبين وجه اختياره على ما عده .

(١) لو كان الوجه في إعجاز القرآن هو اشتغاله على الفصاحة والبلاغة وجودة النظم، لما كان القرآن دالا على صدق النبي، فلا يكون معجزة، لكنه دال على الصدق بإجماع المسلمين، فبطل كون وجه الإعجاز هذه الأمور الثلاثة المذكورة .

ودليل الملازمة أن كلام العرب فصيح بليغ، جيد النظم، حسن التأليف . فيكون من جنس القرآن، فيكون مقدورا للعباد، وقد قلتم إن المعجزة من فعل الله تعالى، لا من فعل العباد، ويجعل جهة الإعجاز هذه الأمور المذكورة يكون الإتيان بمثل القرآن مقدورا للعباد، فلا يكون معجزة، فلا يكون دالا على الصدق .

ويجيب عن ذلك بأن أصل الفصاحة والبلاغة، وجودة النظم، مقدور للعباد، لكنها جاءت في القرآن على وجه ليس مقدورا لهم، فالاشتراك حيثه إما وقع في أصل الفصاحة، والبلاغة، وجودة النظم، وانفرد القرآن الكريم باشتغاله على الطرف الأعلى لهذه الأمور، وهو غير مقدور للعباد، مع توفر الدواعي عند العرب فكان معجزة .

(٢) لو كان الوجه في إعجاز القرآن هو اشتغاله على هذه الأمور الثلاثة، ووجودها فيه، دون سواه، لكان متميزا عما عده، بحيث إذا سمع، وكان السامع عالما بهوجوه البلاغة، كالصحابة لأدرك من أول نظرة أن الكلام ليس من جنس كلام البشر، لكن قد وقع من الصحابة عند جمع القرآن ما يفيد غير ذلك،

قد كانوا يطلبون الآية والآيتين من الحافظ، فإن كان مشهوراً بالعدالة والأمانة، صدق القول، قبلوها منه، وإلا فلا، ولو كان الوجه في الإعجاز ما ذكر ما حصل السؤال ولتعمز بمجرد سماعه عما عداه .

ويجاب عن ذلك بأن هذه الرواية موضوعة، مختلفة، لا أصل لها، والقرآن رتب وجمع في مصاحف في زمن النبي ﷺ، غاية الأمر أن هذه المصاحف كانت مفرقة عند الصحابة، وفي زمن أبي بكر جمعت عنده، ثم بعد وفاته عند عمر، ثم بعد وفاته عند السيدة حفصة أم المؤمنين، إلى أن أخذت منها في زمن سيدنا عثمان، وجمع القرآن كله في مصحف واحد، وعلى فرض تسليم هذه الرواية فاتحري إنما كان للكلمة والكلمتين، وكل ما لم يتحقق به الإعجاز .

أما المعجز من سورة قصص وثلاث آيات فلم يكن التحري له أصلاً .

(٣) لو كان الوجه في إعجاز القرآن هو ما ذكر لما اشبه الأمر على سيدنا عبد الله بن مسعود (وهو من العرب الفصحاء) في الفاتحة والمؤذنين، لكن قد حصل له الاشتباه فيها، ولذلك لم يشتم في مصحفه .

ويجاب عن ذلك بأن المقول عن ابن مسعود في الروايات الصحيحة، أنه لم ينكر نزول هذه السور من اللوح المحفوظ، وأن جهل نزل بها من السماء، فهو محترف بالقرآنية، ولكنه كان يرى أن كتابة القرآن في المصحف دعت إليها ضرورة المحافظة عليه من التغير، والتبديل، وهذه الضرورة متفية في تلك السور الثلاثة .

أما الفاتحة فلأنها على كل صلاة فلا يتوهم حصول تغير فيها فلا حاجة إلى كتابتها، وأما المؤذنان فإن الرق تحصل بهما، وهي من الأمور التي تتكرر خوفاً من التغير والتبديل فيها بعيد، فلذلك لم يشتم في مصحفه، ولو سلم ما نقل عنه فهو قول شاذ يخالف لما أجمعت عليه الصحابة، فلا يحول عليه، وبهذا البيان السابق ثبت إعجاز القرآن، فكان معجزة دالة على صدق النبي محمد ﷺ في دعواه أنه رسول الله للناس جميعاً .

مخصائص القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام عرفي، فصيح بليغ، جيد انظم، حسن الأسلوب. ومن هذه الجهة قيل إنه عرفي، ومن جنس كلام العرب، وهو أيضا كتاب مقدس، نزل به جبريل الأمين على سيدنا محمد ﷺ، ومن هذه الجهة كان من جنس الكتب المقدسة، قبل طرو التفسير والتبديل عليها، يجمعها أن الجميع وحى سماوي أنزله الله تعالى للعمل به، وإرشاد من نزل على نبيهم إلى الطريق الأقوم.

ومع كون القرآن الكريم من جنس كلام العرب، فقد امتاز عن كلامهم الفصيح البليغ، بما جعله في أرق مراتب النصاحة والبلاغة، فإنك ترى القرآن مع طوله، وتعدد سورة وآياته، وتناوله شؤوننا متنوعة، خاليا من كل ما ينزل بهلاخه عن المرتبة العليا، ومن كل نقد يوجه إلى كلمة من كلماته، أو جملة من جملة، في حين أن خطب العرب ورسائلهم وقصائدهم لم تغل من نقد يوجه إليها في هذا الباب.

وما امتاز به القرآن الكريم في باب الفصاحة والبلاغة، إبرازه للمعنى الواحد في عدة صور مختلفة، مثل قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون، فإنها تكررت مرارًا، ومع ذلك تراها قد لبست في كل مرة ثوبا جعلها تتناسب مع الآيات التي سبقتها، والتي تلتها، فتارة تلبس ثوب الحقيقة، وأخرى ثوب المجاز أو الكناية مع إطناب، أو إيجاز، أو مساواة، ول كل هذه الأحوال ترى انسجاما بين الحروف والكلمات، والجمل، لا يوجد في كلام العرب البلاء، كذلك مما امتاز به القرآن الكريم ارتباط جميع آياته ببعضها ارتباطا لم يشبه مخالفة أو تناقض.

فخرى الآية المشتعلة على إطناب موضحة لآية أخرى موجزة، اشتركت معها في معنى واحد وهكذا.

وهذا الباب واسع ليس محله علم الكلام فإن أردت الاستزادة منه فعليك بمكتب البلاغة التطبيقية.

أما الترجمة التي امتاز بها عن الكتب المقدسة فكبيرة:

منها أنه كتاب صالح لجميع الناس، ومناسب لجميع الأزمان فلا ينسخ بغيره، وقد نسخ ما قبله من الكتب السماوية، بالنسبة للأحكام التكليفية بخلاف غيره.

ومنها أن مباحث العقائد سواء تعلقت بالخالق، أو بالبعث، أو بالآخرة ذكرت فيه مقرونة بأدلتها الكونية أو العقلية، بخلاف غيره من الكتب السماوية فإن العقائد ذكرت مجردة عن الأدلة، ولا سند لإثباتها إلا مجرد الوحي بها.

ومنها أنه اشتمل على جميع ما اشتملت عليه الكتب المقدسة من توحيد، ونصص، وواعظ وأدب فاضلة.

وانفرد بالأسفار عن أمور غريبة لم تكن قد وقعت حين نزوله، كذلك أُرشد إلى حكم لبعض الأشياء، مثل إرسال الرسل.

ومنها تكون الشهادة التي جاء بها طريقها ومطابقتها بالنسبة للشرائع السابقة فليس فيها من أنواع التكليف ما يشق على النفس احتماله، كما كان في الشرائع السابقة، ولا منع للإنسان من التمتع بالعطيات من الرزق، ولا التزهد في الدنيا، والأمر بتركها، قال تعالى ﴿لَا يَكُلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١) وقال تعالى ﴿وَارْجِعْ لِيْمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(٢).

ومنها غلوه من القموص والتنمية على الناظرين فيه، فأياته واضحة المعنى، والخفاء الذي يلاحظ في بعض الآيات يزيله آيات أخرى واضحة المراد.

ومنها عدم جمع كل نوع من مقاصده التي نزل لأجلها في سورة على حدة بخلاف غيره من الكتب المقدسة.

(١) سورة البقرة الآية الأولى ٢٨٦. (٢) سورة القصص الآية ٧٧.

فالمقائد ذكرت مفرقة في سور، كذلك العبادات والآداب، وللقصص،
 ولواعده التشريعية، والحدود والعقوبات، والحكمة في ذلك أنه لو جمع كل نوع
 منها على حدة كما في التوراة لفقد القرآن بذلك أعظم مزياه، وهي استفادة كل
 حافظ للقليل من سورة كثيرا من مقاصده، المنبئة في جميع السور، لأن السورة
 الواحدة لا يوجد فيها في ذلك الترتيب إلا مقصد واحد من المقاصد، التي نزل
 القرآن لإفادتها، فلو اقتصر الشخص على حفظها، وليس فيها إلا مقصد واحد
 لأدركه الملل عند تكرار تلاوتها، وكانت فائدته قاصرة على باب واحد، بخلاف ما
 إذا كانت المقاصد منبئة في جميع السور .

ومنها نزوله باللغة العربية الفصحى وبذلك تحقق إعجازه، وكونه معجزة دالة
 على صدق النبي ﷺ .

ومنها تكرار بعض المقاصد مثل التوحيد، والبحث، والرسالة مع عدم الملل،
 والسآمة، بل مع القبول والحسن، والتأثير في نفس السامع، بأبلغ وجه وأكثه،
 فإن القرآن اشتمل عليه دون غيره من الكتب لاختلاص ما ركز في نفوس القوم،
 وتأصل فيها، من عبادة الأصنام وسأوة الخالق للعباد، واستبعاد كون الرسول
 من البشر، فإن ما تأصل في النفوس وتشبعت به، وألفت، لا يكفى في اختلاصه
 التبيه مرة أو مرتين .

الإيمان بكل ما جاء به القرآن

أنزل الله سبحانه وتعالى الفرقان على نبيه محمد ﷺ بأفظة، التبعيد بتلاوته،
 والعمل بما تضمنته من الأحكام، والتصديق بما دل عليه من المقائد الدينية،
 والتحملي بما أرشد إليه من مكارم الأخلاق، ويوصل إلينا بطريق التواتر بلا شبهة
 في سورة من سورة أو آية من آياته .

لذا يجب على كل مسلم ومسلمة التصديق بجميع سورة وآياته : بحيث لا

أنكر قرآنية سورة أو آية، كان ذلك الإنكار مخلا بمقيدته، مقتضيا لعدم إيمان
سواء كانت تلك السور والآيات مفهومة المعنى أو غير مفهومة .

هذا الكتاب الكريم المشتمل على العقيدة الصحيحة بالنسبة للمخالفين
وعلا، وبالنسبة للكافرين، وعلى الأحكام التكليفية، وكل ما فيه رُئي للنور
الإنساني من حيث دلالاته على معناه يتنوع إلى أنواع:

الأول ما هو نص في معناه بحيث لا يحتمل غيره، مثل الآيات الدالة على وجود
إلهي وتوحيده، وقدرته وإرادته وعلمه، والآيات الدالة على رسالة محمد ﷺ .
وعومها، ورسالة غيره ممن ذكرت أسمائهم تفصيلا .

والآيات الدالة على وجوب الصلاة والصوم، والزكاة والحج، والآيات الدالة
على تحريم الشرك، والظلم والظلم، وحكم هذا القسم وجوب الإيمان بالجزم
والتصديق بما دل عليه، بحيث لو انعدم التصديق به انعدم الإيمان .

الثاني ما ليس نصا في معنى محاصر، بل يحتمل عدة معان، وكل معنى منها
لا يحمله العقل، بل يحتمله التركيب، ويصلح للدلالة عليه، ولم يتم إجماع على
تعيين معنى من هذه المعاني التي يحتملها .

وحكمه عدم وجوب الجزم بمعنى من هذه المعاني المحتملة، وجاز لمن كان من
أهل النظر والاستنباط عليه أن يقلد واحدا من أهل الاستنباط .

مثال هذا القسم قوله تعالى ﴿وَأَسْمَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾^(١) فإن الباء الداخلة
على الرؤوس يحتمل أن تكون للتجسس، وأن تكون للإلصاق، وأن تكون زائدة،
والآية صالحة لكل هذه الاحتمالات، ولذلك أخذ كل إمام من المجتهدين
باحتمال .

ومن هذا النوع آية الرؤية وهي قوله تعالى ﴿وَجِئُوا يَوْمَئِذٍ نَاضِرِينَ﴾ إلى ربه
ناظرة^(١) فإنها لكونها ليست نصا في الرؤية أمكن للمعتزلي أن يقول فيها
(انظر مبحث الرؤية) .

النوع الثالث ما يحتمل معنى مستحيلا هو المتبادر منه ، ومعنى ممكنا . وهو
غير متبادر مثل قوله تعالى ﴿وَيَقْبَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَالْحَمْدُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا فِي مَتْلُبِكُمْ﴾ فإنها بحسب الظاهر نعيد
بمثالة الباري للحوادث ، وهي مستحيلة عليه سبحانه وتعالى ، وهذه الآيات وما
ماثلها قد أجمع السلف والخلف على صرفها عن ظاهرها .

واعتلّفوا في تعيين المعنى المراد ، فاسلف فوسوا الأمر به لله تعالى ، والحنف
ترجح عدمه معنى بصح وصف الباري سبحانه وتعالى به ، فحكموا الحزم بأن
المعنى الظاهر مستحيل الإزادة ، وأما تعيين معنى المراد بعد ذلك فلا تسان في
حل من التفويض ، أو تعيين معنى خاص .

إذا علمت هذا فاعلم أنه يجب على المكلف الإيمان والتصديق بما دل عليه
الكلام نصا تفصيلا^(٢) كالصفات التي ذكرت مفصلة ، مثل القدرة والإرادة .
وعدد الرسل الذي جاء مفصلا في القرآن الكريم ، وإجمالا فيما ورد مجملا .
كثبوت الكمال المطلق لله سبحانه وتعالى ، وثبوت أن الله رسلا لم نقص عليها
توازيهم ، كما يجب الإيمان بأن المستفاد من آيات التشبيه بحسب الظاهر غير
مراد .

أما ما لم يكن نصا في معناه بل احتمل عدة معان ، أو لم يفهم له معنى ،

(١) سورة القيامة الآيات ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) هكذا في النسختين المطوعتين ويبدو أن في عبارة حقا مطبعا بالأدب أن يقال : بما
تفصيلا فيما ورد مفصلا كالصفات .. الخ بدليل المقالة في قوله بعد ذلك وإجمالا فيما
ورد مجملا .

فلا يجب علينا إزائه الجزم بأنه من الكلام المستعمل الدال على معنى ، وليس من الكلام للهمل ، ولا يجب علينا الجزم بمعنى من معانيه .

ميج القرآن الكريم فى الاستدلال

على إلهات الصانع والرد على الخصوم

اتفقت الكتب السماوية وجميع الأدهان من عهد أينا آدم عليه السلام إلى أن بحث سيدنا محمد ﷺ ، على مطالبة الأمم وتكليفها بتوحيد الخالق جل وعلا ، وانفراذه بالصرف المطلق ، وتنزعه عن كل نقص ، واتصافه بكل كمال ، غير أن ما عنا القرآن من الكتب السماوية سلك طريقا فى بيان ذلك المقصد الأسنى ، يتناسب مع استعداد أهل زمته الذى نزل فيه ، وهو ذكر العقائد مجردة من الدليل ، حيث إن أهل ذلك الزمن لم يكونوا قد استعدوا للنظر فى الآيات الكونية .

أما القرآن الكريم فقد نزل فى زمن كان الإنسان فيه قد بلغ رشده ، وأصبح أهلا للتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، مستعنا لفهم الأدلة وللوقوف على شوه من الحكيم ، والمصالح المقضية للتكليف .

ولذلك جاء هذا الكتاب الحكيم سالكا منجها ، خالف فيه سائر الكتب المقدسة ، فقد طالب المكلفين بالعقائد الدينية وهرهن على ذلك المدعى ، ورد على المخالفين وقد قولهم ، وأيده بالدليل ، وحث الإنسان على التفكر فى الكتابات ، ودم التقليد ، غير أنه لم يسلك طريقة علماء الكلام فى الاستدلال ، من التزام ذكر مقدمات على شكل فهارس ، مستوف لشروط لازمة لإنتاجه ، بل أورد الدليل على عادة العرب ، وهو أمر مشتمل على ما يثبت المدعى بمعنى أنه فو جهات كثيرة ، بعضها يدل بعضها لا يدل كالاستدلال بالعالم على وجود الله ، سبحانه وتعالى ، فإن العالم فو جهات وصفات كثيرة ، كطوله وكثافته ،

وسائطه وتركيبه، وبياضه وسواده، وحديثه، فإن هذه الجهات لا تصلح لها
 للدلالة على وجوده تعالى إلا جهة واحدة وهي الحديث، ولم يلتزم طريقة
 المتكلمين في الاستدلال القرآني لأن الرسول عرف، والقرآن نزل بلغة العرب،
 لأن طريقة المتكلمين فيها خفاء لا يتكشف إلا للخاصة، فلو جاء القرآن على
 هذه الطريقة لكانت فائدته قاصرة على الخاص، ولا تعدوا إلى عموم.

أما طريقة العرب في مخاطبتهم فينتفع بها العموم فيأخذون به بنفسهم
 ويتكلمون في الحجة، والخواص يأخذون ما ياسب استعدادهم ويؤمنونه
 القطع والحزم بالمطلوب.

ومع كونه جرى على عادة العرب في الاستدلال، وبخاصة أقوالهم المحصورة، فإنه
 لم يلتزم نوعاً خاصاً في الاستدلال، فثارة لا يذكر عدة أمور تشتمل على جهات
 كثيرة، وبعض هذه الجهات هو محط الاستدلال دون غيره، يأنر بالتمسك
 ونظر وإعمال العقل لمعرفة هذه الجهة الموصلة إلى الخطوب، مثل قوله تعالى في
 سورة الأعراف ﴿أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقوله في
 سورة يونس ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقوله في سورة ثور
 ﴿أَو لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية وقوله تعالى
 ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾
 فجميع هذه الآيات تشير إلى طلب التفكير في إنشاء السموات والأرض
 وإبداعهما، وفيما اشتملا عليه من عجائب المصنوعات، ودقائق الأسرار،
 ولطائف الحكم، وغير ذلك من الأحوال الدالة على وجود الصانع، ووحدته في
 ذاته وصفاته، وأفعاله.

وتارة يستدل بطريق القياس كاستدلاله على إلعاد الجسماني بقياسه على بد،
الخلق قل الله تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أو بقياس الأولوية كقوله تعالى ﴿وَإِذَا
لَيْسَ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ شَيْءٍ شَاكِرًا﴾ والآخر على أن يخلق مثلهم بل وهو
الخلق فعليه ﴿١١﴾.

كما أنه قد يستدل على إبطال قول الخصم بطريق السر والتقسيم مثل قوله
تعالى ﴿لَمَّا نَسُوا مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ومن المعز الثين قل آلذكورين حرم أم
الأنثيين لما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ليؤوي بعلم إن كنتم صادقين . ومن
الإبل الثين ومن البقر الثين قل آلذكورين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه
أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على
الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١٢﴾ سقت
هذه الآيات لتخطئة الكفار في تحريمهم ذكور الأنعام تارة وأنثائها تارة أخرى،
بطريق السر والتقسيم، وحاصل المعنى أن الله تعالى خلق من كل نوع من هذه
الأنواع ذكرا وأنثى، فتحريمكم الذكور تارة، والأنثى تارة أخرى، إما أن تكون
عنه الذكورة، وإما أن تكون الأنوثة، وإما أن تكون اشتغال الرحم عليهما، وإما
أن تكون عنه السماع من الله تعالى بدون واسطة، وإما أن تكون العلة الوحي
على لسان نبي مرسل، فإن كانت العلة هي الذكورة فاللزام تحريم جميع الذكور
في كل الأنوثة، وإن كانت العلة الأنوثة فاللزام تحريم الأنثى في جميع الأنوثة،
وإن كانت العلة اشتغال الرحم، فاللزام تحريم الصنفين معا، وإن كانت العلة
هي الأخذ عن الله تعالى مباشرة فهو باطل، لأن الأخذ عنه بهلا واسطة لا يتأتى،
وإن كانت العلة هي الوحي فباطل أيضا، لأنه لم يكن عند هؤلاء القوم رسول
قل محمد . وإذا بطلت كل هذه الأحوال بطل المدعى، وهو تحريم الذكور في
وقت وإلّا في وقت آخر، فيكون هذا القول افتراء منهم على الله وكذبا .

(١١) سورة هود الآية ٨١.

(١٢) سورة الأنعام الآية ١٤٣، ١٤٤.

وقد يستدل على إبطال قول الخصم بالقول بالموجب وهو أن نفع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فثبتنا لنفيه، كقوله تعالى ﴿يَقُولُونَ لِمَن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِمُخْرِجِهَا أَهْزَمَ مِنْهَا الْأَوَّلُ وَفِي الْعِزَّةِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

فالأعز صفة وقعت في كلام المنافقين كناية عن فرقههم، والأذل كناية عن فرقة المؤمنين، وقد أثبت المنافقون لفرقهم إخراج المؤمنين من المدينة فرد الله عليهم بقوله ﴿وَفِي الْعِزَّةِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فكانه يقول هم قولكم إن الأعز يخرج الأذل صحيح، لكن الأعز المخرج الله ورسوله والمؤمنون والأذل المخرج المنافقون.

ومن طرق إبطال قول الخصم التي وردت في الكتاب الكريم التسليم وهو أن يفرض المحال الذي يدعى الخصم إمكانه واقعاً، ويرتب على ذلك الوقوع المفروض محالاً، مثل قوله تعالى ﴿مَا تَخْلُدُ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لِلذَّهَبِ كُلِّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقُوا وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (٢) فإن المعنى أن الله منفرد بالتصرف والعبودية وليس له شريك، ولو سلمنا أن معه إلهاً لذهب كل واحد منهم بما خلقه، واستبد به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، ووقع بينهم التحارب وظهور التغالب، كما هو حال ملوك الدنيا، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفع حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض الإلهم محال، لما يلزم من المحال وهو الفساد.

ومن طرق إبطال قول الخصم الانتفال، وهو أن يتفل المستدل إلى استدلال غير الذي سلكه لإبطال قول خصمه، لكن الخصم لم يفهم وجه الدلالة في الأول، ومثاله ما جاء في مناظرة سيدنا إبراهيم عليه السلام للكوثي المسمى نمروث.

(١) سورة المنافقون الآية ٨.

(٢) سورة المؤمنين الآية ٩١.

قال له إبراهيم لما امتنع عن الإيمان بالله، وتمسك بالأصنام ﴿رفى الذى يحيى ويميت﴾ أى يخلق الحياة والموت فى الأجسام، فقال الخصم أنا أحىى بالعفر عن القتل، ولبت بالقتل، فلم الحليل عليه السلام من هذا الرد، أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة، أو أنه فهم وغالط، فانتقل سيدنا إبراهيم إلى استدلال آخر لا يمكن لخصمه أن يتخلص منه، ولا أن يغالط فيه، فقال إن الله بأق بالشر من المشرق فأت بها من المغرب فانتقطع الخصم وهذا قليل من كثير.

ومن تتبع التراكيب القرآنية، وتأمل فى طرق الاستدلال والرد على الخصم، يظهر له أن ذلك الكتاب المقدس ما ترك باباً من أبواب الاستدلال والرد على الخصم، وإبطال قومه بالطريقة المعتادة فى اللسان العربى، إلا طرفة، فهو الكتاب السلى الذى حاز نصب السبق فى ذلك الميدان.

علاقة القرآن بالعلوم على اختلاف أنواعها

جاء فى القرآن آيات كثيرة ترفع من شأن العلم، وترغب فى تحصيله، وتنمى على التقليد وتباعد الظن، من ذلك قوله تعالى ﴿قل هل يسعوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقوله تعالى ﴿لا يسعوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الخروء﴾ وقوله تعالى ﴿الفرق بكتاب من قبل هذا أو آثاره من علم إن كنتم صانقن﴾ وقوله تعالى ﴿قل هل عندكم من علم تخرجوه لنا﴾ وقوله تعالى ﴿لأولئك أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

وقوله تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا بآدابكم والذين أولوا العلم درجات﴾ وقوله تعالى ﴿إن يحسن إلا القرآن الذى يريى أنفسهم﴾ وقوله تعالى ﴿إن الظن لا يلقى من الحق شيئاً﴾.

هذه الآيات وما مثلهما تحث الإنسان على تحصيل العلوم وترفع من شأن العلم، الرافع للجدول، وتباعد الاعتقاد على الظن، ومن هذا يعلم أن القرآن الكريم يطلب من الإنسان التحلل بالعلم، لا فرق بين أن يكون ذلك العلم من العلوم

الشرعية، أو الرهاضية، أو غيرها، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَبْلِ﴾ الآية فإنها تأمرنا بأن نعد لأعداء الدين الآلات التي نستعمل بها على دفع هجمات العدو، وهذا يستدعي تعلم الصنعة التي توصلنا إلى صنع الآلات، بل يستدعي البحث وراء خواص الأجسام، حتى نعلم فائدتها ونفرتها فنستفيع بها.

وبهذا الاعتبار يقال إن القرآن يدعونا إلى تعلم العلوم التي توصلنا إلى مصالحنا وتحصيل ما نحتاج إليه.

ولما كان لبعض العلوم شأن كبير في ترقية النوع الإنساني، وعديته إلى تحصيل السعادة في الدارين، لم يكتف القرآن الكريم بالترغيب في تحصيلها على طريق الإجمال، بل اشتمل على آيات إذا نظر فيها المفكر استبط هذه العلوم منها وإليك البيان:

وردت آيات كثيرة في القرآن دللت على وحفانية الله تعالى ووجود قدرته وإرادته، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، ومخالفته للحوادث، وأن لله تعالى رسلاً من جنس البشر، عصىهم بفضله، فأرسلهم لحفاة الناس إلى الصراط المستقيم، وأقام الأدلة العقلية والكونية على ذلك، وأرشد الناس إلى التأمل فيها.

فاستبط علماء الكلام من هذه الآيات علم الإلهيات والنبويات، وحموه بعلم أصول الدين أو التوحيد أو الكلام.

ونظرت طائفة أخرى من العلماء في بعض الآيات ذرأ منها العلم بالخاص، والحكم، والظاهر، والنصر، والمنصر، والجمل، والانشاء، فاستبطوا منها علم سمو بأصول الفقه، وفكرت طائفة فبسا عره من الحلال والحرام رسائل الأئمة فاستبطوا من ذلك علم الفقه، ونظرت طائفة إلى ما تضمنه من أخبار الأمم السابقة مع أنبيائهم التي ذكرت للاعتاط بما حصل لهم، فاستبطوا علم التاريخ.

ونظر فريق آخر إلى ما فيه من المواثيق وبيان أنصباة الورثة فاستنبطوا منه علم الفرائض ، ونظرت طائفة إلى الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار ، والشمس والقمر ، ومنازله ، والنجوم ، فاستنبطوا من ذلك علم المواقيت .

وكذلك استنبطت طائفة من البراهين التي اشتمل عليها والمقدمات والقول بالموجب والمعارضة علم الجدل ، ومن ذلك مناظرة سيدنا لإبراهيم الخمرى ومحاكمة نومه .

كذلك نظر علماء الأخلاق إلى ما تضمنه الكتاب الكريم من الترغيب في التحلى بالأخلاق الفاضلة كالعدل والإحسان ، والصدق والوفاء بالوعد ، وأخذ العفو والخوف من الله وحده ، فاستنبطوا منه علم الأخلاق .

أما علم الطب فقد أشار القرآن إلى أصوله الثلاثة : وهي الحمية وحفظ الصحة واستطرار المواد المضرة في ثلاث آيات .

الأولى آية التيمم التي أفادت أنه يباح للمريض ترك استعمال الماء والاكتفاء بالتيمم حية له .

الثانية آية الصوم التي تضمنت إباحة الفطر للمريض والمسافر محافظة على صحته متى عاف الضرر .

الثالثة قوله تعالى ﴿لَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْهُ أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾ الآية فقد أباحت للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم أن يحلق . يستخرج من هذه الآيات الثلاثة : والأذى الرديئة التي تولد الميكروبات المضارة .

حذركم نظر فريق من العلماء إلى ما في القرآن من الوعد والوعيد ، والتحذير بالتيشم ، وذكر الموت والمعاد ، والنشر والحشر ، والحساب والعقاب ، واللجنة والنار فاستنبطوا فصولا من المواظ وأصولا من الزواجر .

أما تركه فقد نظر فريق من العلماء إلى المعرب والمبنى منها في الأسماء والأسماء ، والحروف العاملة وغيرها ، فاستنبطوا منه علم النحو ، ونظر فريق آخر

إلى ما في هذه التراكيب من جزالة اللفظ، ونبوغ النظم، وحسن السبك والإقناص والإيجاز، والخيال والكتابة والمحسنات البديعة فاستطاعوا من علم اللغات والبيان والبدیع .

ومن هذا يتبين أن القرآن الكريم هو الطريق الصحيح، والأصل الذي استبطلت منه هذه العلوم التي لا غنى للإنسان عنها في معاشه ومعاذه، أما التوسع إلى حد أن يقال إنه اشتمل على جميع العلوم حتى الرياضة مثل الحساب والمناسة والجبر فأعلن أن فضل القرآن لا يحتاج إلى مثل هذا التكليف فكفى فيه الترضيع في تحصيل العلم على طريق الإجمال .

الرد بموسع على ما وجهه إليه أعداؤه من المطاعن

جرت عادة الناس أنه إذا قام من بينهم مصلح يطالبهم بسلوك طرق مغايرة لما اعتادوه في شؤونهم الخاصة والعامة كان ذلك شاقا على نفوسهم، فتمترسه صعاب كثيرة في طريقه، ويوجد من يعارضه، ويقف في سبيل نشر دعوته، لأن تعهيل الناس عما ألفوه ليس بالأمر السهل، فإن الإلف من أقوى دواعي المحبة والتمسك بالاعتاد، فإذا دأب ذلك المصلح على مطالبة الناس باتباعه، وأخذ يبين لهم المنافع والمصالح المترتبة على الأخذ بقوله، والتحول عما ألفوه، ودلل تلك الصعاب التي وقفت في طريقه أثمرت دعوته، وأدت بالنتائج العائدة عليهم بالنفع، ولكن نيس هذا بالنسبة لجميع من طالبهم بتابعه، لاختلاف استعدادهم في التأثير وبعمده، والخضوع للحق في العناد . فمن الناس من ينسأ فيه ذلك الإرشاد فيخضع لما أراده ذلك المصلح، ومن الناس من يعاند بمحاربه البقاء على ما اعتاده، وإن كان مؤذيا إلى أضرره، ويقف الروابطة بين بني الإنسان، ومن الناس من يحقت التقييد بقانون، ولا يرضى لنفسه إلا أن يكون تحت تأثير الأهواء والشهوات .

هذا الفريق المعاند والفريق الخاضع لشهواته من مصلحت أن يرد مسئلة

الذى اختاره فيعلمس شيئا توصله إلى عدش قانون ذلك المصلح، ولا يقدح في
بما تسوله له نفسه .

هذه العادات كانت عند بعث النبي ﷺ فإنه لما رأى الناس مشركين وأهل
الكتاب ليسوا مؤمنين إيماننا صحيحا، واعتادوا أمورا لا يرضاها العقل السليم، ولا
الدين الصحيح، طالبهم بترك هذا المألوف لهم، وباحتناق دين الإسلام الكامل
بمصلحتهم، الخاصة والعامة، فمنهم من شرح الله صدره للإسلام فأمن وصلى
بما جاء به، ومنهم من تمسك بدينه الذى يدين به، وإن كان قد دخله التغير
والتبدل، مثل اليهود والنصارى، ومنهم من مقت جميع الأديان ولم يمرض لنفسه
بمسك دين وهم الملحون .

ولأجل أن يبرز كل من هذين الفريقين مسلكه الذى ارتضاه قام بالظن في
القرآن، وكونه وحيا من الله تعالى، ورفضهم من ذلك الوصول إلى نتيجة
تطلبها نفوسهم، وهى أن دين الإسلام ليس دينا سماويا صحيحا، فأوردوا شيئا
على القرآن الكريم ظنوا مؤيدة لعقيدتهم، وهى كسراب بقيمة يحسب الظن
ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، وسأذكر لك ما وقعت عليه من المطاعن التى
وجهها الملحون، والى وجهها النصارى. وأجيب عنها بما تطمئن إليه نفس
الناظر إن شاء الله تعالى .

المطاعن التى وجهها الملحون

(١) قد اختلف العلماء في حقيقة القرآن فقال فريق إنه منقول، قائم بذاته،
والكلمات التى شلوها دالة عليه، وقال فريق إنه الحروف التى تركبت منها
الكلمات التى شلوها وكل فريق يخطئه الآخر فيما ذهب إليه، وحيث حصل
الاختلاف في بيان حقيقته فلا يصح الحكم بإعجازه، وأنه حجة، لأن المختم
على الشئ فرع عن تصوره، ولم يحصل تصور القرآن يقينا مع ذلك الاختلاف،
وبجواب بأنه لا خلاف في أن القرآن يطلق بالمعنيين المذكورين، وأن الذى حكم

سبب لعنهم، وليس من المقبول أن يوحوا إليه بكلام يتقصد لعنهم .
ويحل محصور احتمال كونه من الملائكة أنه لو كان من كلامهم وليس
من عند الله لكانوا موافقين محمداً في تلجسه على الخلق والتضليل بهم وبذلك
تكون الملائكة قد عصت ربه، وهذا يخالف ما ثبت بالدليل من أنهم معصومون
عن العصية، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ولما احتال كونه من كلام محمد فهو بعد وباطل عقلاً، لأن الذي عرف في
معجزات الأنبياء أن المعجزة تكون من جنس ما برع فيه قوم ذلك النبي الذي
أرسل إليهم وانتازوا به، فإذا عجز قومه عن الإتيان بمثل ما أتى به مع أنه من
جنس ما انتازوا به، ثبت أنه من عند الله، لذلك كانت معجزة موسى قلب
العصا حية لأن قومه اشتهروا بالسحر فلما رأوا أن ما أتى به لا يمكنهم الإتيان
بمثله قالوا (آمنّا بالله رب العالمين) وكانت معجزة عيسى إبراء الأكمه والأبرص،
وإحياء الموتى، لأن قومه اشتهروا بصناعة الطب، ولما رأوا أن ما أتى به عجز
عن طاعتهم صدقوه، كذلك لما أرسل النبي ﷺ وكانت معجزته القرآن ومد
من جنس كلام العرب من حيث اشتغاله على الفصاحة والبلاغة، وجودة النظم،
ومحسن التأليف، ومعجز العرب عن الإتيان بكلام يماثله وجب الحكم بأنه من
عند الله ويحل احتمال كونه من عند محمد .

(٤) جاء في القرآن ﴿ولو كان من عند غير الله لوجعلوا فيه اختلافاً
كثيراً﴾ وهذه الآية صريحة في أن الاختلاف في القرآن دليل على أنه ليس من
عند الله وقد وجد الاختلاف فيه، فيحل قولكم إنه من عند الله .

بيان ذلك أنه قد حصل اختلاف في ألفاظه وترتيبه ونهاده بعض الكلمات
واختلاف حركته، أما الاختلاف في ألفاظه فقد قرأ بعض القراء (كالصوف) بدل
(الهمون) وقرأ بعضهم (فكانت كالحجارة) بدل (فهى كالحجارة) وقرأ بعضهم

(فاقطعوا أيمانها) بدل أيمانها، ومن هذا القيل كثير، وأما الاختلاف في ترتيبه فمئة قراءة (ضربت عليهم المسكنة والذلة) بتقديم المسكنة. أو بقرينة الأخرى تقديم الذلة على المسكنة، وقرأ بعضهم (وجاءت سكرة الموت) والمضطر الآخر قرأ (وجاءت سكرة الموت بالحق) وقرأ بعضهم (حقن آدم من به كلمات) بنصب آدم ورفع كلمات، فتكون كلمات مقدمة في مرتبة، وفي قراءة أخرى برفع آدم ونصب كلمات، فتكون (كلمات) وقعت في موضعها، وأما الاختلاف بالزيادة فقد جاء في عدة آيات.

منها قوله تعالى ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾^(١) فقد زاد بعض القراء بعد قوله (أمهاتهم) (ومو أب سر..)

ومنها قوله تعالى ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾^(٢) فقد زاد بعض القراء بعد قوله (الحجرات) (بئر تميم)..

وأما الاختلاف في حركاته فهو كثير منه قوله تعالى ﴿ربنا يا عيسى﴾ بصيغة المجرى، وقرأوا بعضهم بصيغة الماضى منه قوله تعالى ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ بنصب الغاء وقرأ بعضهم بفتح الغاء.

ومما يوجب عن ذلك بأن قوله تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجاهة فيه اختلاف كثير﴾ دل على أن أصول الاختلاف فيه يدل على أنه ليس من عند الله، وأنواع الاختلاف كثيرة، وليس في الآية ما يوجب الاختلاف فقدموا على الاختلاف في الألفاظ، وما ذكر لم يفسد عليه دليل، وفي نسخة أخرى: ﴿ولا يلقى أن يصرف إلى ما به التحدى لأنه هو الذي يفهمه سواء أذكاهم أو يسهلهم﴾ يكون معنى الآية، ﴿ولو كان القرآن من عند غير الله لجد ذلك القرآن ففسده من الله﴾ فمما اتصل به لما كان في الفصاحة والبلادة عن غصه به، فإذ الترويض في من أنشأ

مصدده أو صاغ خطية، أو رسالة، وكانت طويلة يكون كلامه في بعض المواضع أبلغ من البعض الآخر، بخلاف القرآن فإنه مع طوله على طريقة واحدة في التقصاض والبلاغة وحسن الانتظام .

ويجب أيضا بأن القراءات المصحفة الواردة ليست بدرجة واحدة في الثبوت بل منها ما ثبت بالتواتر، ومنها ما ثبت بالشهرة، ومنها ما ثبت بالآحاد، والمعروف أن الذي يحكم بقرآنيته أصلا هو ما ثبت بالتواتر لا غير، بخلاف الثابت بالشهرة، أو الآحاد، فلا يحكم بقرآنيته أصلا في القراءات، فلو نقل اختلاف في القراءات وكان متواترا لا يضر في القرآنية لأن الاختلاف الذي يخرج عن القرآنية هو المؤدى إلى التضارب والتناقض، والاختلاف في القراءات لا يؤدي إلى ذلك .

(٥) جعل تناقض في القرآن من جهة المعنى والوصف وهذا يدل على أنه ليس من عند الله وأنه لا يضح الاحتجاج به .

أما التناقض في المعنى فقد وردت في القرآن آيات تدل على مخالفة الباري للحوادث مثل قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ووردت آيات أخرى تفيد بحسب المتبادر منها مماثلته للحوادث مثل ﴿وهي وجهك﴾ وقوله ﴿هل يده مسوطتان﴾ وقوله ﴿وجاء ربك﴾ وقوله ﴿الرحمن على العرش اسعوى﴾ فإن كلا من الآية الأولى والثانية تفيد مماثلة الباري للحوادث في أن له أعضاء محسوسة والآية الثالثة تفيد أن الله ينتقل كانتقال الأجسام والآية الرابعة تفيد أنه جلس على العرش وأخذ قدرا من الفراغ .

وأما التناقض في الوصف فقد ورد فيه ما يدل على أنه لا ليس فيه ولا إلهام وأنه يصل إلى معناه كل ناظر فيه متى كان من أهل النظر مثل قوله ﴿ولفصلناه فصيلا﴾ وقوله ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ وقوله ﴿ولكن جفتناه لولا﴾ ورد فيه مع هذا لآيات السور التي لم يعلم المراد منها مثل (طس والهم)

وآيات اضطرب المفسرون في بيان معناها اضطرابا من شأنه أنه يدل على أن
المعنى المطلوب لهذه الآيات خفى لم يجد إليه الساطرون، ولا شك أن اشتغاله على
هذا النوع يناقض وصفه بأنه مفصل لا إجمال فيه إلا ليس، وبحجاب عن
التناقض في المعنى بأن الأدلة التي يستند إليها في إثبات المدعى إما عقائدية وإما
نقلية، والعقلية لا تحمل خلافا مدلولها ومعى قطعية .

لا مجال للشك فيها، وأما الأدلة النقلية فهي كما تحمل المراد تحمل غيو كما
هو شأن الألفاظ فليست نصا في مدلولها قطعا، فإذا كان عندنا دليلان أحدهما
عقلى والآخر نقل وتوافقا فالأمر ظاهر .

وإذا تعارضا يؤول النقلى بما يجعله موافقا لما قضى به العقل، كذلك الأدلة
النقلية منها ما هو نص في معناه، ومنها ما هو محتمل، والتبع في ذلك أن يرد
المحمل إلى ما هو نص .

إذا علمنا ذلك نقول إن آيات التنزيه موافقة لما قضى به العقل، وهي نص
في مدلولها، وآيات التشبيه بحسب ظاهرها تخالف ما قضى به العقل، وتحتمل
معنى آخر لا يتفق مع ما قضى به العقل، ومع ما استفيد من آيات التنزيه،
لما حمل علماء الكلام الآيات المفيضة للتشبيه بحسب ظاهرها على معان تناسب
كل آية، وبذلك المحمل والتأويل لا تخالف ما قضى به العقل، ولا ما استفيد من
آيات التنزيه، التي هي نص في إفادته إذ لا تناقض في معناه .

والجواب عن التناقض في التوفيق بالمنع، فالقائلون كما وصفه الله تعالى في
غاية البيان لا ليس فيه، ولا إيهام، حتى في أوائل تدرج، فقد ورد في بيان
معناها وجوه كثيرة وهذا يدل على عدم اللبس .

وأما الآيات التي اضطرب فيها المفسرون فغاية ما فيها أنها محتملة لمعان كثيرة،
وهذا لا يقتضى اللبس، فإن الشأن في مثل تلك التراكمات طلب المرجع لبعض
المعال المحتملة على البعض الآخر، فإن وصلنا إليه فقد تبين المعنى المراد من

الآية، وإن لم نصل إليه توفيقاً عن التصحيح، مع كوننا فهمنا المعاني التي تحملها الآية، ويمكن أن يجاب بتسليم أن في القرآن ما لم نصل إلى معناه، ولكنه قليل، يمكن وجود وصف الحيان في أكثر الآيات، فإن المعروف أن الوصف بالمسح أو التمسح، أو الانتحسان، أو الحيان، أو التفصيل، يدور مع الأكثر رجوعاً وعلماً.

(٦) ورد في القرآن ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ وقوم النبي هم قريش فهذه الآية تقتضي أن يكون القرآن نزل بلغة قريش، مع أنه اشتمل على ما لا يوافق لغتهم، فقد ورد فيه ﴿إن هذان لساحران﴾^(١) وقياس لغة قريش (إن هذين لساحران)، وورد فيه ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾^(٢) والمفهوم في لغة قريش (كباراً) لا كباراً.

ويجيب عن ذلك بأن قوم النبي هم العرب لا خصوص قريش فمضى كانت الآية موافقة لأي لغة من لغات العرب كانت فصيحة، وما ذكر من الآيتين موافق للغة العرب قطعاً، لأنه لو كان مخالفاً للغتهم، والمشركون من العرب أشد الناس عناداً للنبي ومن معه لعابوه بذلك، لكنه لم ينقل أنهم عابوه بأشتاله على هاتين الآيتين، فدل هذا على أنه موافق لغتهم. وأيضاً فلفظ «كباراً» نطق به العرب الفصحى أمام النبي وأصحابه، وأما «إن هذان لساحران» فيصح أن يجرى مجازاً على لغة من ينزه الله عن الأفعال الثلاثة، وعلى لغة عربية ومصحح أن يكون الكلام على حذف ضمير الشأن المقصود إسناداً لأن، بلغة من «هذان لساحران» مثلاً يجرى.

١٠ : دعيم أن القرآن بلغ في الفصاحة والبلاغة حداً عجزت العرب عن معجزته، وإثباته بطله، وسليم أن الكلام الذي يكون بهذا الوصف يجب أن يتولد عقاباً من العرب، التي تنال الفصاحة والبلاغة، لكن القرآن قد اشتمل

(١) سورة طه الآية ٦٢.

(٢) سورة نوح الآية ٢٢.

على ما جئنا الفصاحة والبلاغة، فقد اشتمل على التكرار من جهة اللفظ والمعنى، فلا يكون فصيحاً بليغاً، أما التكرار اللفظي فمثل قوله تعالى ﴿هَلْ يُهَى آيَاهُ تَكْلِمًا تَكْلِمًا﴾ في سورة الرحمن ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ في سورة المراتل و ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ في سورة القمر .

وأما التكرار من جهة المعنى فكما في قصة موسى وفرعون فإنها ذكرت في عدة سور من القرآن .

ويجاء به ذلك بأن التكرار إما يكون ممياً وخلا بالفصاحة إذا علا عن الفائدة، أما إذا كان لفائدة فهو من مقاصد البلاء، وهذه الكلام حسناً، وكل من التكرار المعنوي واللفظي الواقع في القرآن من هنا القليل .

أما التكرار من جهة المعنى فإن من فوائده إظهار القدرة على إيراد المعنى الواحد وإبرازه في عدة صور، مختلفة في الإيجاز، والإطناب، والمساواة، وهذا من طرق البلاغة، ومن فوائده إرشاد العرب إلى طرق المعارضة، وتسجيل العجز عليهم فكأنه يقول للمعارضين هذا المعنى الواحد قد أمكن أن يؤتى على أوجه مختلفة متعادة في كلامكم، فإن كان عندكم قدرة على المعارضة فاسلكوا طريقاً من هذه الطرق، التي ظهر فيها هذا المعنى .

ومن فوائده تسلية الرسول ﷺ وتذكيره بما حصل لإخوانه الأنبياء من أذىهم، عند تأله من عباد قومه، ووقوفهم في سبيل نشر دينه، الذي جاء به .

وأيضاً للتذكير اللفظي على ما جاء في سورة الرحمن من قوله ﴿هَلْ يُهَى آيَاهُ تَكْلِمًا تَكْلِمًا﴾ في سورة الرحمن ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ في سورة المراتل و ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ في سورة القمر . وهذا التكرار اللفظي من جهة اللفظ، وهو من مقاصد البلاغة، ويظهر من فوائده إظهار القدرة على إيراد المعنى الواحد وإبرازه في عدة صور، مختلفة في الإيجاز، والإطناب، والمساواة، وهذا من طرق البلاغة، ومن فوائده إرشاد العرب إلى طرق المعارضة، وتسجيل العجز عليهم فكأنه يقول للمعارضين هذا المعنى الواحد قد أمكن أن يؤتى على أوجه مختلفة متعادة في كلامكم، فإن كان عندكم قدرة على المعارضة فاسلكوا طريقاً من هذه الطرق، التي ظهر فيها هذا المعنى .

وقد وقع هذا في كلام العرب وأشعارهم كثيرا، ومن ذلك قصيدة المهمل المسمى
أنشأها في وفاة كليب بنى منها:

على أن ليس هذا من كليب إذا ما ضيع جيران الجير

فإن الشطر الأول قد تكرر في كثير من أبيات القصيدة، وحسن اختصار ما
تعلق به، بحيث كان للكرر ثانيا متعلقا بنحو ما تعلق به الأول، فلا حجب فيه.
(٨) فإلا إن القرآن أعبر بشيء لم يقع وما كان هذا حاله لا يصح أن يكون
دليلا على صدق النسي.

بيان ذلك إن من ضمن آياته ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعا
وكرها﴾ وهذه الآية تنيد أن كل من في السموات والأرض أسلم، وانتقاد لما طلب
منه فعله، أو تركه، والواقع يرد ذلك لأن جميع الناس لم يتقادوا بل أكثرهم عاصر
لأخبره تعالى.

وبجانب بأن الإسلام في الآية معناه الانقياد لأمر الله التكويني، وهذا حاصل
لكل مخلوق، فإن فعله الله تعالى لما تعلقت بإيجاد الممكنات في أولها من أي
نوع كانت وجدت الكائنات ولم يتعاص شيء منها أبدا.

(٩) قد ادعهم أن القرآن معجز، ومن شأن المعجز أن يكون ترتيب كلماته
وحمله موافقا للأنوار من تقديم الوسيلة على المقصود، والسبب على السبب،
وبكنا، ولكن القرآن اشتمل على آيات فيها تقديم المقصود على الوسيلة مثل قوله
﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فقدمت العبادة على الاستعانة، مع أن الظاهر أن
الاستعانة من الدوامي والمستعمل، وشأن الدوامي والوسيلة أن يقدم على المقصود
نكان الظاهر أن يقال (إياك نستعين وإياك نعبد).

كما اشتمل على آيات فيها تقديم السبب على السبب مثل قوله ﴿وكم من قرية
أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ فقد ذكر الإهلاك مقدما على مجيء البأس والفتاب،
مع أن الظاهر أن البأس مجيء أولا لم يحصل الإهلاك ثانيا.

ويجاب عن ذلك بالآتي أما تقديم العبادة على الاستعانة في الآية الأولى فالذى دعا إليه هو الاهتمام بالمقصود، والاهتمام من النكات التى تقتضى التقديم، وأما الآية الثانية فليس فيها تقديم السبب على السبب لأن معناها وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا أو أهلكتاها فظهر للناس مجيء البأس والعذاب .

وعلى هذا البيان فالترتيب الذى دلت عليه الآية موافق للترتيب الوجودى .

(١٠) قلم إن القرآن تؤخذ منه الأسرار الدقيقة وتستبيط منه المعانى العرية ويرد هذا أن من آياته ما هو موضح للأمور الواضحة، ومعلوم أن توضيح الواضح معيب، مثال ذلك قوله ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ﴾ تلك عشرة كاملة ﴿ ويجاب عن ذلك بأن توضيح الواضح قد يكون من مقاصد البلاغاء فيزيد الكلام حسنا، والاعتراض به جهل بمواقع البلاغة، وأما من خصوص الآية المذكورة فنقول للطاعن هل اعتراضك عليها بسبب ذكر قوله ﴿ تلك عشرة ﴾ بعد قوله ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ﴾ أو بسبب ذكر قوله ﴿ كاملة ﴾ بعد قوله ﴿ عشرة ﴾ ؟ فإن أردت الأولى فجوابه أن العادة جرت عند ذكر جملة أعداد متفرقة يراد ضمها إلى بعضها أن تذكر جملة بعد ذلك مرة واحدة، ويسمى هذا فذلكه، وهو مملوح عند البلاغاء، وإن أردت الثانى فلا وجه للاعتراض، لأن ذكر كاملة بعد قوله (عشرة) كذكر (واحدة) في قوله ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾ وقوله تعالى ﴿ فذلكا ذكة واحدة ﴾ في أنها من قبيل التأكيد المعنوى، فجاء بها لرفع توهم احتمال التجوز في لفظ عشرة .

(١١) قد قرئتم فيما ينكم أن القرآن دل على نية محمد، وصدقه في دعواه من جهة كونه خارقا للعادة، وهذا باطل لأنه لو كان مجرد كونه خارقا للعادة بدل على نبوته لكان كل خارق للعادة حالا على نية من حصل ذلك الخارق على يده، وليس كذلك فقد نقل بعض الكتاتين أن رجلا كان يتكلم من أبطله بكلام معتاد، ويمكنه أن يماثل به صوت المتكلم بلسانه، ونقل أن رجلا مكث سبعة وعشرين يوما لا يأكل الطعام وهذا خارق للعادة، ومع ذلك لا يصلح دليلا على

النسبة إذا ادعاهما من حصل منه واحد من هذين الأمرين ، فدل ذلك على أن الأمر
الحارق للعادة لا يصلح دليلاً على النبوة ، فالقرآن لا يصلح دليلاً على نبوة محمد .

ويجاب عن ذلك بأن منشأ هذه الشبهة هو التباس المعجزة بالأمر الغريب في
الطبيعة ، ولو أدرك المتعرض الفرق بينهما ما أورد هذه الشبهة ، فإن المعجزة أمر
عقل للعادة الله سبحانه وتعالى في إيجاد الكائنات ، وليس مرتبطاً باستعمال حيلة
ولا آلة ، بخلاف الغريب في العادة فإنه مقصور للبشر ، ومرتبطة بأسباب تدخل
تحت قدرة البشر ، وما لو رده المتعرض من هذا القبيل ، وليس من قبيل الحارق
للعادة ، فإنه لا مانع من أن يضبط الإنسان على بعض أصابه بكيفية مخصوصة
فيتراد الصوت عن هذا الضغط ، ألا ترى الآلة التي تسمى بالحاكي
«التنوغراف» فإنك إذا نظرت إليها سطحها تظن أنها من قبيل الحارق للعادة ،
ولو أمنت النظر وعلمت السبب لأدركت أن هذا مما يدخل تحت قدرة البشر ،
وليس عارفاً للعادة ، وأما ترك الأكل هذه المدة فسيب الرضاة التي يعتادها بعض
الناس حتى يكفى بالماء في آخر الأمر ، وغرائب فقراء الهند في هذا الباب لا
تحمى ، فكاد العقل لا يسلم بها وإن كانت ثابتة ثبوتاً كافياً .

(١٢) قد ادعهم أن القرآن نقل إلينا بطريق التواتر مع أنه وقع الاختلاف فيه
ومع وقوع الاختلاف لا يمكن الجزم به ، فقد نقل أنه وقع اختلاف بين الصحابة
في كتابة القرآن في المصحف ، فكتبه عبدالله بن مسعود على وجه يخالف ما كتبه
عليه زيد بن ثابت ، ويخالف ما كتبه عليه أبي بن كعب ، وعند ذلك أمر سيدنا
عبدان بإحراق مصحف عبدالله بن مسعود ، وأمر مروان وإلى المدينة عبدالله بن
عمر بإحراق المصحف الذي كان عند حفصة يومئذ ، مخافة الاختلاف ، ولا
شك أن هذا مما يجل على تفرق الصحابة واختلافهم في القرآن ، وأنه غير متواتر إلينا .
وغير مضموع بأصله .

ويجاب عن ذلك بأن المصاحف المشهورة ثلاثة مصحف ابن مسعود
ومصحف أبي بن كعب ، ومصحف زيد بن ثابت ، فأما مصحف ابن مسعود

فهو أول ما قرئ على النبي ﷺ، وأما مصحف أبي بن كعب فقد قرئ على النبي ﷺ بعد مصحف ابن مسعود، وأما مصحف زيد بن ثابت فهو آخر ما قرئ على النبي ﷺ، وكان يقرأ النبي القرآن في الصلاة وخارجها إلى أن مات كما هو مكتوب في مصحف زيد بن ثابت، ولما كان مصحف زيد بن ثابت هو الذي استقر عليه الأمر، ونقل إلينا تواترا اختاره المسلمون، وعدلوا عن غيره من المصاحف، لأنها لم تنقل بطريق التواتر، بل ثبتت بالشهرة أو بطريق الآحاد. وهذا لا يقدح في الجزم بالقرآن لأن الذي جزمنا بقرآنيه هو ما ثبت بالتواتر، وهو ما في مصحف زيد بن ثابت، والمخالف من الصحابة كان يرى أنه كما يقرأ على الوجه الذي في مصحف زيد بن ثابت يقرأ كما في المصاحف الأخرى.

(١٣) ورد في القرآن آيات تدل على أنه اشتمل على جميع العلوم وجميع المبادئ مثل قوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾^(١) وقوله ﴿ولا يذهب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾^(٢) ومع ذلك إذا تبينا آيات القرآن وتأملنا ما أغاده من المعاني وجدناه خاليا من أكثر المسائل الكلامية، مثل الجزم والخلاف، وحقيقة الحركة، والسكون، والزمان، والمكان، كذلك نجد خاليا من علوم الحساب والمهندسة والجبر، وكثير من المسائل الشرعية لم يوجد فيه، مثل مسائل المسافة والزراعة، والاستيلاء، ودقائق علم الفرائض والوصايا، ولا يخفى أن عدم اشتماله على هذه المذكورات وأمثالها يناقض وصفه بأنه مشتمل على كل الأمور.

وبما أن ذلك أولاً^(٣) من المراد من الكتاب في قوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ومن كتاب في قوله ﴿ولا يذهب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ، وحاشاك لا يتجه الاجتزاع على القرآن بالتناقض.

(١) سورة الأنعام جزء الآية ٢٨.

(٢) سورة الأنعام جزء الآية ٥٩.

(٣) معكنا الصلوة في المطبوعين (من المراد من الكتاب) وهو أن في الكلام خطأ مطبعيا
والمصحح أن تكتب كلمة (أن) بدلا من كلمة (من) الأول.

ولها لما سلم أن للزاد بالكتاب في الآيتين القرآن، ولكن ظاهر المصم
 ليس مراداً بل معنى قوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أن الكتاب شامل
 لما يحتاجه الإنسان في إصلاح دينه، وكذلك قوله ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في
 كتاب مبين﴾ معناه أن القرآن مشتمل على ما يحتاجه الإنسان في تحصيل
 سلوته، ولا شك أن القرآن قد تضمن ما يحتاج إليه الإنسان في دينه، إما
 بظاهره، وإما بباطنه، وإما من جهة القياس على ما ذكر فيه، ويترتب على هذا
 الجواب الخلل أن المصم ليس مراداً، وهذا لا مانع منه، فإن جميع ما ورد من
 السماوات والارض قد دخله التخصيص إلا عمومين: أحدهما قوله تعالى ﴿وما
 من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾^(١) وثانيهما قوله تعالى ﴿وهو بكل
 شيء عليم﴾ فإنيهما يلقان على عمومهما .

شبه النصارى

(١) جاء في القرآن ﴿قلوبوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم
 وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأنبياء﴾، وهذه الآية تفيد إنزال كتب إلى
 إبراهيم ومن ذكر معه، وهو مخالف للواقع، فلم ينزل على هؤلاء كتب أصلاً،
 ولو نزلت عليهم كتب لفيت كما بقيت التوراة والإنجيل، فعدم وجود كتب لهم
 بين أيدينا دليل على عدم إنزال كتب عليهم، وحيث يكون القرآن قد أخبر
 بخلاف الواقع وهذا يقدح في قرآنه وكونه كتاباً سماوياً .

والجواب عن ذلك أن إبراهيم نزلت عليه صحف كما قال تعالى ﴿إن هذا
 لفي الصحف الأولى﴾ صحف إبراهيم وموسى ، ولا كان إسماعيل وإسحاق

محبوب والأسباط متعددين بتفاصيلها، داخلين تحت أحكامها، مع نسبة نزولها إليهم، كما أن تعددنا بتفاصيل القرآن ودخولنا تحت أحكامه مع نسبة نزوله إلينا، وعدم بقاء صحف إبراهيم إلى اليوم لا يدل على عدم إزوال صحف عليه، ولا مانع من أن تكون أهدى اليهود قد امتدت إلى تلك الصحف فأهدتها .

فقد ذكر بعض علماء النصارى في تفسير إنجيل (متى) أن كثرا من كتب الأنبياء قد المحى لأن اليهود ضيعوا كتبها لأجل غفلتهم، أو عدم تدبرهم، وبرزوا بعضها وأحرقوا بعضها .

(٢) ورد في القرآن آيات متعددة تفيد أنه عرى، ومع ذلك فقد اشتمل على كثير من لغة العجم، مثل أباهق وأرائك، وإستيق، فوصفه بأنه عرى غير صحيح، وهذا يندح في قرآنيته، وكونه جاء من طريق الرومي السماوي .

وبجواب عن ذلك مجتمع اشتغاله على كلمات أعجمية، وما ذكر من الكلمات وما كان على شاكلتها مما توافقت فيه اللغات، فكانت العرب تتكلم به كما يتكلم به غيرهم، ولو سلمنا أن هذه الكلمات ليست عربية فاشتغال القرآن عليها لا يخرج القرآن عن كونه عربيا، لأن العرب استعملتها في كلامها بعد أن صقلتها، وأجرت عليها قوانينها، فصار أسلوبها عربيا، فقد جاء فيها المحار والكناية، والحقيقة على نمط اللغة العربية .

(٣) إن معظم ما في القرآن مأخوذ من الكتب المقدسة السليقة عليه، صاغه محمد ﷺ في ألفاظ عربية مزخرفة، واستدلوا على دعواهم بأن ما فيه من العقائد، والقصص، أو العبادات أو الأخلاق، إما أن يكون مماثلا لما في تلك الكتب أو مشابها لها .

وبجواب عن ذلك أولا بأن القرآن إنما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ليصلح ما كان فاسدا عند الأمم لا ليزيل كل ما كان موجودا عندهم، فلا مانع من أن

يشتمل على ما اشتملت عليه كتبهم، بل هذا مما يدل على صدقه، وأنه ليس مخترعاً، خصوصاً وأن محصاً لم يكن لازماً، ولا كاتباً، بل كان أمياً .

ولما بأن القرآن اشتمل على ما لم يوجد في كتبهم، بل وعلى ما يخالف ما في كتبهم من الأحكام الفرعية، ومخالطة العقل بالتفكير، والنظر في الآيات الكونية، فلو كان مصدر القرآن هو تلك الكتب لاختصر على الموجود فيها، ولم يأت بشيء جديد، أو يخالف لما فيها، وليس الأمر كذلك، فليس ما عنيوا من كتبهم كما يزعمون .

(٤) جاء في القرآن أن التوراة ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين ءاتوا ﴾^(١)، وجاء فيه ما يفيد أن اليهود حرفوا التوراة فقال ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾^(٢) وهذا تناقض، لأن مقتضى حكم النبيين بها أنها خالية من التحريف والتغيير، ومقتضى الآية الأخرى أن فيها تحريفاً .

والجواب عن ذلك أن القوراة التي كان يحكم بها النبيون هي التي لم تحرف فهذا إخبار عن حالها قبل طرؤ التحريف عليها، ووصفها بأنها معرفة بعد حصول التحريف فيها بالنقل فلا تناقض .

(٥) جاء في القرآن أن طائفة من النصارى تقول بالتثليث فقد قال ﴿ قل لله كل الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾، وهذا يخالف للواقع فإن هذه الطائفة لم توجد بين طوائف النصارى، والجواب عن ذلك أنه وجد في تاريخ سعيد البطريق القسبي كان في آخر أمره بطريقاً على الإسكندرية أن فرقة من النصارى في الدنور المتقدمة كانت تحضد التثليث، فدعواهم عدم وجود هذه الطائفة بين طوائف النصارى يظهـل احراف هذا العالم النصارى .

(١) سورة النحل جـد الآية ٤٤ .

(٢) سورة النحل جـد الآية ١٣ .

(٦) جاء في القرآن القصاص، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ وجاء فيه العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ الآية، والعفو والقصاص متناقضان، فالقرآن مشتمل على أحكام يتناقض بعضها ببعض. والجواب عن ذلك أن التناقض إنما يكون إذا أمرنا بالقصاص والعفو على وجه الوجوب، وليس كذلك، بل الأمر جاء بكل منهما على وجه التخيير فلا تناقض.

(٧) ورد في القرآن حكاية عن قوم مريم في خطابهم لها ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ لَوْلَا أَمْرُ سُوَيْدٍ وَمَا كَانَتْ أَمْلُكَ بِهَا﴾ وهذه الآية تنص على أن مريم أخت لشخص يسمى هارون، ومعلوم أن هارون أخ لموسى عليهما السلام، فتكون مريم أختا لموسى، فيكون عيسى ابن أخت موسى، فيكونان معاصرين وهذا باطل. لأن عيسى جاء بعد موسى بزمان طويل قبل إنه ألف سنة فقد أخبر القرآن بخلاف الواقع وهذا يعطل كونه روحا سماويا.

والجواب عن ذلك أن القرآن لم ينص على أن هارون الذي كان أخا لمريم، هو أخو موسى عليه السلام، فلا مانع من أن يكون لها أخ يسمى هارون وهو غير أخي موسى.

ويحتمل أن يكون هارون المذكور في الآية هو أخو موسى والمراد بالأخوة المشابهة، والمعنى يامن كانت شبيهة في العبادة والتقوى، والعلم بأحكام الدين، بهارون، الذي كانت له هذه الأوصاف. ولو قرأ ذلك المعترض قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ما أورد تلك الشبهة، فإنها تنص على أن عيسى أتى بعد جميع أنبياء بني إسرائيل، وكيف يوردون هذه الشبهة وقد ثبت أنهم لا يعرفون اسم أبي مريم، بل اختلفت أئناجيلهم في نسب المسيح عليه السلام !!

(٨) وجاء في القرآن ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ سَبَقًا قَبْلُ سَمِيًّا﴾، وهذه الآية تدل على أنه لم يسم أحد من قبل يحيى باسمه، وهذا غير مسلم لأن يحيى تعرب (يوحانان) العبري ومعناه (الله حنون) وهذا

الاسم شهر بن العبد، سمى به كثيرون من قبل موسى، فأخبر القرآن بأنه لم يسم به أحد قبله غير مسلم.

ويجاب عن ذلك بأن المراد أنه لم يسم أحد بهذا الاسم قبله في أحد وصفه، كما جاء في آيات لوط، ويجاب أيضا بأن السجى يطلق بمراد من الظفر الذي يستحق مثل اسمه فيكون معنى الآية لم يحمل له من قبل نظير ل استحقاق هذا الاسم، لذلك في الرحمة والشفقة، والحنان، كما قال تعالى فيه ﴿وَحَمَلْنَا مِنْ لَدُنْهُ نَفْسًا وَرَأْسًا وَكَانَ ظُهُبًا﴾ وقد ورد في القرآن ﴿فَاصْبِرْ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي تظنوا يستحق اسم الإله.

(٩) ورد في القرآن ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ﴾ وهذا الذي تفهده هذه الآية لم يوجد صدم في الكتاب للقدس فلا قبل، والجواب عن ذلك أنه جاء في سفر العدد قوله (وكانت صحابة ثلثه عليهم نهارا في يوحنا من الخلة) تقول للحرس أنه لم يوجد في الكتاب للقدس غير صحيح.

(١٠) جاء في القرآن في صجل بني إسرائيل ﴿فَصَرَفَهُ ثُمَّ لَعَنَهُ فِي الْيَمِّ لَعْنًا﴾ وهذا غير صحيح لأن الصجل كان من ذهب، ولذهب لا يرق. والجواب عن ذلك أنه قد جاء في سفر التثنية (وأما أعطيتكم الصجل الذي صنعوه فلأعلمته وأصرفه بالنار ووضعت وطعته جهنم حتى ندم كالغبار طرحت فيه في النير للصخر من الجبل) فما هو جوابكم فهو جريئا، وأيضا فالمراد بالإسرائيل إلهه بالنار لإكتماب صوته.

(١١) ورد في القرآن في قصة ذي القرنين ﴿وَجَعَلْنَا قُرْبُوبًا فِي عَيْنِ حَقَّةٍ﴾ أي الشمس، وهذه الآية تدل على أن الشمس تقرب في نفس الأرض، وهذا غير صحيح، كما دل عليه العلم فإن الشمس لا تنيب في الأرض.

والجواب عن ذلك أن القرآن لم يكن يصدد بيان حقيقة غروب الشمس وشرطها ولكنه يجر صا لميله في القرنين يصوء، ولذلك قال ﴿وَجَعَلْنَا﴾

بإشارة إلى أن غروب الشمس في الأرض كان باعتبار ما يبدو لدى القرنين، كما يقول القائل: رأيت الشمس تغرب في البحر، وقد بين القرآن في آية أخرى أن الشمس تجري في فلكها إلى أن يحصل غروب العالم، فقال ﴿والشمس تجري لسحر لا﴾ أي في مستقر .

(١٢) جاء في القرآن في حكاية جعل بني إسرائيل ﴿وأهلهم السامري﴾ وهو صريح في أن السامري الذي صنع المجل كان موجوداً في زمن موسى عليه الصلاة والسلام، وهذا غير مسلم، لأن السامريين الذين يسكنون سامرة فلسطين لم يوجدوا إلا بعد موسى بعدة سنين، فكيف يتأق وجود واحد منهم في زمن موسى عليه الصلاة والسلام .

ويجيب عن ذلك بأن القرآن لم يصرح بأن السامري الذي صنع المجل وأصل القوم هو من السامريين المنسوين إلى سامرة فلسطين، كما أنه لم يقدم دليل على أنه لا توجد بلدة تسمى بهذا الاسم غير سامرة فلسطين، فلا مانع من أن يكون منسوباً إلى بلدة أخرى تسمى بهذا الاسم، ويجوز أن يكون السامري نسبة لبيت رجل يسمى (شامر) بالشين المعجمة، ولما نقل من العمية إلى العربية قبل سائر بالسين المهملة، فإن المعروف أن الألفاظ التي هي في العمية بالشين المعجمة إذا نقلت إلى العربية تذكر بالسين المهملة .

وبالمهمة فالقرآن لم يصرح بأن ذلك الرجل الذي أضل القوم بصنع المجل هو من (سامرة فلسطين) ويحتمل لا معنى لهذه الشبهة .

(١٣) جاء في القرآن في شأن سفينة نوح عليه السلام ﴿واسعوت على الجودي﴾ وهذا صريح في أن السفينة استوت على الجبل المسمى بالجودي، ويحل هذا ما ورد في التوراة من أنها استوت على جبل اسمه (أرارات) .

والجواب عن ذلك أن مخالفة القرآن للتوراة لا يقتضي غلطه، بعد أن علمنا أن التوراة طرأ عليها التغيير والتبديل، وبخلاف ذلك فسبح التوراة ليست

مضفة في أن السهبة استوت على أزاراط، فقد جاء في النسخة السريانية أنها استغرت على جبل الأكراد الذي هو الجودي، بل نقل بعض الكتّاب أن آثار تلك وجدت على قمة الجودي، فما ورد في القرآن هو الأصح .

(١٤) جاء في القرآن حكاية عن فرعون ﴿فَأَوْقَدْ لِي مِصْرًا﴾ وقال المسلمون إن هامان كان وزيراً لفرعون، وهذا يخالف ما ورد من أن هامان كان وزيراً لاحتشو مروض ملك فارس، وهو متأخر عن فرعون بسنين، فقولكم إنه كان وزيراً لفرعون غير صحيح .

والجواب عن هذه التهمة أن القرآن لم يصرح بأن هامان كان وزيراً لفرعون، والذي يظهر من سياق الآية أنه كان من الرؤساء الذين يستغرون الشعب في المصالح، ولو قلنا إنه كان وزيراً لفرعون فلا مانع من أن يكون وزير فرعون مسمى بهذا الاسم، ووزير ملك فارس أيضاً مسمى بهذا الاسم .

هذه هي التهمة التي وقفت عليها للنصارى والملاحدين، وقد علمت أنها ليست مستندا صحيحاً يمكن اعتياده، فلا عيب بها ولا تقدر في القرآنية .

حقيقة الإيمان

حقيقة الإيمان لغة هي الأمن من التكذيب والخالفة، ثم نقل لغة إلى التصديق بأي أمر حقا كان أو باطلا، فاستعمله في التصديق مجاز لنفي، من استعمال المألوف وهو الأمن من التكذيب والخالفة، في لازمه وهو التصديق، لأنك إذا صيرت النمر في أمن من أن تكذبه وتخالفه لزم من ذلك أن تصدقه.

أما في عرف الشرع فاختلف أهل الفقه في معناه هل هو فعل القلب فقط الذي هو التصديق الحقي، أو فعل اللسان الذي هو الإقرار وتطقن بالشهادتين، أو فعلهما معا، أو فعلهما ومعمل الجوارح من صلاة وغزوة من أعمال الدين المطلوبة مجزما.

ذهب إلى كل واحد من هذه الآراء فريق من العلماء:

فأما المطلقون والأصحى والقاضي عبد الجبار، وأبو إسحق الأفراسيبي، وجهم ابن صفوان في أصح الروايات عنه، وكثيرون غيره من أهل القلب فقط، وقرئوه بأنه تصديق الرسول ﷺ في كل ما جاء به مما علم بالضرورة، تصديقا جازما مطلقا، سواء كان لدليل أو لتقليد النمر، فيدخل إيمان القليل.

واعتزل ذلك فعل اللسان فقط الكرامة وخيلان بن مسلم الدمشقي، والفضل الرافعي، لكن الكرامة قالوا إنه مجرد الإقرار باللسان بغير قيد، ولا شرط، أما خيلان بن مسلم الدمشقي والفضل الرافعي فقالا إن فعل الدين بشرط أن يكون معه التصديق بالقلب، فإذا فقد ذلك الشرط لا يكون فعل الدين متعلقا للإيمان.

واعتراف كونه فعل القلب واللسان الأشاعرة والماتريدية^(١)، لكن الماتريدية ومحققوا الأشاعرة قالوا إن التصديق يحصل للنجاة من الخلود في النار، والإقرار شرط لإجراء الأحكام الدينية من التوارث، والتناكح، والصلاة عليه، وخلفه والدفن في مقابر المسلمين، لأن التصديق الباطني وإن كان محصلا للإيمان إلا أنه باطن خفي، فلا بد له من علامة ظاهرة تدل عليه، وهي الإقرار باللسان فمن صدق الرسول بقلبه في كل ما جاء به كان مؤمنا فيما بينه وبين الله تعالى، وأن لم يقر بلسانه، وقال غير المحققين من الأشاعرة أن الإقرار باللسان ركن لركن زائد، يسقط عند الضرورة، كما إذا كان المصدق أخرس، فإنه قد سقط عنه الإقرار أما التصديق فإنه ركن لا يحتمل السقوط.

واعتراف كون الإيمان فعل القلب واللسان وسائر الجوارح الممثلة والإمام مالك والشافعي وأحمد والمعتزلة والخوارج.

ويعد أن اتفق هذا الفريق على كون الإيمان مركبا من هذه الأجزاء الثلاثة اختلفوا في منزلة هذه الأجزاء. فقالت المعتزلة والخوارج لابد في تحقق الإيمان من هذه الأجزاء، فهي أجزاء أصلية لا تحل السقوط بحال، فإذا انعدم جزء منها انعدم الإيمان، سواء كان ذلك الجزء فعل القلب أو فعل اللسان أو عمل الجوارح، غير أن المعتزلة قالوا إذا انعدمت الأعمال خرج الشخص من الإيمان ولم يدخل في الكفر، فأثبتوا منزلة بين الإيمان والكفر، وصحوا صاحبها فاسقا. والخوارج قالوا إذا انعدمت الأعمال خرج الشخص من الإيمان ودخل في الكفر، كما الممثلةون والأئمة الثلاثة فقالوا إذا انعدم التصديق انعدم الإيمان المنجى من الخلود في النار، وإذا انعدم الإقرار انعدم الإيمان المستبح لإجراء الأحكام الدينية دون المنجى من الخلود في النار، وإذا انعدمت الأعمال انعدم كمال الإيمان، فالأعمال تنعدم جزء مكمل لا أصل، كالتدبير بالنسبة للجسم،

(١) راجع في موضوع الإيمان والإسلام شرح الميرزا محمد حسين خاينوري ج ٨ ص ٢٢٢ وما بعدها وشرح المقاصد ج ٢ ص ١٨١ وما بعدها. وشرح الفقهاء السنة للشيخ.

فإنها وإن كانت جزءاً منه لكنها إذا انصطت لا تعلم الجسم، وإن صار
بشمسها مشعها .

نظرة في الأقوال

إذا تأملت في هذه الأقوال المذكورة ترى من بينها قول الكرامية لأخطأ له من
النظر، فقد جاء في القرآن الكريم من الآيات ما يفيد أن القمر بلسانه ولم يصدق
بقلبه كافر، ويخجل في النار، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِصْحَابِهِمْ إِذَا طَرَفُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا فِي سَبِيلٍ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
مَا مَالُهُمْ وَمَا كَانُوا عَالِمِينَ﴾^(١) هذه الآية وردت في حق المنافقين حاكية ما وقع منهم
نفسى فيها المنافق ككفرا. قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ
النَّارِ﴾^(٢) الآية وهذه الآية سميت لبیان حال المنافق في الآخرة، وأنه من
المخلدين في النار، فإن المراد من الدرك الأسفل الطبقة السفلى في دار العذاب ولا
يدخلها إلا غير المؤمن .

وحيث كان قول الكرامية بهذه المنزلة فلا داعى لذكر أدلته، فإنها لو هي من
بيت المنكوت .

وأما المحزنة والحوارج فقد كان نظرهم في هذه المسألة قاصراً، حيث أخذوا
بظواهر بعض الآيات والأحاديث، وغفلوا عن الآيات المختصة للآيات التي
نفسوا بها ظاهرها، ومن الأحاديث المعارضة للأحاديث التي استشهدوا بها، فقد
نظروا إلى آيات الوحد وهموها على صميمها الظاهر، فسووا بين مصبة الشرك
وباق الكبار، مثل قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَصِرْ فِي سَبِيلٍ مَّا يَصِلُ
إِلَى جَنَّةٍ مَّا يَدْخُلُهَا فِيهَا يَجْزِي الْمُتَّقِينَ﴾^(٣)

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٦ .

(٢) سورة النساء الآية ١١٥ .

فلما عطفوا فيها ، ومثل قول النبي ﷺ « لا يزى الزانى حين يزى وهو مؤمن » الحديث وغفلوا عن الآيات الصريحة في أن العاصي بغير الشرك مؤمن مثل قول تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا ﴾ وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُّوا عَنكُمُ الْقَتْلَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَبَوَّءُوا لِلَّهِ تِهَةً لَّصُوحَا ﴾ فإن هذه الآيات اصبحت العاصي بغير الشرك مؤمناً ، وطالعت به التوبة ، كما غفلوا عن حديث أبي ذر رضى الله تعالى عنه ، رُضِه قال : أتت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم لم أتبه وقد استيقظ ، قال ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن سرق وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن سرق وإن سرق على رغم أنف أبي ذر . فإن هذا الحديث صريح في أن مرتكب الزنى مؤمن وأنه يدخل الجنة .

والمعروف أنه إذا وجد تعارض في الظاهر بين الآيات ، أو بين الأحاديث ، يجب الجمع بينها بحمل كل على معنى لا يتعارض مع المعنى الآخر ، لذلك نقول أن المعصية الدال عليها قوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية هي معصية الشرك ، ولما دلت عليها الآيات الأخرى بمعصية الكفار غير الشرك ، أما الحديث الذي تمسكت به المحرلة فالفرض منه التفتور من معصية الزنا وجعل المرتكب لها كأنه خرج من الإيمان ، ويحذف بتضى التعارض بينه وبين حديث أبي ذر ، وقد ورد في آخر حديث الشفاعة ما نصه :

(ولكن وعزى وجلال وكبرهائى وعظمى لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله) .

وحيث علمت منزلة هذه الأقوال الثلاثة ومصادمتها للآيات والأحاديث فطرح من بين الأقوال المذكورة .

وأما قول غير المحققين من الأشاعرة إن الإقرار ركن زائد فقد ضعفه العلماء للأدلة الدالة على أن الإيمان هو التصديق .

كذلك قول غيلان بن مسلم والفضل إن الإيمان هو الإقرار والتصديق شرط، يظهري أن النبي للإيمان عند سؤال جبريل بقوله (أن تؤمن) الحديث أما الأقوال التي لها حظ من النظر فهي قول المحققين ومن معهم إن الإيمان هو التصديق فقط، وقول الماتريدية ومحققي الأشاعرة إنه التصديق، والإقرار شرط لإجراء الأحكام الدينية، وقول المعتزليين والأئمة الثلاثة إنه التصديق والإقرار والمصل، على الوجه الذي سمعته في بيان مذهبهم .

وهذه الأقوال الثلاثة بحسب ظاهرها متطابقة فهل ذلك التقابل حقيقي، وكل قول يخالف الآخر، وله ثمرة خاصة ترتب عليه ١١١٩

قد علمت من بيان مذهب المعتزليين والأئمة الثلاثة أن الإقرار إنما اعتبر لإجراء الأحكام الدينية من التوارث والتناكح وغير ذلك .

وأن الأعمال ليست جزءاً أصيلاً من أجزاء الإيمان، ولكنها تهتد جمالاً ونكتاً في النفس، وعلمت من صريح مذهب الماتريدية ومحققي الأشاعرة أن الإقرار ليس جزءاً من الإيمان، وحيث يكون الإيمان المنجى من الخلود في النار عند هؤلاء هو التصديق فقط .

وهذا لا يخالف فيه المحققون، فإن المعروف في الشرع أن الأمور الباطنية التي تخفى لأبد لها من علامة ظاهرة تدل عليها لترتب آثارها، وقد اشترط المحققون في كون التصديق إيماناً عدم وجود ما ينافيه من الإباء عن النطق بالشهادتين والسجود للصنم، وإهانة المصحف، ومن هذا يعلم أن كلام المحققين في الإيمان المنجى من الخلود في النار، وكلام غيرهم في الإيمان المستع للأحكام الدينية، وحيث يكون الخلاف لفظياً فالكل يجمع على أن الإيمان المنجى من الخلود في النار هو التصديق والإقرار ليس جزءاً أصيلاً . وكذلك الأعمال .

والذى يدلنا على أن الإيمان هو التصديق وعلى أن انعدام الإقرار لا يوجب انعدام الإيمان، وعلى أن الأعمال ليست داخلة في مفهوم الإيمان هذه الأدلة قال تعالى ﴿أَوَلَمْ تَكُتْ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾ وقال تعالى ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وقال تعالى ﴿وَلَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقال تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال ﷺ (اللهم ثبت قلبي على دينك) وقال ﷺ لأسامة حين قتل من قال لا إله إلا الله (حلا شقت عن قلبي) فهذه الآيات والأحاديث دلت على أن محل الإيمان هو القلب والذي يقوم بالقلب هو التصديق. وأيضاً فقد خاطب القرآن الكريم الناس وطالبهم بالإيمان وقد نزل بلغة العرب، ولا تعرف العرب من لفظ الإيمان إلا التصديق، ولم يثبت أن الإيمان نقل من التصديق إلى معنى آخر، ولو ثبت لنقل تواتراً، واشتهر المعنى المنقول إليه، لتوفر الدواعي على نقله، لأنه من ألفاظ التي يكثر دورانها على الأئمة، فلما لم ينقل دل ذلك على أنه باق على معنى التصديق، وأيضاً فالكفر ضد الإيمان بدليل استعماله في مقابلته، قال تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ﴾ والكفر هو التكذيب والجحود، وهما يكونان بالقلب فكذلك ضدّهما وهو الإيمان، لأن التضاد لا بد فيه من اتحاد المحل .

أما ما يدل على أن الإقرار ليس داخلاً في مفهوم الإيمان فقوله تعالى ﴿إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فإنه يفيد أن انعدام الإقرار لا يوجب سلب الإيمان .

وأما ما يدل على أن الأعمال خارجة عن الإيمان فقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإن العمل عطف في الآية الأولى والثانية على الإيمان، والعطف يقتضي المعاصرة، والإيمان ذكر في الآية الثالثة على أنه شرط، والشرط خارج عن المشروط .

وأما فاقصم النبي ﷺ في بيان الإيمان عند سؤال جليل له عنه على التصديق دليل على أن العمل ليس داخلا في مفهومه، ولو كان العمل أو الإقرار داخلا في مفهوم الإيمان لكان النبي مقصرا في الجواب، وكان يجرى جليل للناس على أمر دينهم .

زيادة الإيمان ونقصه

قال الله تعالى ﴿ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وقال تعالى ﴿ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ وقال تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادهم إيمانا ﴾ وقال تعالى ﴿ فَأَنعَشُوهُمْ فزادهم إيمانا ﴾ هذه الآيات أفادت أن الإيمان يزيد، وبالضرورة كل ما كان قابلا للزيادة فهو قابل للنقصان، فالإيمان يزيد وينقص . هذا ما دلت عليه الآيات وقضت به الضرورة، والكلام بعد ذلك في أن القابل للزيادة والنقصان هو الإيمان بمعنى التصديق والإقرار والعمل، أو الإيمان بمعنى التصديق فقط، قال بعض العلماء إن القابل للزيادة والنقصان هو الإيمان بالمعنى الأول فهو ينمو ويزيد بزيادة الأعمال كما ينقص بنفسها، فإن أدبت جميع الأعمال من فرائض وغيرها ولم يتعد المكلف حدود الدين التي يسها الشرع كان إيمانه إيمانا كاملا، وكان مثله مثل البيت الذي استكمل جميع مرافقه الأساسية، والكمالية، وإن أدبت بعض الأعمال دون البعض اتصف الإيمان بالنقصان، وتتفاوت مراتب نقصه تبعاً للأعمال المتروكة، من حيث الفرضية والنفعلية، والقلة والكثرة، وصار مثله مثل البيت الذي هدمت مكملاته جميعها، أو بعضها، مع بقاء الأجزاء الأساسية .

أما الإيمان بمعنى التصديق فقط فلا يقبل الزيادة والنقصان لأن التصديق إذا نقص كان ظنا، والظن ليس إيمانا، وحديث يمكن أن يقال إن الخلاف الحاصل بين العلماء في أن الإيمان يزيد وينقص مفرع على الكلام في معنى الإيمان، فمن قال إنه مجموع التصديق والإقرار والعمل، قال إنه يقبل الزيادة والنقصان، ومن قال إنه التصديق فقط قال بعدم قبوله للزيادة والنقصان، فيكون الخلاف لفظيا

وقد صرح بعض الكتّاب بذلك ، وقال بعض العلماء إن الإيمان بهذه ينقص سواء كان هو مجموع الأمور الثلاثة ، أو التصديق فقط ، أما إذا كان المراد من مجموع الأمور الثلاثة فقد علمت أن زهادته بزيادة الأعمال ، ونقصه بنقصها ، ولما إذا كان بمعنى التصديق فقط فظروا الزهادة والنقص عليه من جهة الدليل الموصل إليه ومن جهة متعلقه ومن جهة ثمرته .

بيان الأول أن الأداة تتفاوت وضوحاً وخفاءً ، ويعدنا عن الشبهة فكلما كانت واضحة بعيدة عن الشبهة قريبة من البديهة ، كان الثابت بها أشد رسوخاً في النفس ، فلا تؤثر عليه الشبهات ، ولا تمحوه الطوارئ ، وكلما كانت على الضد من ذلك كان الثابت بها قابلاً للتأثر بالشبه ، عرضة للزوال ، وأيضاً فإننا نرى تفاوتاً بين ما تعددت أدلته وما لم تتعدد أدلته ، وبين ما ثبت بالمشاهدة وما ثبت بالعلم .

فالتصديق إذاً يتفاوت بهذا الاعتبار ، ومن ثم كان إيمان أئى بكر أرجح من إيمان أهل الأرض ، كما ثبت في الحديث الوارد في ذلك .

وأما تفاوته من جهة متعلقة ، وهى الأمور التى طلب منا الشارع التصديق بها ، فهناك أن التصديق بما جاء به النبى ﷺ قد يحصل على طريق الإجمال بمعنى أن المكلف إذا شاهد المعجزة الدالة على صدق الرسول في قوله أذعن بأن جميع ما جاء به النبى وما سيجىء به حق بدون وقوف على التفاصيل ، وحكم الشريعة ، وقد يحصل التصديق على طريق التفصيل بمعنى أنه يصدق بالعقائد الدينية ، وأنواع العبادة مع الوقوف على الحكم التى ظهرت له ، فى كل جزئية من جزئيات الدين ، وما لم تظهر له حكمته أو لم يفهم معناه ، كالمشاهة يؤمن بأن له حكمه ، وعدم إدراكه لها جاء من قصور فهمه .

لا شك أن التصديق على الإجمال وعلى التفصيل بالكيفية المتقدمة يتفاوت قوة وضعفاً ، فإن المصدق على الإجمال لا يجد أن يتخلخل اعتقاده ، أو يحصل

منه استكار قلبي، أو لسالي، عند عجزه عن فهم حكمة التشريع في بعض الأحكام أو اشتغال القرآن على المشابه، أو تكرار قصص الأنبياء، أما المصدق على التخصيل فهو في أمن من تخلخل اعتقاده، وطرده الشك له في عقيدته.

وأما تفاوت التصديق من جهة ثمرته وهي الأعمال فواضح، إذ من المسلم به أن أثر الشيء إذا ترتب عليه كان ذلك دليلا على حضوره وتكثفه، وبالعكس ذلك إذا لم يترتب الأثر، وبكفينا في بيان هذا ما ورد عن النبي ﷺ في شأن من ترك صلاة الجمعة مرة، وثلاث مرات، فقد جعل التارك لها ثلاث مرات منافقا، كما جاء في بعض الروايات، أما التارك لها مرة فقد شرع له كفارة وهي التصديق بدنهار، كما جاء في رواية عنه ﷺ.

مباحث الإسلام

الإسلام معناه لغة الاستسلام والانقياد سواء كان بالمباطن أو الظاهر، أما في عرف الشرع فهو ما بينه الرسول ﷺ بقوله: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة للفريضة، وتصوم رمضان^(١) فهو الانقياد الظاهري، وعلى هذا يكون الإسلام مغبرا للإيمان، لأن الإسلام هو الانقياد الظاهري، والإيمان هو الإدعان القلبي، ولا تلتزم بينهما، فقد يكون الشخص مؤمنا مسلما إذا أذعن بقلبه وصدق بالله، ولا تكفه وكفه ورسله، وانقاد لأوامر الله تعالى ونواهيه، وقد يكون مؤمنا غير مسلم إذا أذعن بقلبه، ولم يحصل منه الانقياد الظاهري، وقد يكون مسلما غير مؤمن إذا اتفاد ظاهرا ولم يصدق بقلبه، فتكبر نسبة بينهم أعموم والتخصيص الصحيح: يعلمان أن من أظهر

(١) وهو أن تكلم الناس ويصيح لل قولا، ولحق حيث كن اضطرت إليه سبيلا لأن ذلك لازم من حيث رسول الله ﷺ.

بقلبه وانقاد ظاهرا، ونفرد الإيمان فيمن صدق بقلبه ولم يحصل منه انقياد في الظاهر، ونفرد الإسلام فيمن اتقاد ظاهرا وحصد باطنا .

هنا ما يتعلق بالإيمان والإسلام من حيث بيان معناهما في اللفظة^(١)، ولعرف الشرع .

أما في لغة القرآن فاستعمال كل منهما قد يكون في المعنى الظهري، وقد يكون في المعنى الشرعي، وقد يتعلما إلى معنى ثالث، وهو مجموع التصديق الباطني والانقياد الظاهري، والذي يعين المعنى المراد من هذه المعاني هو القرينة الدالة على إرادته دون غيوه، وإليك بعض الآيات القرآنية الواردة في ذلك:

قال الله تعالى ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ وقال تعالى ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ فالإيمان في هاتين الآيتين مستعمل في التصديق الباطني بحق، والمعنى لهذا المعنى التعبير بالقلوب في الآية الأولى، تكتم الإيمان في الآية الثانية، وقال تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ وهذه الآية استعمل فيها الإسلام في الانقياد الظاهري لأمر الشارع، والإيمان في التصديق الباطني الحق، والقرينة على ذلك الجمع بين الإيمان والإسلام في آية واحدة، وترتب المغفرة والأجر العظيم على تحصيلهما، فالإيمان والإسلام في هذه الآيات استعملا في حقيقتيهما الشرعية .

وقد ورد كل منهما مستعملا في حقيقته اللغوية والمتبع للتراكيب القرآنية يبين له أن هذا الاستعمال خاص بما إذا ذكر مع كل منهما متعلق خاص، نعدى الإيمان إليه بالباء، والإسلام باللام، قال تعالى ﴿ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله﴾ وقال تعالى ﴿الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله﴾ وقال تعالى ﴿وكانوا يعبدون الجن وأكثرهم بهم مؤمنون﴾ فالإيمان في الآية الأولى التصديق

(١) راجع شرح المؤلف للسيد الشريف ج ٨ ص ٣٢٢ وما بعدها، وشرح للتاجيد للسيد ج ٢ ص ١٨١ وما بعدها.

الباطنى بحق، وفى الآيات التى بعدها التصديق بباطل وقال تعالى ﴿ قَالُوا لَنُحَدِّثْكَ الْكَلِمَ وَالْهَ أَبَاتَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنْهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(١) فالإسلام فى هذه الآية تعدى باللام، والجملة ثبت بمنطوقها الانقياد لله، وبمفهومها تنفى الإسلام لغير الله .

أما استعمال كل منهما فى مجموع التصديق الباطنى والانقياد الظاهرى فقد ورد فيه آيات كثيرة، بعضها فى الإيمان، وبعضها فى الإسلام، فما ورد فى الإيمان قوله تعالى ﴿ الْإِيمَانُ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾^(٢) وما ورد فى الإسلام قوله تعالى ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَبِيعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ فالإيمان والإسلام فى هذه الآيات أهد منه الدين بحملته، بواسطة القرائن المعينة لهذا المعنى كما هو واضح .

مؤاخاة الإسلام للطفل والعلم

الدين الإسلامى الذى أرسل الله نبيه محمدًا ﷺ لنشر مبادئه وتعاليمه يتكون فى مجموعته من أمرين: العقائد الدينية، والتكاليف الشرعية المطلوب فعلها من صلاة، وصوم وحج، وزكاة، وغير ذلك، أو تركها من سرقه وشرب خمر، وغير ذلك .

والعقائد الدينية تنظم أمرين: ما يتعلق بالبارى سبحانه وتعالى، وما يتعلق برسالة سيدنا محمد ﷺ .

(١) سورة الأنفال الآيات ٢، ٣ .

اشتملت على عدة من الآيات الكونية، وطلبت من العقل أن يعكر بها، وبما
 اشتملت عليه من النظام ومنافع العباد، ليصل بذلك إلى معرفة منبتها، ومرتبا
 على ذلك الوجه البديع، وانظر إلى قوله تعالى ﴿لو لم ير الذين كفروا أن
 السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا
 يؤمنون﴾^(١) وقراه قد نبه العقل إلى النظر في أصل الكون، وأن السموات
 والأرض كانتا ملتصحتين ففصلا عن بعضهما، وأن كل شيء حي خلق من
 الماء، لما اشتمل عليه من عناصر الحياة، ليصل بذلك النظر إلى أن هذا الكون
 البديع، موجودا واجب^(٢) الوجود، حيا قادرا، عليما حكيما، متصفا بصفات
 الكمال، وسيعتد تخضع النفوس لسلطان ذلك الإله وتدين لأحكامه وأوامره
 ونواميه .

وانظر إلى قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آفة إلا الله لفسدنا﴾ وقوله تعالى
 ﴿إنا لله رب العالمين﴾^(٣) فإنه بين ما يترتب على تعدد الآفة من الفساد، وعدم نظام
 الكون، الذي يراه بالحس والمشاهدة، فهو يأمر العقل بالنظر في ذلك حتى
 يصل إلى الجزم بوحدة الإله ونفى الشريك .

على أن الدين لم يقف بالعقول عند أمرها بالنظر والتدبر، بل جعل إعمال
 اتصال العقل سببا للعذاب الأخرى، فقال تعالى في حق أهل النار ﴿وقالوا
 لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾^(٤) .

أي وأما هؤلاء سمعنا ما أمرهم ^{بالتدبر} فقد جاءوا القرآن فصلا، فكأنهم لم يسمعون شيئا .

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٠ .

(٢) أي الوجود الذي لا يحتاج إلى سبب في وجوده .

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٠٨ .

(٤) سورة المؤمنون، الآية ٦٦ .

(٥) سورة الفرقان، الآية ٤٠ .

لديهم أسلوبي، وحسن أسلوبه، وما اعطى به من آيات البلاغة، وإذا أسكنهم بعد ذلك أن يعرضوه غيأتوا بمثله قال تعالى ﴿وإن كنتم في شك مما نزلنا على عبدنا فلنؤتوا سورة من مثله﴾ وقال تعالى ﴿لنلآ ينظرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجعلوا فيه اعتصاما كثيرا﴾^(١).

وأما التكاليف القرعية من جهادات وسعادات فإلك إذا تأملت فيها، وحملت ما اشتملت عليه، من المصالح والمنافع التي تعود على العباد لا يحسب إلا أن تجزم بأنه ليس فيها ما يناقض العقل السليم.

وقد ذكر علماء الكلام أن أول واجب على الإنسان هو النظر والفكر لتحصيل الإحاطة بوجوده تعالى.

وقالوا أيضا إذا تعرض العقل والنقل وجب الأخذ بما دل عليه العقل ولرجاع النقل إلى ما قضى به العقل.

وكأن الذين الإسلامى أحرم العقل، ونهب إلى النظر في الآيات، كذلك رغب في تحصيل العلم الرفيع للجهل، لا فرق بين العلوم الدينية والدنيوية، قال تعالى ﴿ولا تلقوا بها علم﴾^(٢) أى لا تتبع ما لم يتعلق به علمك فلا تقلد ولا تقل رجا بالغب.

وقال منوها بشأن علم التاريخ ﴿يعرفى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ وقال في شأن العلم العقلية مشجرا إلى الترشب فيها: ﴿ومن الناس من يعادى الله ويعلم علم﴾^(٣) وأصرح من ذلك في رفع شأن العلم. قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾^(٤) وقوله تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم

(١) سورة هود الآية ٨٢.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٣) سورة الحج الآية ٨.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨.

درجات ﴿وقوله تعالى أمراً للرسول يطلب الزيادة في العلم﴾ ﴿وقل رب زدني علماً﴾ ولم يكف القرآن بالحث على تعلم العلوم، بل ذم الظن والتقليد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى ﴿وما جمع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ وقوله تعالى في قول النصاري في صلب المسيح. ﴿وما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾^{١١} وغير ذلك كثير.

ولخلاصة أن الدين الذي يدعو الناس إلى أعمال عقولهم ونهاتهم عن الاعتقاد على الظن، ويحثهم على تعلم العلوم بجميع أنواعها، ويعمل في إثبات قضاياها على حكم العقل، لا يصح أن يشتمل على ما يناقض العقل ولا على ما يخالف العلم.

وإن قال خصومه إنه يناقض العقل، أو يخالف العلم، فمشوه قصر النظر وعدم تفهم الكتاب الكريم ومزايا الدين.

ومن الأدلة على ذلك أن كثيراً من النظريات والاكتشافات التي يزعم أنها مخالفة للقرآن، ولما جاء به الدين، لا تلبث أن تعارض بنظريات أخرى، أو بإظهار خطأ صاحبها، أو عدم فهمه للقرآن الكريم على الوجه الصحيح، فالإسلام هو الدين الذي تأخى مع العقل والعلم.

الإسلام دين الفطرة

يطلق الإسلام ويراد به الانقياد الظاهري لما جاء به نبينا محمد ﷺ من التكليف الفرعية.

ويطلق ويراد به ما يشمل الانقياد الظاهري والتصديق الباطني وهو المراد هنا،

والفطرة تطلق ويراد منها الدين، وتطلق ويراد منها الخلقة، وهو المراد هنا، فيكون معنى هذه الجملة أن الدين الإسلامي الذي جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية، هو الدين الذي يتناسب ويتلاءم مع خلقة النوع الإنساني، وقبله العقل واستعداده، ويكفل مصالحه وحاجاته، ولو نظرنا إلى استعداد الإنسان وما خلق لأجله، ولما تكاليف التي جاء بها دين الإسلام اتضح لنا أن الإسلام دين الفطرة وإليك البيان :

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وميزه عن سائر الحيوانات، التي تشاركه في الحيوانات بالعقل والتفكير، وجعله خليفة في الأرض، ليقوم بمسارها، ويخلف الحيوانات الأخرى وعوالم كثيرة، ليستعملها الإنسان في عمارة الأرض وتحصيل مصالحه، وجميع لوازم الحياة، وحيث كان الإنسان بهذه المنزلة فالدين الذي يناسبه ويتلاءم مع استعداداته هو الدين الذي يرفع شأنه، ويوق روحه، ولا يهمل عقله، ويحفظ جسمه، وتكون تكاليفه وافية بحاجته، وتكاليف الإسلام من أصول وشرع كافية بذلك .

قد طلب من الإنسان أن يترفع عن عبادة الأصنام والكواكب ويجعل عبادته خلاصة لله تعالى الذي خلقه وسواه، وأسبغ عليه نعمه، ويعترف بوحديته واتصافه بجميع الكمالات وتنزهه عن النقائص .

وبهذا رفع شأن النفوس الإنسانية وطهرها من عرافات الشرك، والأوهام فلا تحبط إلى عبادة الجساد والحيوان، وجعل المرجع في ذلك العقل، ففتح على النظر في الكائنات، وما اشتملت عليه من إحكام الصنع وبديع الإنشاق .
وإذ هذا احترام للعقول وحماها على تأدية وظائفها التي خلقت لأجلها .

ومن ذلك يبين أن التكليف بالعقائد الإيمانية على هذا الوجه جاء ملائماً ومناساً لما تقتضيه فطرة الإنسان وعقليته .

كذلك حث الدين الإسلامي على تعلم العلم سواء كان دينياً أو دنيوياً

يرفع من شأنه وشأن أهله، وطلب من الإنسان أن يرفع عن التقليد واتباع
الظن، ولي هذا لإرشاد إلى ما يكمله ويرفع شأنه، ودلالة على أن استعداده
يُرفع لذلك .

كذلك جاء الدين بعبادات من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك طالب
الإنسان بها، وشدد في ذلك الطلب، لأن كماله في نفسه وإقامة دعائم المودة،
والترابط بين أفرادها وجعله إنساناً كاملاً لا يتحقق إلا بالإتيان بهذه العبادات :
فالصلاة تركز النفس وتطهرها، وتقرب العبد من الله تعالى، والصوم يقوى
إرادته، ويحفظ صحته، وينبه إلى الحطف على أخوانه الفقراء، والزكاة الواجبة في
مال الغنى تدفع حاجة الفقير المشارك له في الإنسانية، وتجعله آمناً على نفسه،
وسلامه وهكذا، وجميع العبادات توصله إلى السعادة الأخرية التي يميل إليها
بمقتضى استعداده وتفكيره .

كذلك جاء الدين الإسلامي في المعاملات بآداب واسعة بحيث يمكن كل
فرد من أفراد الإنسان بمقتضى رغبته وميله، أن يجد طلبه وما تودده نفسه،
ويحصل مصلحته ويتفاد حاجته .

ذلك لأن الإنسان في حياته يحتاج إلى أشياء كثيرة من سكن، وملبس وغير
ذلك، وليس من السهل وجود كل ذلك في يده، فهو مضطر إلى الحصول عليه
من الغير وتحصيله بطريق النصب وظلم الغير، تأباه النفوس السليمة مخالفتها
لطبيعتها، فشرع الله له كيفية التعامل مع الغير من بيع وإجارة، ورضع وعارية،
ليسهل عليه اختيار الطريق الذي يناسب حالته وتطعمن إليه النفوس .

كذلك أباح له الجمع بالعطيات، ونهاه عن تناول ما يضر جسمه ويمت فكره
وحلقه .

كذلك طلب الدين من الإنسان التجميل بالأخلاق الفاضلة من الصدق
والوفاء وغير ذلك .

لا شك أن الدين الذي جاء بهذه التعاليم هو الدين الذي يجعل الإنسان إنساناً كاملاً، وهو الذي يناسب استعداد الإنسان وعلام فطرته، فالإسلام دين القطرة .

أثر الإسلام في انتشار العلم والرد على من زعم أنه أضر العقل البشري

يؤخذ من كتب التاريخ المؤرخ بها أن العرب قبل الإسلام لم تكن حماهم العقلية واسعة النواحي، لأن طبيعة بلادهم الصحراوية لا تستدعي أكثر من أن يفكروا في تحصيل أرزاقهم، بواسطة ما يملكون من الإبل، وأنواع السواقي وفي طلب المرعى لها .

لذلك لم يعرف عنهم أنهم فكروا، أو ابحروا، أو استبطوا من الآيات الكونية ما يسمى علماً، وكل ما عرف عنهم هو نبوغهم في اللغة والشعر، والأمثال وقصصهم، ومعرفة الأنساب والأأنواء، وشيء من توليف الأمم الماضية، أعني عقولهم عن سلفهم، وشيء من الطب وصلوا إليه بالتجارب التي رؤوها من أسلافهم، وربما أعطوا في الوصف، لأن ذلك الطب المعروف بينهم ليس جديداً على قواعد صحيحة، منضبطة، وكانت الأمة شائعة بينهم، حتى أنه لم يورد في قرش التي هي أشرف القبائل العربية وأزكاهما، من يعرف الكتابة من الرجال، سوى سبعة عشر منهم: صر من الخطاب، وحنان بن عوف، وحل بن أمية، ومع ذلك فلم يكونوا مهرة في الكتابة، ولم تكن كتابتهم سائرة على نمط واحد، ولا خاضعة لقوانين الإملاء، فكانوا يكتبون امرأة بجاء مفتوحة، ويكتبون الألف حيث يجب حلها، وسبب ذلك ضعفهم في صناعة الخط، وأنهم لم يملأوا حد جمادة فيها .

فلما جاء الإسلام أفاد الحركة العلمية في بلاد العرب من وجوه متعددة:

«١» جاءت تعاليم هذا الدين صالحة لجميع الناس في جميع الأزمان والأمكنة، فكانت وظيفة الرسول وخلفائه من بعده، القيام بنشر تعاليمه لعامة الناس، ومن لوازم ذلك وجود من يقرأ ويكتب، فيمكن للعالم بالقراءة والكتابة، أن يكتب آيات القرآن ويطلعها على من لم يعرف، كما حصل من خباب بن الأرت مع أخت عمر بن الخطاب، فإنه ذهب إليهما معه صحيفة فيها آيات من سورة طه فكان يقرأها عليهما، وقد ورد أن النبي ﷺ في غزوة بدر جعل فداء بعض الأسرى الذي يكتبون تعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة، بل حث النبي ﷺ بعض أصحابه أن يتعلموا لغة غير اللغة العربية لما رأى الحاجة داعية إلى ذلك، فقد روى البخاري أن النبي ﷺ أمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود، وقراءتها، وتعلم اللغة السريانية، ومن ذلك يعلم أن القيام بنشر تعاليم الدين الإسلامي كان داعياً إلى تعلم القراءة والكتابة واللغة المخالفة للغة العربية.

كذلك لما اتسعت الفتوحات الإسلامية وكان النصر الغرب هو الحاكم والقائم بالشؤون، كان لا غنى له عن تعلم القراءة والكتابة، كى يتأق له ضبط معاملات الناس مع بعضهم، وانتشار الإسلام ودخول الناس فيه من غير العرب كان من البواعث هذا الفريق على تعلم اللغة السريانية، لينغموا آيات القرآن والأحاديث، حتى يعرفوا ما يلزمهم منهم ودينهم فصدموا النصر.

ومن هذا أيضاً يتبين أن للإسلام أثراً كبيراً في نعم العلوم العربية

«٢» طالب الإسلام محتضيه بمقالات، وجهادات، ومعاملات، واخصر بأخلاق فكان داعياً للثبوت على التذكير في تلك التعليمات، فرفع المستوى الفعلي^(١) من الانحطاط الذي لا يناسب استعداد النوع الإنساني.

(١) مكملاً ودوت الكلمة في السبعين المطبوعين، وأعتقد أن فيها حظاً طيباً وقصيراً
القول.

كذلك جاء القرآن الكريم متضمنا أحوال الأنبياء مع أممهم، ففصر عليا
خير نوح وإبراهيم، وصالح وهود، ويونس وموسى، وعيسى عليهم السلام، مع
أممهم بإطباب نارة، وإيجاز نارة، في أسلوب يحمل النفوس على الاستزادة من
أخبارهم، وتعرف ما عند الأمم الأخرى، فكان ذلك متقا لعقول المسلمين
ومؤدبا إلى توسيع مداركهم، والتطلع إلى زيادة التفكير والاستمرار فيه .

وجاء القرآن الكريم أيضا مشتملا على أحكام الأحوال الشخصية، والشئون
المدنية، والجنائية، فكان أساسا اتخذه المجتهدون مرجعا لهم، يستطيعون به
أحكام الحوادث التي اقتضتها مدنية المسلمين، وحضارتهم، وغير خفي أن هذا
يحمل الراغب في استنباط الأحكام على تعلم العلوم التي تؤهله للاستنباط

« ٣ » سلك القرآن الكريم في الدعوة إلى الإيمان بالله وصفاته، من علم
وقدرة ووحداية مسلكا حرك العقول وحثها على التفكير، فدعاها إلى النظر في
الكائنات وما اشتملت عليه من الأسرار، فكان لهذا أثر كبير في نمو العلوم
الكونية، وفي ترقية الحياة العقلية، قال تعالى ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت
السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ وقال تعالى ﴿ فلينظر الإنسان إلى
طعامه أنا صينا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتا فيها حبا . وعينا
وقضيا . ونبتونا وغللا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم
ولأنعامكم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل
والنهار لآيات لأولي الأبصار . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم
ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ وقال
تعالى ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾

(١) سورة ميس الآيات ٢٤ وما بعدها

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٩٠ تبييه بعدها

(٣) سورة المزمل الآية ٢١ هـ

وغير خفى أن الدين الذى يرشد الإنسان إلى تعلم العلوم، واستعمال العقول،
وتفكيرهم فى الكائنات وما اشتملت عليه من الخواص والأسرار . لا يؤخر العقل
البشرى، بل يرقبه إلى المستوى الذى يناسب استعداده .
فالإسلام لا يؤخر العقل البشرى .

بيان أن الإسلام أفضل الأديان

منذ سكن آدم عليه السلام الأرض، ووجد له أولاد، احتاجوا للتعامل مع
بعضهم، والله تعالى يتمهد بنيه من وقت لآخر بسى يرسله إلى طائفة منهم،
يرشدهم إلى التعامل بأحكام، تكفل مصالحهم بحسب العرض الذى وجدوا
فيه .

استمر الأمر هكذا إلى أن أرسل الله نبيه محمدا ﷺ إلى الناس كافة، مدين
صالح لجميع الأزمنة والأمكنة، ناسخ للأديان السابقة عليه .

هذه الأديان السابقة على الدين الإسلامى ليس بين أيدينا من الكتب
والتواريخ ما يبين تكاليفها الفرعية، ما عدا شريعة موسى وعيسى عليهما السلام،
فإن كتب العهد القديم تبين تعاليم الديانة اليهودية، وكتب العهد الجديد تبين
تعاليم الديانة المسيحية، فإذا أردنا أن نعمل مقارنة بين الدين الإسلامى وغيره
من الأديان، فلتكن بينه وبين دين اليهود ودين النصارى، حيث يوحد من
الكتب الممول عليها عدد أهل الديانتين ما يعلم منه أحكام هاتين الديانتين .

والمفاضل بين دين الإسلام وغيره إنما هو باعتبار الديانات فى ذاتها، بقطع
النظر عن كون بعضها نسخ، أو لم ينسخ، أما إذا نظرنا إلى أن جميع الأديان
المخالفة للدين الإسلامى قد نسخت، فلا معنى للمفاضل بين ناسخ ومنسوخ،

لأن نسخ اللاحق للسابق إنما كان لمصلحة اقتضته بالعمل^(١) به متعين، وهو الأفضل بلا نزاع.

وإن لذكر لك كلمة موجزة في بيان أحكام من دين اليهود، وأحكام من دين النصارى، لتقارن بينها وبين الدين الإسلامى، ومن ذلك يظهر لك أن دين الإسلام أفضل الأدیان.

دين اليهود

كان قوم موسى مستعبدين للفراعنة، فنشأ عن هذا الاستعباد ضد الضمائر والعرام، كما هو الشأن في ذلك، ومثل هؤلاء الذين ضعفت ضمائرهم لا يبيرون داعى الله بسهولة، فلا يناسبهم إلا الشدة.

لذلك ترى بين صفحات التوراة من التكاليف والزواجر ما يصعب الخضوع له.

فقد جاء في سفر اللاويين (من عمل يوم السبت يقتل قتلاً) وجاء أيضاً (الجمل نجس لا تأكلوه والأرنب كذلك من لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا إنها نجسة لكم) وجاء في سفر الخروج (من سب أباه أو أمه يقتل قتلاً).

وجاء في سفر العدد «إذا مان إنسان في خيمة فكل من دخلها أو كان بها يكون نجساً سبعة أيام، وكل إناء مفتوح فإنه نجس، وكل من مس قراً أو عظم إنسان يكون نجساً سبعة أيام».

ونقل الفخر الرازى في تفسيره أن الصلاة في دين اليهود كانت محسنة لـ

(١) هكذا ورد البحر في المطبوعتين، وأعتقد في الكلام خطأ مطبعياً، والصواب: كان لمصلحة اقتضته، والعمل به متعين... الخ.

الروح والذلة، وكان الواجب في الزكاة عندهم بيع ما يملكه الإنسان، ولا تحلى للفقير بل تحرق، وكان الثوب إذا تنجس لا يطهر إلا بقطع موضع النجاسة، وكان الواحد منهم إذا نسي شيئا مما كلف به جعلت له العقوبة في الدنيا، وإذا تركب خطيئة عولب بتحريم بعض أنواع الطعام التي كانت حلالا له، وكانت النهاية عندهم بقتل النفس .

دين النصارى

جاء عيسى عليه الصلاة والسلام والناس قد سمعوا نقل التكاليف فنبهوها وتغنموا في اللذات والشهوات، فطالبهم بالانقطاع إلى الملكوت، والضر والصلح، والزهد في الحياة الدنيا ولذاتها، فقد جاء في إنجيل (متى) أن عيسى قال يوما لأتباعه (سمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا، ومن أراد أن يخلصك وتأخذ ثوبك، فاترك له ذلك، ومن سخرك ميلا واحدا فلاذهب معه ميلان) .

وجاء فيه أيضا (مرور جمل في ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنق في ملكوت الله، لا تقدروا أن تخدموا الله والمال، لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا، ولا تهتموا بما للبدن، فإن الغد بهم بما لنفسه) وجاء في إنجيل (متى) ما يفيد أن عيسى حث على الرهبانية وترك الزواج مع أن في ذلك قطع السبل البشرية نقدا. قال (يوجد خصيان نخصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات، من استطاع أن يقبل فليقبل) .

فشرعة موسى فيها من التكاليف الشديدة ما يؤدي إلى الخروج عليها ونيلها وشرعة عيسى فيها ما يدعو معتقها إلى احتقار الدنيا، والصد عما فيها من عمران .

أما الدين الإسلامي فهو الدين الوسط الجامع لحقوق الروح والجسد،

ومصالح الدنيا والآخرة، ولا حرج فيه ولا عسر، ولا إرهاق، ويظهر لك هذا
بذكر نبذة يسيرة.

دين الإسلام بالنظر إلى التكاليف الفرعية يحصر في أمرين:

معاملة العبد مع ربه، ومعاملة العباد مع بعضهم.

والنوع الأول يعرف بالعبادات والتأثر^(١) بالمعاملات. أما النوع الأول،

فقد كلف الله تعالى العباد بحسب طاقتهم مع اشتغال التكاليف على مصالح تعود
على العباد.

كلفهم بالصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، في أوقات محدودة على وجه لا
يمنعهم من السعي في أمور دنياهم، وفضلا عن ذلك فهي نوع من الرهانة
التي تعود على البدن بالفوائد الجمة، مع ملاحظة أنها مسبقة بوضوء، هو عبارة
عن غسل الوجه والأبدي، والأرجل ومسح الرأس، وهذا يبعد إلى الإنسان ما
فقدته من النشاط، هذه الصلاة يؤديها من قيام إن قدر، وإلا فمن قعود إن
استطاع ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، كلفهم بالصوم شهرا في العام، ليدركوا
قيمة الأثم الذي يلحق الفقير الجائع، فيعطفوا عليه، ولتخف تلك الرطوبات
التي غمكت من أجسامهم طول العام، بشرط القدرة وعدم المشقة.

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ لعلكم تتقون﴾. أي أهاما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على
سفر فعدة من أيام أخر^(٢) كلف الغني بالزكاة نسبة ربع عشر ما يملك

(١) هكذا رجعت الكلمة (وتأثر بالمعاملات) في النسختين المطبوعتين وأعتقد أنه حـ
مطبع، والصواب (وتأثر بالمعاملات).

(٢) يتعبد بالنوع الأول من العبادات. بخلاف النوع الأول في العبادة السابقة فيفصل
الشرعة مطلقا: فبادات ومصلوات.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٢ وما بعدها.

وأمره بوضعها للفقير ، وبذلك يأمن على نفسه ، وماله من تعدى الفقير عليه ،
فيزيل الحسد والحقد من النفوس .

كلف المستطيع بالحج ليحصل التعارف بين المسلمين ، والوقوف على أحوال
بعضهم ، والتشاور فيما فيه مصلحتهم ، في ذلك الموقف الذي يذكرهم بالوقوف
بين يدي الله سبحانه وتعالى في المحشر ، ولم يجعل لهم العقوبة في الدنيا بالمسح
أو الإغراق .

يقبل التوبة من المؤمن بمجرد الندم والعزم على عدم العود وعفو المظلوم عن
الظالم إن كان الحق للبد .

لم يكلفه في تطهير ثوبه من النجاسة بقطع موضعها ، بل اكتفى بسل
موضعها ، أو مسحها ، أو جفافها ، على حسب ما هو مبين في كتب الفروع ،
وأباح للإنسان الزينة واجتمع بالطيبات من الرزق بدون إسراف قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا آدَمُ خُذْهَا بِمَا وَكَّلْنَا بِكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(١) وقال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ﴾^(٢) وجاء في الأحاديث الصحيحة نهي المسلمين عن الغلو في العبادة ،
ومن الرهبانية ، وعن الخطأ ، وأمرنا بالسمي في تحصيل الدنيا ، قال تعالى ﴿ وَابْتَغِ
لَهَا أَثَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ لِنَفْسِكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾^(٣) .

أما النوع الثاني وهو معاملة العباد مع بعضهم ، فقد شرعه الله تعالى
موسماً في طريقه ، من بيع ، ورهن ، وإجارة ، وإعارة ، على وجه قاطع لمنازعة

(١) سورة الأعراف الآية ٣١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٢ .

(٣) سورة القصص الآية ٧٧ .

المباد مع بعضهم، كفيل بمصالحهم، وسوى فيه بين الغنى والفقر، وبين المسلم واللى، فيقتصر من الغنى للفقير، ومن المسلم للذى، وأوجب عصمة دم الذى وماله كالمسلم .

وغير ذلك فقد جاء الدين حاثا على الإحسان إلى الوالدين، واليتيم، والمجان، ومعاملة الزوجة بالحسنى، والوفاء بالعهد، مشددا التكبر على الظالم لغيره، بإزهاق روحه أو أخذ ماله، أو تعد على عرضه، أو تكلم فى حق أخيه المؤمن بما يكرهه .

إذا نظر المتصف إلى هذه التكاليف والتعاليم، وقارن بينها وبين ما جاء فى الأدبان السابقة أدرك أن دين الإسلام هو الدين الذى جمع كلاما يحتاج إلى الإنسان فى نفسه ومع أهله، وجاره، فى حضره وسفره، فى صحته ومرضه .

وهو الذى أوضح للإنسان سبيل العمل على وجه لا يملح به مشقة، ولا عسرا، وهو الذى أعطى للإنسان حفظه فى الحياة الدنيا، على وجه يتفق مع المصالح، فليس فيه عسر ولا حرج، فهو الدين الوسط، وخير الأمور أوسطها قال تعالى ﴿يَهْدِي اللَّهُ لَكُمْ السَّبِيلَ وَلَا يَهْدِي اللَّهُ لَكُمْ السَّبِيلَ﴾^(١) وقال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٢) وقال تعالى ﴿لَا يَكُلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٣)

(١) سورة البقرة جزء الآية ١٨٥ .

(٢) سورة الحج جزء الآية ٧٨ .

(٣) سورة البقرة الآية الأخيرة .

بيان مزايا الإسلام

(فيما يتعلق بالحالة الخلقية للفرد، وحالة الأسرة والمجتمع.)

دين الإسلام هو التعالم التي جاء بها نبينا محمد ﷺ إلى الناس كافة، يطلب منهم اعتناقها، ليحصلوا على السعادة الدنيوية والأخروية، فأمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء، ورغبهم في التخلق بالصفات الحميدة، ونهاهم عن الانصاف بصددها، فكان له أثر حميد في حياة الفرد، وحياة الأسرة، وحياة المجتمع.

أمرهم بتوحيد الإله وقصر العبادة عليه، وعدم الشرك قال تعالى ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ وقال تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وبذلك رفع شأن النفوس، وطهرها من خرافات الشرك والأوهام، فأنكشف لها أن النفوس لإنسانية لا ينبغي أن تتجه إلى عبادة الجساد، أو الحيوان، وإن كلها في الخضوع للإله الخالق، المدير للعالم دون سواء، وأمرهم بالصلاة في أوقات معلومة، كي يتوجه العبد إلى ربه يشكره على نعمته، ويطلب منه المعونة والمساعدة.

فأحدث ذلك أثراً حميداً في النفس هو مرافقته لله تعالى وخشيته، فلا يجرؤ على ارتكاب محرم، قال تعالى ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ وطلبهم بالصيام الذي يعود الإنسان على الصبر، وضبط النفس، وقوة الإرادة، واحتئال المشاق، وطلبهم بالزكاة، التي إذا قام الإنسان بها أحدثت فيه خلق الإحسان والرحمة بالضعفاء، وظهرت قلب الفقير من الأضغان والأحقاد على الأغنياء، وأمرهم بالحج، الذي يطوف بالبيت الحرام فيه الغنى مع الفقير، فيذهب عن الغنى الغرور بمروته، ويحس الفقير بأن زخرف الحياة باطل فوضي نعمته، ويحس الجميع بأن المال لا أثر له في اكتساب الفضل، وأن التفاضل إنما يكون بالتقوى، كما دل عليه قوله تعالى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاهم﴾

كما أن هذه المأمورات أثرا حيداً في النفس، كذلك للالتناء عن المحرمات أثراً
كبيراً في تهذيبها، فحرم المحرم لحفظ العقل من الفساد، والجسم من التهدم،
وحرم المفارقة لحفظ كرامة الشخص، وماله، وحرم القتل وأكل أموال الناس
بالباطل، والنية، وكل ما يؤذى الغير، ليأمن الناس من وقوع العداوة والبغضاء
بينهم .

وإذا علمت على الإجمال أن للدين الإسلامي ذلك الأثر و تهذيب
شغوس، فاعلم أن أثره في حياة الفرد أنه يجعله إنساناً كاملاً، ويحصل له حياة
طيبة، فنتى اجتنب الفرد المحرمات فلم يتناول مسكراً، ولم يفتك بعرض، ولا
نفس، تمتع بصحة الجسم، وأمن من نقل الأمراض إليه، وحقق دمه، وسر
حافظ على العبادات المطلوبة منه، وأداها كما طلبت، نال الجزاء الأول عند ربه،
وعظم أمره في نفوس الناس، ومنى عمل وسعى في طلب الرزق كما أمر الله تعالى
تمتع بمزة النفس، وإذا كان رحيماً بالضعفاء متواضعاً، سمحاً جواداً، يغطي المال
مع حبه لمستحقه، أميناً في عمله، صادقاً في قوله، صابراً عند الشدائد، تمتع
بمحبة الناس له، وحفظ لنفسه مكانة، يسمو بها على غيره، قال تعالى ﴿ومن
عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنصنع له حياة طيبة ولنجزينهم
أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ .

وأما أثر الدين في حياة الأسرة فهو اجتئاع شملها وانتظام أمرها، وبذلك تعيش
في أرواح عيش وأمنه .

لوجب الشارع على الزوج الإنفاق على زوجته وإسكانها بالمعروف، ونهأ
عن مضارها، كما أوجب عليها حقوقاً لزوجها، من المحافظة على ماله، وشؤون
معيشتها، وعدم خيانتها، ولوجب عليهما القيام بتربية الأولاد تربية حسنة، صالحة
حتى ينشأوا كاملين صالحين، ولوجب على الأولاد أن يحسنوا بوالديهم .

لا شك أنه متى قام كل واحد من أفراد الأسرة بما طلب منه، وحافظ على

حقوق **خبر** من أفرادها، اجتمع فعلها وانتظم أمرها، والمشاهدة أقوى دليل على ذلك .

وأما أثر الدين في حياة المجموع فهو تهذيب الأمة، ورقيها وقوتها، واتساع سلطانها، ودوام عزها .

كما أوجب الدين على كل فرد حقا لأهله، وعشيرته، أوجب عليه حقا للأمة، فأوجب عليه أن يحترم أعراض الناس جميعا، وأنفسهم، وأموالهم، فنهاه عن الزنا وقتل النفس، وأخذ مال الغير بطريق غير مشروع، وطلب من كل فرد أن يعاون الآخر ويساعده، وطلب من الكبير أن يرحم الصغير، ومن الصغير أن يوفى الكبير، وطلب من الولاة أن يحكموا بالعدل، وأن يقيموا الحدود التي حياء بها القرآن الكريم .

فإذا قام كل إنسان بما يطلب منه في خاصته، ومع أسرته، ومع الأمة، نكون من تلك الأفراد مجموع وإن تعددت أفرادها، فقد توحدت وجهته، وطريقته، فلا تحاسد، ولا تباغض، ولا ضرار، وبذلك يكون الأثر الذي أحدثه الدين في تلك الأمة من أفضل الآثار، وهو ارتقاؤها، واتساع سلطانها، ودوام عزها، فلهذا الدين الإسلامي مزايا تعود على الأفراد، والأسرة، والمجتمع بالسعادة .

ما يرتكبه بعض المسلمين

مخالفين فيه لتعاليم الدين الإسلامي ليس حجة على الدين .

نظّر تفسرو العقول، والكابرون، إلى الأعمال التي بأنى بها بعض معتنقي الدين الإسلامي، فرأوا منهم خلفا في الوعد ونقضا في العهد، وتفرقا في الكلمة، وتباغضا وتحاسدا، وحقدا على بعضهم، وسفك دماء معصومة، وهتك أعراض محترمة، وظلما لبعضهم، وأكل أموال بعضهم بالباطل، وكذبا في القول،

وملا إلى البطالة والكسل، وتركوا للصون والإحسان، وملا إلى التعلق بالخرافات،
فاحتقدوا أن دين الإسلام لا يلبس النفوس، ولا يكفل مصالح الناس، وأن ما
يذهب للسلوك من أن دين الإسلام هو دين الفطرة، وأنه مهذب للنفس
كامل بالمصالح غير مخرج، وجعلوا عمل هذا الفريق من أهله حجة لهم، فيما
يقولون، ولو تأملوا قليلا ما اجتروا على ذلك القول في أى دين من الأديان
السلطة.

الأديان السماوية هي الشرائع التي جاءت بها الرسل إلى الأمم، بواسطة
الروح من الله تعالى، لمصلحة الأمم، وسعادتها، ودين الإسلام دين سماوى جاء
به سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة، لتلك الغاية، وهو ما دل عليه القرآن
الكريم والسنة الصحيحة، فإذا أردنا معرفة قواعده وتعاليمه فلننظر في القرآن
الكريم، والسنة الصحيحة دون سواهما.

القرآن الكريم دعا الناس إلى التوحيد والترفع عن عبادة الجهاد والحيوان،
وكل أنواع الشرك قال تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿وَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ﴾
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ دعاهم إلى المحافظة على الأنفس من التعدى
عنها، قال ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا﴾
﴿أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ دعاهم إلى المحافظة
على حق الملكية فقال ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ﴿وَالسَّارِقُ﴾
﴿وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَعْمَارِكُمْ﴾
﴿إِنْ تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ كَانَ﴾ ﴿فَاحْشَا﴾ دعاهم إلى المحافظة على الأعراض فقال ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ كَانَ﴾
﴿فَاحْشَا﴾ ﴿وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾
﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، دعاهم إلى المحافظة
على عقولهم فقال ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ﴾
﴿الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ دعاهم إلى الجاهلية وحسن المعاملة،
والأدب، فقال ﴿وَإِذَا حُجِمَ بِبَغْيٍ فَحْيُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رَدُّوْهَا﴾، ﴿ادْفَعْ

بالتى هى أحسن ﴿ لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾
 ﴿ لا تلخلوا يوترا غير يوتكم حتى تساننوا وسلموا على أهلها ﴾ ، دعاهم
 إلى الصبر عند الشدائد فقال ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ دعاهم إلى
 الصدق قال ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ نهاهم عن الكذب والتفادى فقال
 ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ دعاهم
 إلى العدل والإحسان فقال ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ دعاهم إلى
 التعاون على البر فقال ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ دعاهم إلى العطف على
 المحتاجين بالجلود وبذل المال ، فقال ﴿ وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾
 ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ دعاهم إلى العفو والعصم ، فقال ﴿ فمضى
 عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ﴿ ولا تستوى
 الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ﴾ دعاهم إلى التواضع ونحو الكبر
 والخيلاء فقال ﴿ ولا تشمى فى الأرض مراحا ﴾ ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا
 فخورا ﴾ دعاهم إلى الرفق باليتامى وحفظ أموالهم فقال ﴿ فأما اليتيم فلا
 تقهر ﴾ ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا
 وسيصلون سعيرا ﴾

دعاهم إلى تحرير عقولهم من رقة التقليد ، والعمل بالظن ، فقال ﴿ ولا تقف
 ما ليس لك به علم ﴾ ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ دعاهم إلى الأمانة
 والمساواة ، وجعل كل المسلمين أمام التكليف وأمام الحقوى سواء .

لا فضل لمرق على عجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى قال ﴿ إنما
 المؤمنون إخوة ﴾ ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
 وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال ﷺ « المسلم أخو
 المسلم »

هذه هى قواعد الدين الإسلامى التى جاء بها القرآن الكريم ، ودلت عليها
 السنة ، وأدركت العقول السليمة حسنها ، ولا يشك عاقل و أن هذه التعاليم إذا

عمل الإنسان بها كفلت له السعادة في الدارين، وهذبت نفسه، ورفعتها إلى المستوى اللائق بها، وقد جرب هذا العلاج في صدر الإسلام فأثنى بشكره الطيبة، فإن العرب لما انضموا للعالم الإسلامي وعملوا بها كما طلبت انتقلوا من فساد إلى صلاح، ومن تفرق إلى اتحاد، ومن ذل إلى عز، ومن تباعض إلى تألف، ومن ظن إلى يقين، فاعتنقت النفوس من الخضوع لغير الخالق جل وعلا، وحقت الدماء، وحفظت الأعراس من التعدي، وتعاون أفراد المسلمين مع بعضهم، واتسعت فتوحاتهم، وحضت لهم الأمم الأخرى، فالدين الإسلامي يسمو عن أن ينسب إليه شيء مما فعله ذلك الفريق المنتسب إليه .

وكل ما في الأمر أن بعض المنتسبين إلى الدين الإسلامي حادوا عن تعاليمه فعملوا شائره، ونعدوا حدوده، وأهملوا عقولهم، ووقفوا جامدين، وانغمسوا في اللذات والشهوات، فأصبوا بما حل بهم، سنة الله في خلقه لا تبدل ولا تتغير، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا يُقِيمُ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ .

ولو تمسكوا بتعاليم الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم، والسنة الصحيحة لكان حالهم كحال أسلافهم، الذين كانوا في صدر الإسلام من عز ومنعة، واتساع سلطان، وتهذيب نفوس، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين للتمسك بدينهم حتى لا يكونوا حجة عليه .

(التقليد في العقيدة الإسلامية وحكمه)

التقليد هو اعتقاد مضمون قول الغير اعتقاداً جازماً بلا دليل، فيكون معناه في العقيدة الإسلامية بالنسبة للباري اعتقاد وجوب القدرة أو أى صفة من صفات الكمال لله تعالى اعتقاداً جازماً، اعتمد فيه المعتقد على قول من قلده من غير أن يعرف الدليل .

وحكم هذا التقليد من حيث كونه كالياً في تحقق الإيمان المطلوب شرعاً أو غير كاف في تحقيقه، يحتاج إلى تحرير محل النزاع.

لذلك نقول أجمع العلماء على أن من اعتقد أركان الدين وأصوله تقليداً، واعتقد مع ذلك جواز ورود شبهة على معتقده، وقال لا آمن من ورود شبهة نفس ما اعتقدت فهو كافر، وهذا لا يدخل في مفهوم المقلد الذي هو موضوع كلامنا، كذلك أجمعوا على أن المقلد في الإيمان يعامل في الدنيا معاملة المسلمين، من الدفن في مقابرهم، والصلاة عليه وخلفه، وغير ذلك، ومحل كلامنا هو المقلد المعتقد قول الغير اعتقاداً جازماً ولا يجوز ورود شبهة.

هذا النوع اختلفوا في إيمانه، هل هو معتبر في الآخرة، أو غير معتبر قولاً، وسبى هذا الخلاف على خلاف آخر في وجوب المعرفة والنظر، فذهب غير الجمهور من العلماء إلى أن المعرفة، وهي الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل ليست واجبة على المكلف، وكذلك النظر المؤدى إليها، بل هي مندوبة، والنظر شرط كمال للإيمان لا شرط صحة، وبناء على هذا قال ذلك الفريق إن إيمان المقلد معتبر في الآخرة، وصاحبه ليس فاسقاً من هذه الجهة، لأنه وإن ترك المعرفة والنظر ليس بتارك لواجب، وإنما ترك أمراً مندوباً. ولما كان هذا القول مصادماً للإجماع على وجوب المعرفة، وإجماع أهل السنة والمعتزلة على وجوب النظر، وليس له سند يعتد به، فالواجب صناعة عدم الاشتغال بذكر شبه التي استدل إليها، وقال بعض العلماء إن هذا القول من أقوال المتدعة.

وذهب جمهور أهل العلم من المتكلمين وغيرهم إلى وجوب المعرفة والنظر. واستدلوا على وجوب المعرفة بما نقل من إجماع المسلمين على وجوب معرفة تعالى، وعلى وجوب النظر بما ورد من الأمر به في القرآن الكريم في آيات كثيرة، والأمر إذا أطلق يبادر منه الوجوب، وبأن النظر مقدمة للمعرفة وهي واجبة، فوجب مقدمتها، وقد أجمع أهل السنة والمعتزلة على وجوب النظر، والخلاف بينهم إنما هو في كون وجوبه بالشرع أو بالعقل، وبعد أن اتفق الجمهور على

وجوب المعرفة والنظر، اختلفوا هل الوجوب وجوب أصول حتى إن الإنسان إذا
أحل بذلك الواجب بتعمد إيمانه، أو وجوب فروع حتى إن الإخلال بهما يكبر
ممعية فتنبية للفسق الذي هو دون التكفير .

فذهب فريق إلى الأول وذهب فريق آخر إلى الثاني .

استدل الفريق الأول القائل بوجوب المعرفة وجوب أصول بأن حقيفة الإيمان
المطلوبة هي التصديق والإدعان عن دليل، فالدليل لا بد منه في تحقق الإيمان
سواء اعتبرته شرطاً من الإيمان أو شرطاً فيه، والشئ لا يتحقق بدون شرط
وشطره، فالإيمان لا يتحقق بدون الدليل، فإيمان المقلد ليس هو الإيمان
المطلوب، لو كانت المعرفة واجبة وجوب أصول، بمقتضى هذا الدليل،
والنظر مقدمه فلا يكون أقل منها، فيكون شرطاً في صحة الإيمان .

واستدل الفريق الثاني القائل بوجوبها وجوب فروع بدليتين . الأولى . أن
المقلد مأثور بالإيمان، وقد بين النبي ﷺ الإيمان بقوله (أن تؤمن بالله
وملائكته) الحديث . فذكر التصديق مجرداً عن الدليل، فإذا أتى به المكلف مجرداً
عن الدليل يكون آتياً بالإيمان المطلوب .

الثاني : أن النبي ﷺ كان يعتبر من صدقه في جميع ما جاء به مؤمناً ولا
يشغل بتعليمه من الأدلة العقلية في المسائل الاعتقادية مقدار ما يستدل به
المستدل وينظر به المحصور ويدفع به الشبه .

كذلك قبل سيدنا أبو بكر الإيمان من أهل الردة، ولم يعلمهم الأدلة التي
يصبرون بها مستبشرين من طريق العقل، كذلك قبل سيدنا عمر رضي الله عنه
هو وعمله، لما فتح سواد العراق إيماناً من كان بها، من الرط والأنباط وما
صنفان من الناس عرفوا بضعف الإدراك وبلاغة الفهم، ولم يكن لهم من دنياهم
سوى الاشتغال بالزراعة، وطرقها، ولم يكلفهم بالاستدلال العقلي، فعمل النبي
ﷺ والخلفين من بعده، دليل على أن إيمان المقلد صحيح معتبر، ولا

لأعرضوا عن قبول إسلام الذين صدقوا من غير دليل، أو كلفوا من يعلمهم
بحقيقة الحاجة والاستدلال، لكنه لم يقع، فدل على أن إيمان المقلد صحيح، وإن
كان مقصرا في تحصيل المعرفة فيكون عاصيا بتركها، ولا يخرج من الإيمان .

وهذا المريق القاتل بوجودها وجوب فروع يختلف في أن ذلك الوجوب يعم
جميع المكلفين أو يختص من كان أهلا للنظر، فقال البعض بتعميم الوجوب على
من كان أهلا ومن لم يكن أهلا، ويظهر أن صاحب هذا القول يرى وقوع
التكليف بالجمال، فلذلك عسم الوجوب، وقال البعض إن الوجوب خاص بمن
كان أهلا للنظر لأن التكليف يعتمد القدرة، وعدم الخوج قال تعالى ﴿ لا
يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾، وقال تعالى ﴿ ما جعل عليكم في الدين من
حرج ﴾ فلا يصح أن يخاطب من لم يكن أهلا للنظر بالمعرفة والنظر، لعدم
القدرة ولزوم الحرج .

ولقاتل أن يقول إذا صح الاستدلال على عدم وجوب المعرفة وجوب أصول
يقول النبي وأصحابه الإيمان من الناس بدون مطالبتهم بالدليل، فهو لا يثبت
أنها واجبة وجوب فروع، لأنها إذا وجبت وجوب فروع فالداخل في الإيمان
مطالب بها، كما يطالب بالصلاة والصيام، فسكوت النبي وأصحابه عن المطالبة
بها والاكتفاء بالإيمان الجبرد عنها إقرار على المعصية وهو لا يجوز .

ويبعد جدا أن كل من اعتنق الإيمان في زمن النبي وأصحابه لم يكن أهلا
للتنظر والمعرفة .

فالظاهر أنها واجبة وجوب أصول ولكن الواجب هو الدليل الإجمالي، وهو
متحقق عند جميع عوام المسلمين .

وغاية الأمر أنهم عاجزون عن التعبير عنه، وعن تفصيله، وهذا لا يضر
فيحمل قبول النبي وأصحابه إيمان الناس بدون مطالبتهم بالدليل، على أنهم
علموا من حالهم معرفتهم بالدليل الإجمالي، وهو كاف في الإيمان بالإجماع .

عقائد العوام وما فيها من دخل

وما طرأ عليها من تطور ضار

أجمعت الفرق الإسلامية على أن للعالم خالقاً منفرداً بالإيجاد، لا شريك له، قدماً باقياً، مخالفاً للحوادث، قادراً مرعباً، عالماً متكهماً، حياً سمعياً بصيراً، وعلى أن الإنسان لا يتحقق إيمانه إلا إذا صدق بذلك، وبأن الله رسلاً وملائكة، وكبياً، أنزلها على رسله، وباليوم الآخر، فمن أنكر شيئاً من ذلك فهو غير مؤمن.

مع هذه الإجماع حصل خلاف بين هذه الفرق في أمور وتفصيلات تتعلق بهذه العقائد، تكفل علماء الكلام بشرحها، وبيان كونها مؤثرة على أصل الإيمان أو غير مؤثرة مع الرد^(١) عليها على الوجه الأكمل فليس من موضوع بحثنا.

وموضوع البحث هو تلك العقائد التي فشت بين العوام ولا تنسب إلى طائفة معروفة وقد تعددناهم إلى الخواص وسأذكر منها ما وقفت عليه مع بيان تأثيرها على عقيدة الإيمان أو عدم تأثيرها.

(١) يعتقد بعض العامة أن الله تعالى في جهة، وقد اختار بعض العلماء عدم كفر صاحب هذه العقيدة، إذا تعسر عليه فهم نفى الجهة، واختار بعضهم التفصيل، فقال إن اعتقد أن الله تعالى في جهة العلو لم يكفر، لأن جهة العلو فيها رفعة وشرف في الجملة، وإن اعتقد جهة السفلى كفر، لأن جهة السفلى فيها خسة ودناءة، والله تعالى منزّه عن كل نقص.

(١) هكذا التصريح في السخينة المطبوعين، وهو أن في الكلام تحريفاً والصواب أن يقال: ورد عليها على الوجه الأكمل ليس من موضوع بحثنا، لأن موضوع هذا البحث هو تلك العقائد التي فشت بين العوام ولا تنسب إلى طائفة معروفة.

(٢) قد علم من الدين أن وحى التشريع وإنزال الأحكام التكليفية انقطع بموت النبي ﷺ، فوجب على كل مسلم أن يعتقد أنه لا نسخ، ولا تغير في الأحكام، كلاً أو بعضاً، بعد موته عليه السلام، قال تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

النسب الأثر على بعض العامة في هذه العقيدة فاعتقد أن جبريل عليه السلام لا ينزل على الأرض بعد موت النبي أصلاً.

وجره إلى هذا الاعتقاد ما رواه بعض الناس وهو (لا وحى بعدى) ففهم من هذا أنه حيث لم يكن وحى بعد النبي ﷺ، وجبريل لا ينزل إلى الأرض إلا بروحى، فجبريل لا ينزل إلى الأرض، وهذا الاعتقاد خطأ لأن ذلك الخبر السابق ذكره وصفه بعضهم بالوضع، وعلى فرض صحته فهو إنما ينهى الوحى إلى الأنبياء بشرع، ولا تلازم بين هذا وبين عدم نزول جبريل إلى الأرض فقد ينزل إلى الأرض لتبليغ خبر لا يتعلق بشريع جديد، وقد جاء في حديث رواه مسلم (أوحى الله تعالى إلى عيسى أنى أخرجت عبداً لى لا يد لأحد يقتلهم فحول عبادى إلى الطور) فقد تضمن هذا الحديث أن الله تعالى أوحى إلى عيسى بحجوه بأنه أخرج عبداً لا قدرة لأحد على قتالهم، وهم بأجوج وأجوج، وأمره بأن يضم عباده إلى الطور حتى لا يهجم، ولا يلحقهم ضرر بأجوج وأجوج، ومعلوم أن الوحى إلى الأنبياء إنما يكون على لسان جبريل عليه السلام، ومن هذا يتبين أن جبريل ينزل بعد موت النبي إلى الأرض، وأنه يحجر بأشياء لا تنطق بتجديد شرع أو نسخ حكم، فاعتقاد عدم نزوله مطلقاً خطأ، إلا أن هذا الاعتقاد لا يؤثر في أصل الإيمان ولا ينفي التصديق القلبي المنحى من الحلود في النار.

(٣) قال تعالى ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ استفيد من هذه الآية أن أهل الجنة يخاطبون بهذا القول الدال على أن دار النور ليست كالدار، فالناس في الدنيا يخافون ويحزنون لفتنات دعت إلى ذلك، أما في دار

هروب فلا خوف من عدو، أو لحوق ضرر، ولا حزن لزيوال نعمة، أو فقد ولد، أو إصابة بمرض، فالآية حيلة تفهم أن الشخص متى دخل الجنة آمن من نزول للصلاب، ولأن مكر الله، بخلاف حاله في الدنيا وهذا المستفاد من الآية يجب على كل مسلم أن يحفظه .

طراً على هذه العقيدة ما جعلها أوسع من ذلك، فقد اعتقد بعض العامة أن الجنة ليس فيها حزن ولا ندم على شيء (ما) أصلاً، فليس فيها حزن على عدم الإكثار من عمل الخير، ولا على فعل الشر، وهذا يرد ما ورد من أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة وعرفوا ربهم معرفة زائدة على معرفتهم له (في الدنيا ندموا على ما قصروا في حق ربهم، وفي خدمته، كذلك يرد ما ورد من أن الزناة إذا دخلوا الجنة ونحى لهم الحق تعالى، فأنكشف لهم ما هم عليه من الحساسة والجهل برهم، وعلموا ما هو عليه في الجلال والعظمة، والكبرياء والقهر، والغلبة وسعة الرحمة، ندموا واستحيوا حتى ينشئ عليهم مدة .

وعند ذلك يقول من عصمه الله من الزنا بعضهم لبعض، لقد خصنا ربنا في هذا الوقت بجميع نعمة، فإذا أفاق أهل الفسقة حصل لهم من كمال المعرفة ما لا يكيف، وقد ورد عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ (ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا اسم الله تعالى فيها) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة). فهذه الأحاديث تدل على أن في الجنة حزناً يحصل لبعض الناس على ما فاتهم من فعل الخير في الدنيا فاعتقاد أنه لا حزن في الجنة أصلاً يخالف لما استفيد من هذه الأحاديث غير أن هذا الاعتقاد لا يخرج صاحبه من الإيمان .

(٤) الكليات. الأول هو من جاهد في الله حتى جهاده حتى هداه سبيله وجعله على صراطه المستقيم، ممثلاً لشرعه القويم، لذلك كانت له منزلة أرق من منزلة غيره من العباد المؤمنين، وكون منزلة الأنبياء والمرسلين، وقد بكرمه الله

تعالى بإظهار أمر خارق للعادة تنبها بشأنه، وإظهاراً لمزجه، ومع ذلك فلم يلهى له
تصرف في العالم بإحياء وإماتة، وغير ذلك، ولا مانع من أن يفضل الله تعالى
على بعض العباد بنعمة، إكراماً لهذا الولي .

هذا هو ما جاء به الدين الإسلامي في شأن الأولياء فلم يرفعهم إلى مرتبة
الإله أو النبي، ولم ينزل بهم إلى درجة مساواتهم بالعباد، المصلة، أو المألوفين،
من الدين وهذا هو الطريق الوسط الذي يجب سلوكه .

أما طريق الإفراط الذي سلكه بعض العامة في شأن الأولياء من رفع منزلتهم
إلى درجة أنهم يقصدونهم، ويطلبون منهم قضاء مصالحهم، وشفاء مرضاهم،
والتصرف في بعض المخلوقات فهو شرك، إن كانوا يسوونهم بالإله .

وأما طريق التفریط الذي سلكه بعض المتفريطين، وهو التسوية بين الولي وبين
من فرط في دينه، فارتكب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فهو خطاً أيضاً،
من حيث أن فيه التسوية بين المحسن والمسيء، وهو مصادم لقوله تعالى في حق
الأولياء ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا غُفْرَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الذين آمنوا وكنوا
يعتقون . لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿١﴾ فالطريق الوسط في ذلك
هو أن الولي من عباد الله الذين اشتروا الآخرة على الدنيا، ولجهراً لله تعالى
وحده، وقهروا أنفسهم وخضعوا لسلطان العقل والدين، فامتثلوا الأوامر واجتنبوا
النواهي، وإن كانوا غير معصومين، هؤلاء لا شك أن لهم منزلة العليا عند الله
في الدنيا والآخرة، فلا مانع من الإكثار من زيارتهم للاحتياط، والتأسي بهم،
فاعتقاد أي الطرفين المذكورين لا يقره الدين .

(٥) جاء الدين الإسلامي مطهراً للنفوس من العقائد الفاسدة، فأرشد
الناس إلى أن مصدر النفع والضرر هو الله سبحانه وتعالى، فهو النافع للدار دون

سواء، والواجب على كل مسلم أن يعتقد ذلك، ولكن بعض العامة إذا حصل له خير أو شر عند سكنى دار، أو ملك دابة، أو اقترن بزوجة، يعتقد أن ذلك الخير أو الشر من هذه الأشياء ويعتمد في ذلك على ظاهر ما ورد عن النبي ﷺ وهو قوله: (الشؤم في الدار والمرأة والفرس) وهذا الاعتقاد خطأ، فإن أى واحد من هذه الأمور الثلاثة لا يصلح مصدراً للخير، أو شر، والحديث لا يصح أن يفهم على ذلك الوجه، وقد سلك العلماء في بيان معناه طريقين: الأول. وهو ما ارتضاه الجلال السيوطي أن هذه الأمور الثلاثة من الأسباب العادية بمعنى أن عادة الله جرت على إسداء الخير، أو إلحاق الشر، ببعض الأشخاص عند سكنى بعض الدور، أو ملك بعض الدواب، أو الاقتران ببعض النساء، فتكون هذه الأشياء أمارات على الخير أو الشر، والموجد لكل منها هو الله سبحانه وتعالى، واعتقاد أن بعض الحوادث سبب عادى لبعض الحوادث لا حظ في من قبل الشارع.

الطريق الثاني أن المراد من شؤم الدار وما ذكر معها هو ما بين في حديث آخر رواه الطبراني من حديث أسماء بنت عيسى ونعته (قالت يا رسول الله ما شؤم الدار قال ضيق مساحتها، ونحيب جيوانها، قيل فما سوء الدابة قال: منعها ظهرها وسوء خلقها، قيل فما شؤم المرأة قال: عقم رحمها وسوء خلقها) من هذا يتبين أنه إذا كان بعض العامة يعتقد أن مصدر النفع والضرر هو أحد المذكورات يكون مخالفاً لما جاء به الدين الإسلامي، أما إذا اعتقد أنها أمارات وعلامات فلا ضرر في ذلك.

(٦) اقتضت حكمة الله تعالى في تدبير نظام ملكه أن يكون في النوع الإنساني البني والفقر، وضعيف العقل وكامله، والعالم والجاهل، فإن الإنسان مدنى بطبعه يحتاج إلى الزارع والصانع والمخترع بالحرف الدينية كالحديد، والقصاب والخياط والحجام والحرف الرفيع كالصائغ والتاجر وتوجيه كل واحد إلى عمل خاص، فحب الفقر ضعيف العقل في الجرف الدينية، وحب الفقر

الكامل العقل في الحرف الشريفة، وجعل قوام الفريقين الأغنياء يتفهمون بفناهم، وينفهمونهم بحرفهم، فلم يمنح واحداً نعمته، فأعطى الفقير نعمة العقل أو العلم، وأعطى الغنى الجاهل نعمة المال، وتخصيص كل واحد من هؤلاء بعمه خاصة لمصلحة تعود على أفراد النوع .

ولو أعطى العاقل العالم المال، وحرّم الجاهل ضعيف العقل من المال، لكان ظالماً .

فالواجب على كل مسلم اعتقاد أن توزيع العلم على الوجه الذي ظهرت به في الخارج تابع للمصالح، وليس من قبيل وضع الشيء في غير محله، وقد طرأ على هذه العقيدة أن بعض العامة والملاحدين يعتقد أن صاحب العلم أو العقل أحقّ بالمال من الجاهل، وغفل عن كون العقل أو العلم، من أنواع النعم الجلية، وهذا في المعنى اعتراض على الله في فعله فلا يسوغ لمسلم أن يعتقد ذلك .

(٧) جاء في قصة المعراج أن النبي ﷺ لما أراد العروج إلى السماء نصب له معراج، فخرج عليه إلى السماء، وهو الذي اعتمده الكهروان من الكائنات في هذا الموضوع، فيجب الوقوف عنده، وقد اشتهر عند بعض العامة أن النبي لما أراد العروج صعد على صخرة بيت المقدس، وركب البراق فسال الصخرة، وارتفعت لتلحقه، فأمسكتها الملائكة، فمى طرف منها أثر قدمه الشريف، وفي الطرف الآخر أثر أصابع الملائكة عليهم السلام، فهي واقعة في الهواء قد انقطعت من كل جهة لا يمكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض سبحانه وتعالى .

وهذه أكلوبة لا يصلح لمسلم أن يعتقد بها .

وللعلماء بدع كثيرة في العقائد وغيرها تعرض لسردها كثير من العلماء في مؤلفات خصصت لذلك كالاختصاص للشاطبي، والمدخل لابن الحاج .

الشبه المتعلقة بالجهاد

والإث وتعدد الزوجات والطلاق

الجهاد في الإسلام

بسم الله نبيه سيدنا محمدا ﷺ إلى الناس كافة لإخراجهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الهداية، وتكليفهم بما يوافق الفطرة، فرأهم خاضعين لعادات مألوفة، وأخلاق موروثة، فنظر في هذه العوائد نظرة المرشد الحكيم، الرؤوف الرحيم، فما كان منها ضروريا لا يمكن لطبيعة الإنسان التخلي عنه أفهم عليه، وقطعه، وشرع له قبولا، فجعله مباحا، لا محظورا، وما كان غير ضروري ويمكن التخلي عنه، ولكن حبه تمكن في النفوس، وكانت المصلحة في تركه تدرج في تحريمه، شيئا فشيئا، حتى صار الإقلاع عنه أمرا ميسورا على النفس، كشرب الخمر، وما كان غير ضروري ولم يتمكن حبه من النفوس، إن كان في ضل مصلحة أفهم عليه، وإن كان فيه مفسدة نهي عنه دفعة واحدة، كسلب الأموال، والتعدي على الأعراض، ومن النوع الأول المحرم فإن التنازع بين الأحياء في مراض المعيشة ووسائل الحصول على المال غريزة من غرائز الحياة، وكون التلوع يؤدي إلى شدة العداوة، والاحتال بين الجماعات والأقوال، ضرورة من ضرورات الاجتماع إذ لا يمكن للنوع الإنساني التخلي عن التنازع والتقاتل والتعادي .

غير أن ذلك التقاتل والتعادي، إن كان الباعث عليه الوصول إلى شهوة فاسدة، وسلطة ظالمة، واستعداد للضحايا، كان ضرره كبيرا، وشره مستظفرا، فيه تدمير المال، وسفك الدماء، وترميل النساء، وتبني الأطفال، وتخريب الديار وتسمية الضحايا والأحقاد، لذلك حظر الدين الإسلامي هذا النوع من الجهاد .

وإن كان الباحث عليه نصرة الحق، ولإزالة المفاسد، وتحصيل المصالح، التي
تليد النوع البشري كان محمود الأثر .

فتألف النفوس بعد التباخر، وتزول الأحقاد، وتعاون الأفراد والجماعات،
وقصان الجهود والمواثيق .

هنا النوع أباحه الدين الإسلامي، ووضع له قيوماً ونظاماً لا تتحقق إباحه
إلا إذا لوحظت .

غفل بعض الناس عن هذه القواعد والنظم، التي قيد الدين الإسلامي إباحه
الجهاد بها، أو حاند وكابر، ونظر إلى تلك الغزوات الشكرية، التي حصلت من
النبي وأصحابه، وإلى ظواهر آيات القتال، فرمى الدين الإسلامي بأنه لم يتشر
بهذه السوءة في تلك المدة الوجيزة، وهي مدة الرسالة، ومدة الخلفاء الراشدين
إلا بواسطة السيف، وإكراه الناس على الدخول فيه، بل زعم أن الدين
الإسلامي يوجب على أهله قتال من عالفهم في عقيدتهم، وفتح بلادهم،
والاستيلاء عليهم .

وإن المسلمون فتحوا البلاد والقرآن بإحدى اليدين، والسيف بالأخرى،
يعرضون القرآن على المغلوب ليصدق به، فإن لم يقبله فصل السيف عنه وبين
حياته، **﴿وَسَبَّحْتَ هَذَا بَهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾** . ولو تأمل ذلك المعرض قليلاً الآيات،
التي وردت في القتال ما وسعه إلا الجزم بأن القتال الذي جاء به الإسلام . كأنه
دفاعاً عن الأنفس، والأموال، والعقيدة، فهو نصرة الحق له . إلا، وإن أبين
لك معاني الآيات التي وردت في القرآن على ضربين الإنجاء، وبذلك يتبين الزم
عظماً هذا الاعتقاد وأن مقتضى لانتشار الإسلام من سيرة تكاليفه، وكفالاته
بمصلحة الناس .

جاء في سورة الحج آية هي أول ما نزل في القتال **﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ
بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾** . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق

إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿١١﴾ يستفاد من هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين بسبب ظلم الكفار لهم، وإخراجهم من ديارهم بغير حق، ولا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله، فكان القتال من المسلمين دفعا لظلم الكفار لهم، ونعديهم عليهم، وجاء في سورة البقرة ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾. واقتلوهم حيث تقتضوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴿١٢﴾ أفادت هذه الآيات أن الله تعالى أمر المسلمين بقتال طائفة مخصوصة من الكفار، وهي التي تقاتلهم وتخرجهم من ديارهم، وتفتنهم في دينهم، بإلحاق الأذى، والظلم بمن آمن، وجعلت لهذا القتال غاية، وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حرا في دينه يدين به الله، لا خوفا من أذى يلحقه، ولا طمعا في منافع قليل يناله.

كذلك بينت الآية أن الفتنة «أى إلحاق الأذى والظلم بالمومن ومحاربة العقيدة» أشد من القتل، لأنها اعتداء على العقيدة، وذلك شر ما يكون من بنى الإنسان، كذلك نهى عن الاعتداء، وأفادت أن الله يكره المعتدين، وهم الذين يمتدون غيهم بالشكر، وإن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي أن يتجاوز به ما فعله البادى بالعدوان ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

(١) سورة الحج الآية ٣٩، ٤٠.

(٢) سورة البقرة الآيات ١٩٠ وما بعدها.

وجاء في سورة النساء ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصورا﴾^(١) فنادت هذه الآية أن للقتال سببين:

أحدهما سبيل الله وهو أن لا تكون فتنة فلا يحصل اعتداء على العقيدة التي هي حق الله وسبب للسعادة الدنيوية والأخروية .

والثاني سبيل المستضعفين الذين كانوا منسحقين بمكة، وحبل بينهم وبين الهجرة، فعذبهم قهرش وختهم، حتى نضروا إلى الله طالعين الخلاص، فهؤلاء لابد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتبليهم الحرمة فيما يحضرون .

وجاء في سورة النساء في شأن قوم من المشركين لم يحموا أن يقتلوا المسلمين فاحتلوا الفتن جانباً ﴿فَإِنْ أَحْزَلَكُمْ لَهُمْ يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله عليكم سيلاً﴾ نعى الله المسلمين عن مقاتلة هذا الفريق، بشرط أن يكون ميلهم إلى المسألة حقيقياً لا ذبذبة، فإن لم يكونوا كذلك، فقد بين حكمهم في قوله تعالى ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يهزلوكم وعلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذلوهم واقتلوهم حيث تقبضوهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾^(٢) فقد استفيد منها أن الفريق الذي لم يكن مخلصاً في مسأله للمسلمين، ولا يزداد إلا بغضا لهم وريبة في قتالهم، قد جعل الله للمسلمين عليه وأذنهم بمقاتلته حتى يؤمنوا شره .

وجاء في سورة الأنفال ﴿ولا تلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ ويستفاد منها أن القتال يستمر مع المخالفين إلى أن ينقطع أضرارهم عن

(١) سورة النساء الآية ٧٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٩١ .

المسلمين وظلمهم، وبذلك يأمنون على أنفسهم، ويكون اعتناق الدين قد عرفوا من أذى ولا طمعا في متاع، وقال تعالى في سورة الأنفال ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حبك الله هو الذى أهدك بنصرو والمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ أفادت هذه الآية أن النبی مأمور بالجروح إلى المسألة متى جنح أعداؤه لها، لأن الغرض هو تأمين الدعوة، والأمن من الفتنة، والسلام كفيل بهما، ولو كان الجاهلون إلى المسألة يريدون اتحادا، وجاء في سورة التوبة ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾ لا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهم بدوكم أول مرة أغشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ بينت هذه الآية سببا من أسباب القتال وهو نكث المهود، والعود إلى الطعن في الدين بالفتنة، وبينت للمؤمنين أن العدو هو الذى بدأ بالقتال فهو المعتدى أولا، والثابت في عهده آخر، وأما أيها المؤمنون قد أصبح لكم مجازاة من اعتدى عليكم .

جاء وقت اتفقت فيه اليهود مع المنافقين وقرش على إيذاء المسلمين، وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب، بعد أن كان بينهم وبين النبی عهد مكتوبة، فنقضوها، وأغلوا بما تلقى به تلك المهود فأمر الله المسلمين بقتالهم، وهما ما استفيد من قوله تعالى في سورة التوبة ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من قبلين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾^(١) وربما تمسك المفسرون بهذه الآية وقالوا إن القتال قد كان لأجل الوصول إلى الجزية لا لنصرة الحق، ولكننا نقول له إن معنى الآية قاتلوا أهل الكتاب الموصوفين بما ذكر في الآية من وجود ما يقتضى وجوب القتال، كالاتناء عليكم، أو حل بلادكم، أو اضطهادكم وقتكم عن دينكم، حتى تأمنوا عدوهم بإعطائكم الجزية في الحالين الذين

لنت بها أحدهما راجع إليهم والأخر راجع إليكم أما الراجع إليهم فهو أن يكون صلوة عن يد أى قسرة وسعة فلا يظلمون، ولا يرهقون، وأما الراجع إليكم فهو ضارهم: أى كسر شوكتهم وخضوعهم لسيادتكم وحكمكم بهذا تيسر الطريق إلى اعتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم واتصافكم واتخاذكم عن الظلم.

وهذه الجزية فرضها الإسلام عليهم جزاء على ما التزمه المسلمون من الدفاع عن أهل الذمة، وإعانة الجند القائم بمنع الاعتداء عليهم، ويشهد بأن الجزية فرضها الإسلام جزاء على ما ذكر ما كتبه خالد بن الوليد (لصلوبا بن نسطونا) حينما دخل الفرات وهو:

(هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وفروهم إلى عاهدتكم على الجزية والمنة فلك الذمة والمنعة، وما منعناكم فانا الجزية، وإلا فلا) ولما فتح الصحابة الشام وضعوا الجزية على أهل حمص وأخذوها منهم، ولكنهم وصل إليهم أمر أى عبيدة بحضور وقعة اليموك وترك حمص) ردوا إلى أهل حمص ما أخذوه من الجزية، وقالوا إنا أخذناها جزاء المنعة وحيث إنا خرجنا فقد أصبحنا عاجزين عما التزمنا به فوجب ردها، فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم ودعوا لهم بالنصر.

كان أمر القتال أولا قاصرا على فرس ومن بالمؤتم من يهود المدينة فلما اتخذت منهم قبائل العرب قال الله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُفَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ وقد أفادت هذه الآية أن مقتضى لقتال الكفار هو انحدامهم واتخاذهم ضد المسلمين، ووقوفهم في سبيل الدعوة، غذا ما ورد في كتاب الله تعالى متعلقا بالقتال، وكله ناطق بأن القتال لم يشرع إلا دفاعا عن الأنفس، وتأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقتها، كما بين أن النهي سوى عن الاعتداء، وأنه يجب عليه أن يسالم من سأله ويوضح هذا قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلْكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجْكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ

يحب المظلمين إنما يهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون.

والمتبع لسيرة النبي ﷺ وأصحابه والغزوات التي وقعت وما حصل فيها، يتضح له أن الحامل عليها ليس الإكراه على الدين، والحصول على الغنائم، وريتمك المعاندون بظاهر قوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى) وفهم منه أن الباعث على القتال هو حمل الناس على الإسلام وإكراههم على الدخول فيه، هو غلط ناشئ من عدم فهم الحديث على الوجه الصحيح.

فإن الحديث لم يتعرض للسبب الباعث على القتال، بل سكت عنه اعتماداً على ما علم من القرآن الكريم، من أن السبب الباعث على القتال هو الدفاع عن النفس، والمال، وتأمين الدعوة، وإنما تعرض الحديث لغايته بلبيل التعبير بلفظ (حتى) فإنها في الحديث أفادت أن ما بعدها غاية لما قبلها، ولا شك أن القتال الذي يكون للدفاع عن النفس والمال وتأمين الدعوة ينتهي بالمعاهدة، أو الدخول في الدين والحديث ذكر نوعاً منه وهو الدخول في الدين، ويمكن أن يقال في الحديث إن لفظ (الناس) عام مخصوص، فالمراد منه الوثني من غير أهل الكتب وهذا الفريق لا يقبل منه إلا الإسلام لأنه لا يتنزع للجزية.

(الميراث في الإسلام)

يزعم بعض الناس أن الطريقة التي جاء بها الإسلام لنظام التوريث غير عادلة بالنسبة للمرأة حيث جعل لها نصف ما للرجل مع أنها متساوية في محبة الله، ودرجة نسبتها إلى الأبوين، وفضلاً عن ذلك فالمرأة ضعيفة عن الكسب وموارد كسبها أقل، وحاجاتها أكثر، فالواجب أن يكون نصيبها مساوياً لنصيب الرجل إن لم يكن أنهد — يرى بعض علماء القانون من المسيحيين

نهادة على ما ذكر حرماني الأصول مع وجود الصروع، لأن ميل الميراث إلى الفروع أقوى من ميله إلى الأصول، وحاجة الفروع إلى المال أكثر.

وبحسن قبل الكلام على هذه الشبهة بأن حالة المرأة في الميراث قبل الإسلام، وحالتها بعد الإسلام حتى يتضح لك أن الإسلام رفع من شأن المرأة ولم يظلمها.

الميراث عند قدماء الرومان واليونان

كان الميراث عند هاتين الأممين يرتبط بصلاحية ذوات القيام مقام الميراث في اخروب وشئون الأسرة.

وللموت أن يختار في حياته من يفهم مقامه في الحقوق القومية وفي الرئاسة على أسرته، وفي مباشرة الحروب، سبل كان من أبنائه أو أقاربه، أو الأجناب، ولما كان هذا المسمى لا يتحقق إلا في الذكر خصوا الميراث بالذكور وحرموا الإناث.

وقبل ظهور الإسلام تغربت تلك الطريق عند الرومان واعتبروا المفتوح للميراث هو القرابة، بلا فرق بين الذكر والأنثى في الاستحقاق، ومقتضى النصيب وجعلوا الميراث أولاً للصروع، فإذا انعدم، فأولاً الأصول، فإذا انعدمت فالأخوة الأشقاء، وإذا انعدم الإخوة الأشقاء وسلمهم، فالأخوات الشقيقات وسلمن.

ومن هذا يتبين أن المرأة لم يكن لها نصيب في الميراث عند هاتين الأممين. أولاً، ولما نصيب مساو للذكر إن كانت فرعاً أو أصلاً عند متأخري

الرومان.

الميراث عند الأمم الشرقية القديمة

الميراث عند هؤلاء الأمم عبارة عن حلول الولد الذكر البكرى محل أبيه . ولو لم يكن أهلاً للقيام بشؤون الأسرة ، فإذا لم يوجد البكرى قام مقامه أرشد الذكور من الأولاد ثم الإخوة ، ثم الأعمام ، فليس للمرأة عندهم نصيب في الميراث .

الميراث عند قدماء المصريين

كانت الأرض في عهد الفراعنة مملوكة ملك رعية للحكومة ، وليس للأمة فيها إلا حق الانتفاع ، وكانت شئون الزراعة تشترك فيها الإناث مع الذكور ، ولا يختص الذكر إلا بشئون رعاية الأسرة لهذا كان الميراث عندهم يشترك فيه الذكور والإناث بالتسوية ، فلا يفضل الذكر الأنثى ، فالسبب عندهم في الميراث هو القرابة فقط .

الميراث عند اليهود

المعروف عندهم أن السبب في الميراث هو القرابة ، ولكنهم يقدمون بعض الأقارب على البعض ، يفضلونهم على بعضهم .

فإذا مات الميت عن ولد ذكر وأنثى ، اختص الذكر بالميراث ، ولا شيء للأنتى ، وإن تعددت الأولاد اذكر أولئك الولد البكرى نصيب اثنين ، ولا فرق عندهم بين أن يكون الولد من نكاح صحيح أو غير صحيح ، وإذا لم يكن للميت ولد ذكر ، وله ولد ولد كان الميراث له ، ولو كان للميت بنت من الصلب ، فإذا لم يكن له ولد فميراثه لبيته ثم لأولاد بيته .

المراث عند العرب قبل الإسلام

كان الحب المقتضى للتزويج عددهم هو القرابة مع سلاحيه الوارث للمدعى
عن الأسرة والقبيلة، ولهذا كانوا يحصون الميراث مذكور، وليس لنساء عطفًا
سواء كن بنات أو زوجات، أو أمهات حق في الميراث.

رأى بعض المسيحيين في المرات

يرى الفيلسوف بنام أحد علماء القانود أن جعل الله مفتحي الميراث هو القرابة وحدها لا يؤدي إلى الخوض المقصود من الشرعة، وهو المحافظة على الجيل الجديد، والذي يؤدي إليه هو القرنة مع الجيل وأصحابه من أدبيات والواجب. ونرى على ذلك تسوية الإناث بالذكر، وحرمان الأصول من وراثتهم الفروع. الحق إلى الفروع أقوى من الحق إلى الأصول.

الميراث في الشريعة الإسلامية

جعلت الشريعة الإسلام سبب الميثاق أحد أمر ثلاثة : فإما : وإبراج
 الصحيحة ، والولاء ، وضمت الذكر على الأنثى . وحسنه بسبب : أن
 الأولاد أو الإناث ضف نمى : أنثى من الميثاق ، فإما : وإبراج
 نصيب الزوج صحت : سبب الزوج ، فأعطت : أن : وإبراج
 الموثق على : فإما : وإبراج ، فإما : وإبراج
 ومن هذا البيان يتضح أن الخلاف في الميثاق بين الشريعة الإسلامية

ف موضوعی:

الزُّلَّةُ صَبَّ الْكُرْهُ

والثالث تسعة الإثبات بالذكر أو حرمان أو نقص نصيبين عن نصيب
الذكر، وإعطاء الأصول مع وجود الفروع، أو حرمانهم .

فالأول الرومانية فهدا والألمة اليونانية جعلها سبب الموات صلاحية الوارث
تقيام بمحور الأسرة، وحقوق الأمة، ولو كان أجنبيا، والألمة القرنية فهدا
والعرب قبل الإسلام جعلوا سبب الموات صلاحية الوارث لما ذكر مع القرابة .
وكلهم اتفقوا على حرمان الأنثى من الموات، ولقد جاء المصريين، وتأخرو
الرومان، واليهود، جعلوا سبب الموات القرابة فقط، غير أن قدماء المصريين
وتأخرو الرومان سوا بين الذكر والأنثى في الاستحقاق، وشذاب الصيب،
والعرب حرما الأنثى مع وجود الولد الذكر، أو ولد الولد الذكر، والفيلسوف يهاب
جبل السبب القرابة مع المليل والمهبة، وسوى بين الذكر والأنثى من الأولاد،
وحرما الأصول مع وجود الفروع .

لما الشريعة الإسلامية لقد جعلت سبب الموات القرابة، أو الزوجية، أو
الولاء، وحضت الذكر على الأنثى في النصيب، وأعطت الأصل مع وجود
الفروع .

ولما كان الخلاف في الموضع الثاني مطرعا على الخلاف في الموضع الأول
وهو سبب الموات، وجب أن نتكلم عليه أولا فيقول: الأهم التي أهملت القرابة
وجعلت سبب الموات صلاحية الولد للقيام بشؤون الأسرة وشؤون الممارات
والحروب، قد حدثت عن طريق الجفافة، وجررت على خلاف ما تقتضيه طبيعة
الفرق البشرية، لأن المقول أن الإنسان إنما يجهد جسمي في تحصيل المال في
حياته ونفسه ليتضع به مع أولاده، ولقائه، ليكون أولاده شيئا يتفخرون به من
بعده .

ونكنا ما نرى الإنسان يؤثر أولاده على نفسه، وليس لذلك داع إلا رابطة
القرابة التي بينه وبينهم .

فليس من الحكمة ولا من العدل أن نحرّم أولاده أو أقاربه بعد وفاته من ماله
ويضع به الأجانب .

ولذلك جاءت الشرائع السماوية ، وجرّت بعض الشرائع الوضعية ، على
مخلاف ما رأته هذه الأمم لمنايذنه لما يستحسنه العقل السليم .

وأما الأمم التي اعتبرت مجموع القرابة والصلاحية للقيام بشؤون الأسرة
والحروب ، فقد ظلمت المرأة ظلماً قاحشاً ، وجعلتها لا تنسب إلى المورث ،
وليس لها به صلة ، كما ظلمت ابن المتوفى إذا كان قاصراً ، فإنها في تلك الحالة
تقدم عليه الأخ ، أو ابن العم ، إذا كان رشيداً لصلاحيته للحروب دون الابن
القاصر ، وفضلاً عن ذلك فهو مؤد إلى اعتبار القرابة البعيدة وإهمال القرابة
القريبة ، وهذا لا يقره الشرع ولا يستحسنه العقل .

وأما الأمم التي جعلت السبب القرابة فإن كانت تجعل الزوجية أيضاً سبباً
للميراث فقد اتفقت مع الشريعة الإسلامية في ذلك ، وإن كانت لا تجعلها
سبباً فقد أغفلت رابطة من الروابط القوية ، التي جعلت كلا من الزوجين لباساً
للآخر ، ويحترق منفعته الآخر منفعة له وضرره ضرراً عائداً عليه ، حتى إنه يتصرف
في مال لآخر كما يتصرف في ماله .

وحيث كانت هذه الرابطة على هذا الوجه ، فلا يصح إغفالها وعدم جعلها
سبباً من أسباب الميراث .

وأما الذي جعل السبب القرابة مع الميل والهبة فقد خالف الطريق الذي
يجب أن يتبع في أسباب الأشياء وعلاماتها ، فإن المعروف أن الأسباب والعلامات
إنما تكون من الأمور الظاهرة التي لا تخفى ، وخاصة إذا ارتبطت بها حقوق
وكانت مزاراً لمناقشات ومنازعات ، كالميراث ، والميل والهبة من الأمور الخفية ،
لأنها أمر باطن فلا يصح ارتباط الميراث بها .

ومع ذلك فقد تقدم^(١) في بعض الأحيان بين الأب وابنه كما تشهد بذلك الحوادث التي تقع كثيرا .

لهذا لا يصح التعهّل على الهبة، والواجب أن يكون السبب هو القرابة لأنها يمكن الوقوف عليها .

أما الشريعة الإسلامية فقد جعلت للميراث أسبابا ثلاثة، إذا تحقق واحد منها وانتفى المانع استحق الوارث من المورث نصيبه، ولاحظت في ذلك ما بين المورث والوارث من الروابط، فرأت أن بين الشخص وفروعه، وأصوله، وحواشيبه وبين الزوج وزوجه، وبين السيد ومعتوقه، صلة واتلافا، وتعاون ورفقا، واختلاطا في شئون كثيرة، واهتماما بمصالح بعضهم، على وجه أقوى وأكمل مما بينهم وبين الأجانب، فلم تهمل هذه الرابطة، بل اعتدتها وجعلتها سببا للميراث، غير أن هذه الشئون لم تكن بمنزلة واحدة في هذه الأصناف الثلاثة .

فالرابطة بين الألفأوب بمقتضى أصل الحلقة فكانت أقوى من غيرها، والرابطة بين الزوجين بمقتضى عقد النكاح الذي كان يصنع الزوجين، إلا أنها تفوت بسبب النسل الذي يتولد بينهما ويتسبب إلى كل منهما، فكانت أقوى من الرابطة بين السيد ومعتوقه .

لهذا جعلت الأبن أكثر من نصيب الزوج إذا اجتمعا، ونصيب البنت أكثر من نصيب الزوجة عند الاجتماع، كما أنها جعلت إرث السيد من «معتوقه إذا اندمجت أصعاعب الفروض والعصيات النسيبة لذلك المحوق .

ومن ذلك يتضح أن ما حرت عليه الشريعة الإسلامية في ميراث الميراث جاء موافقا لما استحسنه العقول السليمة، وتقتضيه وجوه الارتباط بين الوارث والمورث .

أما الموضع الثالث فيحصر في القطعين: الأول حالة الأنثى مع أخيها فذكر
وجنابة حالة الأصول مع الفروع .

أما الأولى فيحصر الأعم جرى فيها على حرمان الأنثى من الموات، وبعض
جرى على تسويتها بالذكر في الموات .

والشرعة الإسلامية جرت على أن لها نصف ما للذكر .

وإذا قارنت بين هذه الطرق الثلاثة اتضح لك أن الشرعة الإسلامية
سلكت الطريقة المثل: طريقة العدل والإنصاف فلم يفسد فيها ظلم للذكر أو
الأنثى .

وبما ذلك : أن الأعم التي حرمت الأنثى من الموات جعلتها كالأجنبية من
المورث، مع كونها مساهمة للذكر في الانتساب إلى المورث، ودرجة القرابة، ولا
ذنب لها إلا أنها خلقت أنثى، وهذا منافي للمعادلة بل هو عين الظلم .

وأما الأعم التي جعلت الأنثى مثل الذكر في الموات وروت الإسلام بأنه ظلم
الأنثى حيث لم يسوها بالرجل، فقد ظلمت الرجل وحابت الأنثى كتماناً، فإنما
إذا فرضنا أن المورث ترك ألفاً من الجنيهات، وخلف ذكراً وأنثى، ونسب ذلك
المقتدر بينهما نصفين، وتزوج الرجل، وتزوجت الأنثى، فالمطلوب من الرجل في
تلك الحالة مهر امرأته ونفقته، ونفقة أولاده، ونفقة نفسه، أما الأنثى فنفقته
ونفقة أولادها على زوجها، ويحتد إن لم ينفذ مال ذلك الرجل فلا لكل من أن
ينفقر، في حين أن مال الأنثى لم ينفقر، فكان نصيب الرجل موزعاً على
زوجه وولده دون نصيب الأنثى التي نفقتها على زوجها، ولو كانت غنية،
فالتسوية إذاً بينهما في الموات ظلم للرجل، بل ربما يقال حيث كان حال الرجل
وحال الأنثى كما ذكر فالاتى حرمان الأنثى .

ولكن الشرعة الإسلامية لاحظت أمراً آخر هو أن المرأة قد لا يكون لها
زوج - بمفهوم بالإتفاق عليها، فيجب أن يكون لها مال احتياطى، تنضج به عند
الحاجة، ويمكن في هذا أن يكون نصف ما يأخذه الرجل .

أما ميث الأصول مع وجود الفروع ، فقد جرى بعض الناس على حرمانهم
 مجعاً في ذلك بأن حاجة الفروع إلى المال أشد ، والميل إليهم أكثر ، فهم أحق
 بالمال من الأصول ، أما الشريعة الإسلامية فقد جعلت لهم نصيباً كمثل من
 نصيب الفروع كما هو ميث في كتب الميراث ، وإذا قارنا بين ما جرت عليه
 الشريعة الإسلامية وما جرى عليه غيرها نرى أن الشريعة الإسلامية قد حافظت
 على الرابطة التي بين المورث وأصوله ، ورزقت عليها ما يناسبها من الثمرات ، فهي
 منها الميراث ، كما أنها لاحظت أن حاجة الفروع إلى المال أشد ، فلم تسو بينهم
 بين الأصول في المقدار المستحق ، وما استند إليه بعض الناس من كون حصة
 الفرع أقل ، وشدة احتياجه إلى المال فإنه لا يتجح حرمان الأصول ، وإنما يتج
 عدم مساواتهم للفروع في مقدار النصيب ، وقد جرت الشريعة الإسلامية على
 ذلك ومن هنا يتبين أن الشريعة الإسلامية جرت في هاتين النقطتين على طريق
 وسط لا إفراط فيه ولا تفريط .

الفقه المتعلقة بمسألة الزوجات والطلاق

شاهد بعض الناس معاملة من المسلمين المتزوجين بأكثر من واحدة لنسائهم
 فرأى من الرجال إجحافاً ، وسوا في المعاملة تحت تأثير سلطان الشهوة ،
 والميل ، وإجحافاً لواجب الزوجية ، فقد رأى من الرجال من يميل إلى إحدى نسائه
 فيقبل عليها ، ويغض الأخرى لمعرض عنها ، ومنهم من يوسع في الإنفاق على
 بعض الزوجات دون بعض ، وقد تصل الفروسة إلى حد الإسراف في حين أن
 الأخرى لا تصل منه على ما يستحقها إلا بمشقة ، أو بواسطة رفيع أمرها إلى
 الحاكم ، وقد مضوا بعد ذلك .

ومن الرجال من يسوى بين نسائه في القسم والميل ، ومنهم من يقدم على
 التزوج بأربع في حين أنه لا يقدر على الإنفاق على واحدة ، ومن جمع أموال

المتزوجين بأكثر من واحدة يشاهد مضار كثيرة تلحق الزوجة من جراء ذلك
المحدد .

كذلك يشاهد تهاضي وشاغل وشقايع، وسعى بالهمة بين الزوجات في
حق بعضهن، وأنقطع من هذا ما يشاهد من أن كل زوجة تزرع في روح ولدها
كرهته لإخوته، وأخواته من غيرها، بل ربما دفنته إلى كرفة أمه، وشجعة عدا
عرب في اليهود وضاد كبير .

هذا الفريق الذي شاهد ما يقع من الرجال المتزوجين بأكثر من واحدة ومن
الزوجات التي تكون تحت رجل واحد، ومن أولاد هؤلاء الزوجات وصم الإسلام
بأنه دين لا يصلح لحفظ نظام الأفراد والجماعات، لأنه هو الذي أباح تعدد
الزوجات الذي أدى إلى معاسد كثيرة قد سمعت شيئا منها .

وكذلك أباح الإسلام دين غيره من الأديان للرجل أن يطلق زوجته وهي في
عمر دارها لا تعلم شيئا عن ذلك الطلاق، ولم تنش في معاملتها زوجها، ولم
تفصر في تدبير منزلها، ورثب على ذلك الطلاق انتطاع الملاق بين الزوجين،
ول هذا من الظلم للمرأة ما لا يخفى .

ولقد كان لهذه الشبه تأثير سيء في بعض النفوس، حتى اعتقد أن الإسلام
أباحه لتعدد الزوجات، وإلحاق الطلاق قد أباح للرجل أن يعمل للمرة تلك
المعاملة القاسية، التي لا يقرها شرع ولا يستحسنها عقل، فاستباح نفسه أن
يصم الإسلام بما هو بريء منه .

وكان الواجب على ذلك القائل الذي جعل عمل الأفراد حجة على الدين،
أن يبحث أولا عن حجة للمرة قبل الإسلام، وسألتها بعد الإسلام، وما جاء به
الإسلام من تعدد الزوجات، ولحاجة الطلاق، حتى إذا ما حكم بكون حكمه
صحيحا مسلما، فإنه لم يقل أحد إن الواحد الأديان يدل على عمل الأفراد،
ولأن أذكر لك صورة تعرف منها حال المرأة قبل الإسلام، وما لما بعد غيره

الإسلام، ومنى أباح الإسلام للرجل أن يعدد الزوجات، وما أوجبه عليه في هذه الحفلة، ومنى أباح له الطلاق، وبعد ذلك أترك لك الحكم في أن أى الأديان أعطى للمرأة حظها من الحقوق والمزايا .

حال المرأة قبل الإسلام وحالها بعد الإسلام

طرق باب الكتابة في هذا الموضوع كثير من أفاضل الكتاب — ومن عني به ووضع كتاباً خاصاً السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار، فقال لقد كان جميع نساء البشر مرهقات بظلم الرجال، في البدن والحضر، لا فرق فيه بين الأميين والمتعلمين، ولا بين الوثنيين والكتابين، كانت المرأة تشتري وتباع، كالبيمة والمتاع، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تورث ولا ترث، وكانت تمكك ولا تمكك، وكان أكثر الذين يملكونها يجبرون عليها التصرف فيما تمككه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بما لها من دونها، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها إنساناً لها نفس وروح خالدة كالرجل، أم لا، ولا كونها تلقن الدين، وتصح منها العبادة أم لا، ولما كونها تدخل الجنة أو الملكوت أم لا، فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس، لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكسب منها كالبعير والكلب العقور لمنهما من الضحك، والكلام، لأنها أحولة الشيطان، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق في قتل ابنته، بل في وأدائها (دفنها حية) أيضاً، وكان منهم من يرى أن لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية .

وكان أهم إنصاف للمرأة منحها إياه الشعب الفرنسي في أوروبا بعد ميلاد محمد ﷺ بخمس عشرة سنة أن قرروا بعد خلاف وجدال أن المرأة إنسان إلا أنها خلقت لخدمة الرجل هـ .

هذا حال المرأة قبل الإسلام ولما بعث الله تعالى نبيه محمدا ﷺ إلى الناس كافة، لإرشادهم إلى طرق الخير والسعادة وإصلاح حالهم، كان للنساء حظ وافر من هذا الإصلاح لم يسبق الإسلام به دين .

جاء الإسلام بنادى بأن النساء والرجال من جنس واحد، لا فوارق للإنسانية إلا بها، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) وقال ﷺ (إِنَّمَا النِّسَاءُ شَفَائِقُ الرِّجَالِ) .

كذلك اعتبر الإيمان من النساء وزن عبه جزاءه كالرجال، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾^(٢) الآية وقال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣)

كذلك جعل المرأة مثل الرجل في الشعائر الدينية قال تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٤)

كذلك أمر الله نبيه ﷺ بأن يباح للنساء إذا رغبن مبايعته قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُمَاجِعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَشْرَكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) سورة المتحة الآية ١٠ .

(٣) سورة النور الآية ٧٢ .

(٤) سورة النور الآية ٧١ .

ولا يبرق ولا يزلع ولا يقطن أولادهم ولا يأتين بهتان يضره بين أهله
وأرجله ولا يهتك في معروف فإيهن واستعطرهن الله إن الله طهور
رحيم (١) فساهن بالرجال في ذلك، فقد روى عبادة بن الصامت قال كنا
مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال (تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا
تسرقوا ولا تزنيوا ولا تقتلوا أولادكم) (٢) الحديث .

كذلك جاء الإسلام مطلاً ما كان عليه العرب والمعجم من حرمان النساء
من الميراث، وقصوه على الرجال، قال تعالى ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ (٣) .

كذلك فرض على الرجل إذا أراد الاختران بامرأة أن يلتزم لها بمهر، لا تبرأ
ذمته منه إلا بدفعه إليها، أو إبرائها له منه، كما أنه أعطى المرأة حق التصرف في
ملكها، من بيع وشراء، ورهن وهبة، وغير ذلك، واعتبر عقودها صحيحة،
وجرى بعض الأئمة على أن المرأة متى كانت عاقلة بالغة كان لها الحق في أن
تزوج نفسها بكراً كانت أو ثيباً .

كذلك سوى بين المرأة والرجل في جميع الحقوق، ما عدا أمراً واحداً قال
تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وتلك
الدرجة هي درجة الرئاسة والقيام على المصالح، وقد بينت في قوله تعالى
﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ بما فضل الله بعضهم على بعضنهما **تفقوا من
أموالهم** .

هذا شأن المرأة وحالها بعد الإسلام، ولا شك أنك إذا قارنت بين الحاليين

(١) سورة الممتحنة الآية ١٢ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان .

(٣) سورة النساء الآية ٧ .

قبل الإسلام ونعده، حُرمت بأن الإسلام رفع من شأن المرأة، وأعصمها من الخنوق ولزايها ما لم يسمح به أى دين من الأديان .

تعدد الزوجات

يرغم كثير من الناس أن الدين الإسلامى هو الذى أباح تعدد الزوجات .
وأن ذلك التعدد لم يكن محرّفاً قبله .

ولو نظر هؤلاء نظرة إنصاف ما ساء لهم أن يقولوا : إن الإسلام هو الذى أباح تعدد الزوجات دون غيره من الأديان .

فإن التعدد كان موجوداً قبل الإسلام في بعض الشرائع السماوية، واشترحه الوضعية، فقد ذكر الأستاذ محمد رشيد رضا في كتابه : (نقاء للحس اللطيف) أن قدماء اليونان كانوا يعددون الزوجات بعمر حساب، وأنه كان فاشياً في أوروبا عند الغول في زمن سيزار، وكان معروفاً عند الجرمان في زمن ناسيت، وأنه فشا في الرومان فضلاً لا قانوناً، حتى حظره جوستينان في قوانينه ولكنه ظل فاشياً بالفصل، وأباحه بعض البابوات لبعض الملوك بعد الإسلام (كشعر كان) ملك فرنسا الذى كان معاصراً للخلفيتين : المهدي والرشيد من العباسيين، وقد اختلفت عادات الناس فيه بين الأمم في جميع القارات، والجزائر الجنوبية، وما شذ عن ذلك إلا أهل أوروبا في القرون الأخيرة، ولكنهم استبدلوا تعدد الزوجات الشرعيات السفاح واتخاذ الأعدان، ثم ذكر أنه كان فاشياً عند اليهود في ملوكهم وأنبيائهم، وناهيك بنداود وسليمان عليهما السلام .

وبعد الوقوف على ما كان عند هذه الأمم من إتاحة تعدد الزوجات لا يصح القول بأن الإسلام هو الذى أباح التعدد دون غيره من الشرائع، والواجب على المنصف أن يتأثر بين ما جاء به الإسلام وما كانت عليه الأمم السابقة في شأن

التعدد، وقد علمت أن التعدد في الأمم السابقة كان فاشيا بدون تفهيد بعدد،
وبحال دون حال .

التعدد في الإسلام

لم تحظر الشريعة الإسلامية تعدد الزوجات على الإطلاق، لأن الحاجة قد
تدعو إليه، كما إذا تزوج الرجل بامرأة فظهر أنها عاقرة، فإنه يحتاج إلى الاقتران
بأخرى لأجل النسل، وقد يكون من مدسحة تلك العاقر أن تبقي مع زوجها
وإن تزوج عليها، لأنها بلغت سن اليأس فلا يرغب فيها، أو كانت غصية لا
تجد من يتفق عليها، وقد يكون مراح الرجل يدفعه إلى كثرة الإفشاء، وإراحها
بالمكس، وقد يمتد حميها زمانا لا يصبر الرجل على ترك الجماع، وقد يكثر
عدد النساء كثرة فاحشة يقل عدد الرجال، فإن المصلحة حينئذ في التعدد
حتى لا تضطر المرأة الفقيرة إلى تعرض نفسها للفاحشة، للحصول على
حاجياتها، وحتى يكثر النسل وبه تقوى شوكة الأمة .

ولكن لما كانت الأسباب التي تبيح تعدد الزوجات ضرورية والضرورة نادر
بقدرها، وكان الرجال يتدفقون إليه غالبا لإرضاء الشهوة، لا عملا بالمصلحة
أباحه الإسلام بقود تكفل مصلحة المرأة، وتدفع عنها الظلم، والمعروف أن
الشيء كلما تعددت قهوده قل وقوعه، فحقيده الشارع تعدد الزوجات بالقهود
التي ستذكر لإرشاد إلى أن الأصل هو الاقتصار على واحدة، وإن التعدد
رخصة .

أباح الإسلام التعدد بشرط الوقوف عند عدد محدود، وهو أربع، وبشرط
القعدة على الإنفاق عليهن، وبشرط العدل بينهما، والتسوية في القسم، وأما ما
يشاهد من ظلم الرجال للنساء وما يتبع ذلك من المفاسد، فهو ناشئ من عدم
حكم بأدب الإسلام وتعاليمه، في معاملة النساء ولولادهن .

ومن هنا يتبين أن الإسلام لم يظلم المرأة بل رفع من شأنها وأعطاهما من الحقوق ما يحفظ كيانها .

الطلاق

كثير من خصوم الإسلام ومقلديهم يعدون من مساوئ الشريعة الإسلامية مشروعية الطلاق ، وانفراد الرجل به ، ويؤمنون أن إباحة الطلاق على هذا الوجه ألحقت بالمرأة ظلمًا ، وجعلتها كالسلمة يملكها الرجل يتفجع بها في شؤونه ، فإذا ما استغنى عنها باعها ، ويكفيك في رد هذا الزعم أن تعلم ما كانت عليه الأمم المتقدمة على الإسلام في الطلاق ، وما جاء به الإسلام وتفاوت بينهما .

الطلاق قبل الإسلام

الطلاق مباح في شريعة اليهود بعذر وبغير عذر ، كما إذا رغب الرجل التزوج بامرأة أجل من امرأته ، ولكنه لا يكون مستحسنًا إلا بعذر ، والأعذار عندهم فسان : عيوب الخلق وعيوب الأخلاق ، أما عيوب الخلق فذكروا منها العمش والحول ، والبخر ، والحذب ، والعرج ، والعقم ، وأما عيوب الأخلاق فذكروا منها الوقاحة ، والوساعة ، والعداء ، والإسراف ، والتأنق في المطاعم ، والزنا ، وكفى في ثبوته مجرد الإشاعة .

أما النصراني فقد أقروا من هذه الأسباب الزنا فقط ، وجرى بعض الأمم الأفريقية على أنه متى اقترف أحد الزوجين هذه الفاحشة ، كان للآخر أن يرفع الأمر للمحكمة ليفصل القاضي بينهما ، وتوسع بعض الأمم الأفريقية في أسباب الطلاق مع اشتراط رفع الأمر للقاضي وحكمه ، بأن هذا السبب يبيح الطلاق ، وقد وصل التوسع في الأسباب إلى حد أن بعض النسوة طلبن الطلاق لأن

زوجها كان بغير لحيته عند ما تزوج بها، ثم أطلق لحيته فأجابها القاضي وحكم بالطلاق، كذلك رافقت امرأة الطلاق لأن زوجها لا يراعى التكاليف الشرعية عندهم في التزام ملبس، فافس ثلثه، وملبس خاص للمسهرة، فأجبت القاضي إلى طلبها، وهكذا من الأمور التي مبالغ كونها أسبابا عادات الناس وميولهم.

كذلك كان الطلاق معروفا عند العرب، وكان يلحق النساء منه ظلم كبير فإنه لم يكن مقبلا بعدد محجود، شأن الرجل يوقع الطلاق وقبيل انقضاء العدة واجتمع المرأة ثم يستأنف طلاقها ثم يعود إلى ذلك مرة بعد أخرى، فكانت المرأة أسيرة في يد الرجل، وكان الرجل عند الطلاق يأخذ ما دفعه إلى المرأة من المهر هنا حال الطلاق قبل الإسلام على الإجماع.

الطلاق في الإسلام

قال تعالى غاطبها الأزواج ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسِي أَن تَكُونُوا شَيْئًا وَمَا يَمْلِكُ اللَّهُ فِيهِ شَيْئًا كَثِيرًا﴾ أي إن كرهتموهن فاصبروا على معاشرتهن ولا تمارعوا إلى الفراق، فإنه يرجى حصول خير كثير إذا استمرت المعاشرة كوجود ولد صالح، ينفع أمه وأمه، وقال تعالى ﴿فَإِنْ أَطَعْتُم بَلَا تَعْثَبُوا عَلَيْهِنَ مَبِيلًا﴾ أي إن قامت الزوجة بواجبها وعازلت الزوج في تنظيم شؤون الزوجية فلا تعذبوا الفراق، ولا تطلقوهن، وقال ﴿أَهْبِضْ الْحِلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقِ﴾ وقال ﴿أَيُّهَا امْرَأَةُ سَأَلْتُ زَوْجَهَا طَلَقَهَا مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَأَةَ الْجَنَّةِ﴾ ومن هذا يفهم أن الأصل في الطلاق الحظر والحرم، وأن الحظر في الصبر على ما يكرهه الرجل من المرأة، وقد ذكر ابن عابد في حاشيته على الدر المختار في فقه الحنفية أن الأصل في الطلاق الحظر، والأمانة للحاجة إلى الخلاص، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص، بل يكون حمقا وسفاهة رأي، ومجرد كثرة النعمة، وإخلاص الإلهاء بها وبأهلها وبأولادها، ولهذا قالوا إن سببه

الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق، وعروض البغضاء، الموجبة عدم إقامه حدود الله تعالى، فحيث تميزت عن الحاجة الميعة له شرعا ينشأ على أصله من النظر، ولهذا قال تعالى ﴿لَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْهَرُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أى لا تطلبوا الفراق .

فالطلاق في الإسلام بدون سبب صحيح يدعو إلى الخلاص حرام، لما فيه من قطع الزوجة التي هي من النعم العظمى، ولما فيه من ضياع الأولاد، أما إذا وجد التباين، والتقاطع بين الزوجين، ولم يمكن الصلح بينهما، وغلب على الظن عدم إقامة حدود الله في الزوجية فالدواء الأخير هو الفراق، فيكون حينئذ يباح، ولكن الشارع جعل أمر الطلاق بيد الرجل لأنه أحرم على بقاء الزوجية التي أنفق في سبيلها من المال ما يحتاج إلى إنفاق مثله أو أكثر منه إذا طلق، أو أراد الاحتراز بأخرى، ولأنه أكمل عقلا، وأصبر على المكروه. فلا يسارع إلى الطلاق بمجرد الغضب، أو حشوت ما يكرهه، بخلاف المرأة فإنها أسرع غضبا وأقل احتمالا، وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته، مثل ما على الرجل، فهو جعل أمر الطلاق بيدها لتسارع إلى تطليق نفسها، لادنى سبب. ومع ذلك فقد جعل لما الشارع حق طلب الفسخ إذا امتنع عن الإنفاق أو عجز أو غاب غيبة منقطعة، أو كان به علة تمنعه من تأدية وظيفة الزوجية، كذلك أباح للزوج أن يجعل للمرأة حق التطليق، ومع كل هذا الإصلاح والحفاظ على حقوق المرأة فقد أوجب الشارع على الزوج إذا طلق أن يدفع مؤخر صداقها إليها، وأن يقوم بالإنفاق عليها مدة العدة ولو طالبت، وبإسكانها وكسوتها كما طلب منه أن يفرق الطلاق، وأن يقف عند حد محذور لا يتعداه، وهو الثلاث خشية أن تكون المرأة المعوية في يد الرجل .

فانظر عراك الله إلى ما جاءت به الشريعة الإسلامية في شأن الطلاق، وما كان في الشرائع الأخرى سواء كانت مساوية أو وضعية، وقارن بينهما يتضح لك أن دين الإسلام هو دين الفطرة، وهو الذي حافظ على حقوق كل من الرجال والنساء .

الملائكة

الكلام على الملائكة ينحصر في أربعة مواضع:

الأول: وجودها .

الثاني: مفهومها .

الثالث: عصمتها .

الرابع: التفاضل بينها وبين الأنبياء .

وجودها

ذكر علماء الكلام أن وجود الملائكة مما انعقد عليه الإجماع^(١) ودل عليه كتاب الله تعالى، وكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنه لا سبيل إلى إثبات وجودها بالدليل العقلي، ويحتد بالدليل الإجماع والكتب المقدسة، والأحاديث المتقولة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمنكر وجود الملائكة كافر .

المفهوم

ذكر الأئمة في تفسيره (روح المعاني) عند الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَرَأَوْا لَنَا لَلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ إن الناس بعد اتفاهم على وجود الملائكة لتحلفوا في بيان حقيقتها، فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام نورانية

(١) راجع في هذا الموضوع شرح المؤلف للسيد الشريف ج ٨ ص ٢٨١ وشرح المقاصد للسيد ج ٢ ص ٤٠ وما بعدها .

وقيل هوالة، قادرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى .
وقالت النصارى : إنها الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها الصافية الخيرة، والحبيبة
عندهم شياطين .

وقال عبدة الأوثان : إنها هذه الكواكب، السعيد منها ملائكة الرحمة، والحبيبة
ملائكة العذاب .

والفلاسفة يقولون : إنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة،
يصرح بعضهم بأنها العقول العشرة والنفوس الفلكية التي تحرك الأفعلاك ا هـ .

ولم أطلع على مستند لأى فرقة من هذه الفرق في تعيين المعنى الذى اختارته
دون غيره، غير ما ورد في كتاب الله تعالى في وصفهم بأنهم عباد مكرمون،
وأنهم يفعلون ما يؤمرون، وأنهم أمروا بالسجود لآدم فسجدوا، وما ورد في السنة
من أحوال جليل مع النبي ﷺ في تبليغ الوحى وظهوره في صورة دحية
الكلبي، يرجع ما ذهب إليه أكثر المسلمين من أنها أجسام قادرة على التشكل
بإذن الله .

والمعروف بين المسلمين أنها تشكل بأشكال حسنة شأنها الطاعة وسكنها
السماوات غالبا، ومنهم من يسكن الأرض، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة، فمن
وصفهم بذكورة فسق، ومن وصفهم بأنوثة كفر، لمعارضته قوله تعالى
﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثا لا شهدوا خلقهم مكره﴾
شهادتهم وسألون ﴿ .

وحيث أجمعت الأمة على وجودها، فيجب الإيمان بهم إجمالا فيمن علم على
طريق الإجمال، وتفصيلا فيمن علم منهم تفصيلا بالشخص، كجبهل

وميكايل وإسرائيل وهزرايل^(١)، ومنكر ونكير، ورضوان خازن الجنة، وملاك خازن النار، أو بالنوع كحملة الرمش والحفظة، وهم ملائكة موكلون بحفظ البشر، وليكنة وهم ملائكة يكتبون على المكلف ما صدر منه من قول وفعل واحتقاد، لا يفارقونهم إلا في حالة الجماع والفصل وقضاء الحاجة .

عصمة الملائكة

اختلف المسلمون في عصمة^(٢) الملائكة، فذهب فريق إلى أنهم معصومون يستعمل صدور الذنوب منهم كبيرة أم صغيرة واستلوا على ذلك بالقرآن الكريم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْخَرُونَ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى أن شأنهم وعادتهم وجلبتهم التى فطروا عليها هى الخضوع والعبادة وقال تعالى فى حقهم ﴿يَلْعَنُ عِبَادَكَ الْمُكْرِمُونَ لَا يَسْخَرُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يُعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ قال تعالى ﴿يَسْجُدُونَ لِلَّهِ وَالنَّارِ لَا يَعْصُونَ﴾ .

فهذه الآيات تفيد أن المعصية لا تحصل من الملائكة، فهم معصومون. وذهب الفريق الآخر إلى نفي العصمة عنهم واستند فى ذلك إلى ما دل عليه الكتاب الكريم فى عدة آيات .

الأولى قوله تعالى حكاية عن الملائكة عند أمرهم بالسجود لآدم ﴿الْجَنُّ لَهَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ نَسُوا آلَ اللَّهِ لَئِنْ أَرَادَ أَنْ يُنَادِيَهُمْ لَيَسْمَعْنَ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْعُصْيانِ﴾

(١) الأسماء الواردة فى أسماء الملائكة ليس منها اسم (هزرايل) إنما الواردة اسم (ملك الموت) بهذا القلب الميم كما قال تعالى ﴿قُلْ يَوَاقُظُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ الَّذِينَ وَكَّلَ بِكُمْ﴾ الآية ١١ من سورة السجدة، والأسماء المعروفة من جبرائيل وميكايل وإسرائيل، ومنكر ونكير، وملاك ورضوان .. الخ راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٠ وما بعدها.

(٢) راجع شرح المؤلف للسيد الشريف ج ٨ ص ٢٨١ .

الأول اضحابهم لمن صرحه الله خليفة في الأرض بذكر عباده، من أنه
مفسد في الأرض سفاك للدماء :

الثاني تزكيتهم أنفسهم واختيارهم بأهم يسبحون الله تعالى وهزهونه .

الثالث أن وصفهم للخليفة بأنه مفسد في الأرض، سفاك للدماء من تعذر
 الرجم بالظن، فإنه لم يكن قد وجد حتى يقع منه الإفساد في الأرض، وسفك
 الدماء، فمضاهيهم وتباعد الظن في هذا لا يجوز، قال تعالى ﴿وَلَا يَتَّبِعْكَ
لِس لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ .

الرابع اعتراضهم على الله تعالى في فعله .

والجواب عن استدلالهم بهذه الآية أن الغيبة وصف الغيب بالقبح إهانة له
 والتزكية وصف النفس بالجسيل تعظيماً وتجيلاً، ولم يكن غرض الملائكة إهانة
 الخليفة، ولا تزكية أنفسهم، بل غرضهم السؤال عن الحكمة من ذلك
 التخصيص مع وجود هذا التفاوت، وليس ذكركم لهذه الأوصاف من قبيل
 الرجم بالظن بل علموها بواسطة الأطلاع على اللوح المحفوظ، وسعد قد انتهى
 كون ذلك القول يراد به الاعتراض على فعل الله تعالى .

الآية الثانية قوله تعالى ﴿وَإِذْ لَقْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ والاستدلال بهذه الآية على عدم
 عصمة الملائكة من جهة أن الأمر بالسجود كان للملائكة، وقد تناول إبليس
 بدليل الاستثناء، فامتنع إبليس وأبى واستكبر، وقال أنا خير منه خلقتني من
 نار، وعاتبه الله تعالى فقال ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ والجواب
 تسليم أن إبليس قد عصى، ولكن منعه كونه من الملائكة، بل كان من الجن وقد
 جاء في آية أخرى ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَدَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وممول الملائكة له في
 الآية على سبيل التغليب، لكونه جنياً واحداً مغموراً بينهم، وهذا هو التحقيق
 الذي يجب التعويل عليه .

الآية الثالثة المحللة (بهاروت وماروت) المتضمنة لإنهما كانا يعلمان الناس

السحر .

والمسلمون بقصة هاروت وماروت التي وردت في القرآن استدلوا إلى ما قاله
بعض الكتّاب في هذا الموضوع إنهما ملكان نزلتا لتعليم الناس السحر، وانقضا
بامرأة ففسخت، وهى نجم الزهر، والملكان يذهبان في الدنيا على اقتراف هذه
الجرمة .

فما وقع من هذين الملكين يدل على عدم عصمة الملائكة، والجواب عن
ذلك أن ما نسب إلى الملكين من العمل بالسحر والافتتان بالمرأة كلام دس
الملحدون، وليس له أصل، وكل ما في الأمر أن السحرة في ذلك العصر كثروا
وصاروا يأتون بأفعال غريبة في العادة، ويدعون النبوة فأنزل الله الملكين لأجل أن
يعلموا الناس السحر، حتى يعرفوا أن ما تأتي به السحرة ليس من قبيل الأمر
الحارق للعادة، حتى تصح دعواهم النبوة، وإنما هو من الأمور التي تدخل تحت
قدرة البشر فلا يكون دليلاً على حجة دعوى النبوة، وكان الملكان يقولان للناس
﴿إنما نحن فتنة﴾ أى نزلنا لاختبار الناس وابتلائهم، والقرآن لا يغطي أكثر من
ذلك، فوجب الاختصار عليه وطرح ما عداه حيث لم يثبت من طريق
صحيح .

التفاضل بين الأنبياء والملائكة

اختلف علماء الكلام في كون الملائكة أفضل من الأنبياء، فذهب جمهور
أهل السنة والشيعة إلى أن الأنبياء أفضل من الملائكة مطلقاً، وذهب الحكماء
والمحررة وقاضى أبو بكر الباقلاني وأبو عبد الله الحلي من أهل السنة، إلى أن
الملائكة العلية أفضل من الأنبياء، أما الملائكة السفلية الذين يسكنون الأرض

فالأنبياء أفضل منهم بالإجماع، وقد نقل بعض الكتّاب^(١) هنا أن هذا الخلاف مستحقّ من نبينا ﷺ، فإنه أفضل الخلق على الإطلاق بالإجماع، ولا عيب بما يجرى عليه الزمخشري من تفضيل جهيل على النبي ﷺ لأنه غارق للإجماع. استعد القائل بأن الأنبياء أفضل من الملائكة إلى عدة أدلة:

الأول أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم الذي دل عليه قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإن المعروف أن الذي يؤمر بالسجود لغيره يكون أدنى من ذلك الغير، فتكون الملائكة أدنى من آدم، فيكون أفضل وغيره من الأنبياء كذلك إذ لا قائل بالفصل.

الثاني قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ الآية، فإنها تدل على أن آدم علم الأسماء والملائكة لم تعلمها، والعالم أفضل من غيره، قال تعالى ﴿لَلَّهِ هَلْ يَسْعَى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث أن طاعة البشر أشق من طاعة الملك.

لأن طاعة البشر لا تتحقق إلا بعد أن يجاهد الإنسان نفسه، وهواه، ويغلب عليها، وعلى الشيطان، وعلى جميع الشواغل الدنيوية، بخلاف طاعة الملك فإنه مفطور عليها، ولا شك أن العبادة مع هذه العوائق أدخل في الإخلاص، وأشق فتكون أفضل لقوله ﷺ (أفضل الأعمال أحزها) أي أشقها، فيكون صاحبها أكثر ثوابا عليها.

الرابع قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(١) راجع في هذا الموضوع شرح المؤلف للسيد فخر الدين ج ٨ ص ٢٨٢ وشرح للقاسم للسيد ج ٢ ص ١٤٦ وما بعدها.

قال أصحاب هذا الرأي إن الآل في قوله ﴿آل إبراهيم وآل عمران﴾ خاص بالأنبياء، وحيث تفيد الآية أن الأنبياء أفضل العالمين، والملائكة من العالمين فتكون الأنبياء أفضل من الملائكة.

واعلم أن كل دليل من هذه الأدلة المذكورة ليس قطعيا في المدعى كما يظهر بالتأمل، وغاية ما يقال في ذلك إن شا هذه المسألة يكتفى فيها بالظن للمعبر عن القطع واليمين.

واحج الفريق القائل بتفضيل الملائكة العلوية على الأنبياء^(١) بأدلة:

فيها قوله تعالى ﴿لن يستكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون﴾ فإن مثل هذا السياق يقتضي تفضيل الملائكة المقربين على عيسى، لأن البلاغة تقتضي الترقى من الأدنى إلى الأعلى. والجواب عن ذلك تسليم أن في الآية الترقى من الأدنى إلى الأعلى، ولكن ليس التفاوت من جهة أكلية الثواب، بل من جهة أن عيسى ولد من غير أب، والملائكة وجدت من غير أب وأم، فيكون معنى الآية لن يستكف المسيح أن يكون عبدا لله بسبب أن خلقه الله تعالى بغير أب، ولا الملائكة المقربون الذين خلقهم الله تعالى بلا واسطة أب وأم، ومعلوم أن الترقى من الأدنى إلى الأعلى من هذا الوجه لا يقتضي أفضلية الأعلى.

ومن الأدلة اطراد تقديم الملائكة على الأنبياء في الذكر إذا اجتمعا، فإنه يدل على أن المتقدم أفضل من المتأخر.

والجواب أن التقديم في الذكر لا يقتضي الأفضلية، لجواز أن يكون التقديم في الذكر باعتبار التقديم في الوجود.

ومنها أن الملائكة أرواح مبرأة عن الرذائل، مطهرة عن الشهوة، والغضب اللذين هما منشأ الأخلاق الذميمة، مطلعة على أسرار الغيب، قوية على الأعمال المحيية، من تصريف السحاب والزلزال القوية، سابعة إلى الخيرات، مواظبة على محاسن الأعمال، ومن كان هذا حاله فهو أفضل ممن لم يكن معه هذه الأوصاف. ولهذا الفريق أدلة أخرى مذكورة في المطولات، قال السعد: ولا قاطع في هذه المقامات ولذلك قال تاج الدين بن السبكي لير تفضيل البشـر على الملك مما يجب اعتقاده، ويضر الجهل به، والسلامة في السكوت عن هذه المسألة، والدخول في التفضيل بين هذين الصنفين تكريمين على الله تعالى من غير دليل قاطع، دخول في خطر عظيم وحكم في مكان لنا أهلاً للحكم فيه.

الجن والشياطين

ذكر صاحب المقاصد أن وجود الجن والشياطين مما انعقد عليه إجماع الآراء، ونطق به كلام الله تعالى، وكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اهـ.

وحيث يمكن إنكار وجود هذا النوع كفرا كما صرح به الأئمة في تفسير سورة الجن، والخلاف الحاصل بين علماء الكلام في هذه المسألة إما هو في مفهوم الجن والشياطين، وإني أذكر لك ملخص ما قيل في هذا المقام.

ذكر بعض الكتاتين في هذا المقام أن الفلاسفة اختلفوا فيما بينهم في بيان حقيقة الجن والشياطين.

لقال بعضهم هما متغايران بالحقيقة وعرف الجن بأنها جواهر مجردة عن المادة، لما تصرف وتأثير في الأجسام المنصرفة، من غير تعلق بها تعلق النفوس البشرية بأبدانها، وعرف الشياطين بأنها القوى المتخيلة في أفراد الإنسان من حيث استيلائها على القوى العقلية، وصرفها عن جانب القدس، واكتساب الكمالات العقلية لى اتباع الشهوات، واللذات الحسية والوهية .

وقال بعضهم حقيقة الجن والشياطين واحدة، والاختلاف بينهما إنما هو بحسب الأوصاف، فعرف الجن بأنها النفوس البشرية الخيرة الخاضعة لدواعي القوة العاقلة بعد مفارقتها لأبدانها، وعرف الشياطين بأنها النفوس البشرية الشريرة المعينة على الضلال، والانهماك في الغواية بعد مفارقتها لأبدانها .

كذلك اختلف غير الفلاسفة من علماء الكلام في بيان حقيقة الجن والشياطين على الوجه المذكور، فقال بعضهم هما متغايران بالحقيقة وعرف الجن بأنها أجسام لطيفة هوائية تتشكل بأشكال مختلفة، وتظهر منها أفعال عجيبة، منهم المؤمن والكافر، ومنهم المطيع والعاصي، وعرف الشياطين بأنها أجسام نارية شأنها إلقاء النفس في الفساد والغواية .

وقال بعضهم حقيقة الجن والشياطين واحدة، وهى أجسام عاقلة تغلب عليها إنسانية قابلة للتشكل بأشكال مختلفة، والفرق بينهما من حيث إن الشيطان هو المتمرد من الجن، أما الجنى فهو شامل للمتمرد وغيره فهو أعم من الشيطان، بهذا هو المشهور قال تعالى ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ .

النفوس البشرية

اختلف علماء الكلام في حقيقة النفس البشرية فذهبت الفلاسفة الإلهيون وجماعة عظيمة من المسلمين، منهم الراغب الأصفهاني والغزالي، ومعمّر بن عباد

العلمى من المتزلة وبعض الشيعة وجماعة من الكرامية، وجمع من الصوفية إلى أنها مجردة أى ليست جسما ولا حالة فى جسم، وعرفوها بأنها جوهر مجرد فى ذاته، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، كتملق العاشق بالمعشوق، فليس تعلقها بالبدن تعلق حلول كتملق الصورة بالمادة، والعرض بالجوهر كتملق السواد بالجسم، ولا تعلق بمجاورة كتملق الإنسان بشبه الذى يرافقه تارة ويفارقه أخرى .

ولقد ذكر أصحاب هذا المذهب عدة أدلة على تجرد النفس، لكنها لم تسلم من القدر فلهذا أعرضت عن ذكرها .

وذهب غير الفلاسفة ومن وافقهم فى القول بتجرد النفس إلى أنها ليست جوهرًا مجردًا، بناء على ما ذهبوا إليه من إنكار عالم المجردات، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك اختلافًا كثيرًا فى بيان حقيقتها، حتى قال الأئمة فى تفسيره عند الكلام على قوله تعالى ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ بعد أن ذكر عدة أقوال ما نصه «ويقال ويقل إلى نحو ألف قول» .

وإلى أذكر من بين هذه الأقوال قولين لشريعتنا .

القول الأول أنها جوهر لطيف، غويى مشترك للأكليات والمجردات، حال فى البدن، مقصود فيه، عني عن الاختلاء، يترقى عن الفساد والناء .

القول الثانى أنها ذوات قهرية إحداءة فى التعلق ونس إلى النفس الناطقة المهيمنة لتكثيرها مدلاً للذات والممكنة، والناطقة فى القلبية ونسب النفس الناطقة إلى النفس الناطقة، والخطيب، وتفسيره وتفسيره، والناطقة فى التكملة ونسب النفس الناطقة إلى النفس الناطقة، والناطقة فى التكملة ونسب النفس الناطقة إلى النفس الناطقة .

ويقدم استعمل قولهم على ما سحاره فى أن منون ثمة فى الشدة، ولكنها أدلة أقوى، ما فيها أنها إلهامية، فليس من بينها ما يحد التطوع، لذلك كان الأعظم تقيدها إلى الله تعالى .

حدوث النفوس البشرية

أجمع المسلمون على أن النفس البشرية سواء كانت جوهرًا مجردًا أو جسمًا حادثًا بعد أن لم تكن، كسائر أجزاء العالم، لأنها أثر للقادر المختار، إلا أنهم اختلفوا هل حدوثها قبل حدوث البدن أو بعده، فذهب طائفة إلى أنها حادثلة قبل حدوث البدن واستدلّت هذه الطائفة بما روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبی ﷺ قال: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مَجْنُونَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّخَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ» قال ابن الجوزي في تبصرته قال أبو سليمان الخطابي معنى هذا الحديث الإختصار عن كون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد .

وذهب آخرون ومنهم حجة الإسلام الغزالي إلى أنها حدثت بعد حدوث البدن، ومن أدلتهم ما ورد في الحديث الصحيح من أن ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوما دما ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ووجه الاستدلال أن الروح لو كانت مخلوقة قبل الجسم لقبل ثم يرسل إليه الملك بالروح فيدخله فيه، واختار بعضهم هذا القول .

وذهب أفلاطون ومن تقدمه من الفلاسفة إلى قدم النفس البشرية، واستدلوا على ذلك بهيلين .

القول أنها أبدية وإلزام من كونها أبدية أن تكون قديمة، لأنها لو كانت حادثلة لكانت قابلة للعدم ضرورة كونها مسبوقة بعدم وقبول لعدم بنافى الأبدية، والجواب عن ذلك أن قبول العلم المرتب على الحدوث إن أريد منه جواز طريقه لذاته سلمناه، ونقول هذا لا بنافى امتناع وقوعه أبدا لغيره، وإن أريد منه حصوله بالفعل منعناه .

الثاني أنها لو كانت حادثلة لكان لها مادة، لأن كل حادث يجب أن يكون مسبوقا بمادة وكون النفوس لها مادة باطل، لأنها من المجرّدات . والجواب عن

ذلك أن كونها من المجردات محل نزاع، ولا يسلمه الخصم، فالدليل على هذا الوجه لا يلزم الخصم .

ولو سلمنا أن كل حادث له مادة فقد تكون تلك المادة معلّنه، وهو حال فيها، وقد يكون ذلك الحادث متعلقاً بها، وهذا لا يناق كونه مجرداً بحسب ذاته .

بقاء النفوس البشرية

اختلف الناس في النفس البشرية هل تموت أم لا، فذهب طائفة إلى أنها تموت، لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت، وقد دل الكتاب على أنه لا يبقى إلا الله وحده، وهذا يستدعي هلاك النفس كغيرها من المخلوقات، وإذا كانت الملائكة عليهم الصلاة والسلام يموتون فالنفوس البشرية أولى، وأيضاً فقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنهم يقولون ﴿وإنا أمتنا الثّنين وأحييتنا الثّنين﴾ ولا تتحقق الإمامتان إلا بإماتة البدن مرة، وإماتة النفس مرة أخرى .

وقالت طائفة إنها لا تموت للأحاديث الدالة على نعيمها وعذابها، بعد مفارقتها للأبدان، إلى أن يرجعها الله تعالى إلى الجسد، ولو قلنا بنونها لزم انقطاع النعيم والعذاب، وهذا القول هو المشهور، والمراد من ذوقها الموت الذي دلت عليه الآية مفارقتها للجسد، والهلاك الذي دلت بعض الآيات على أنه بظراً على كل ما عدا الله سبحانه وتعالى ليس ينتصا بالعدم، بل يتحقق بمخرج الشيء عن حد الانتفاع به، وهذا متحقق في النفوس عند مفارقتها للجسد .

وما ذكره صاحب القول الأول في تفسير الأمتين غير مسلم، أنظر ما قاله المفسرون، فالصواب حينئذ أن النفس بعد مفارقتها البدن تبقى مفارقة ما شاء الله، ثم تعود إلى الجسد بعد البعث، وتبقى معه في نعيم أو عذاب أبد الآبدين

بطلان التناسخ

التناسخ تعلق الروح بالبدن بعد مفارقتها البدن الذي كانت معه من غير تحلل زمان بين التعلقين .

ولقد اختلف أهل النظر من المليون وغيرهم في التناسخ فقال أهل الحق من الفلاسفة وغيرهم إن التناسخ باطل ، وقال غيرهم من قدماء الفلاسفة وبعض المتسبين إلى الملة الإسلامية التناسخ جائز وواقع .
وهؤلاء القائلون بالتناسخ اخرجوا إلى طائفتين :

الأولى ذهبت إلى أن الأرواح تنقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى ، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقها ، وهذا التناسخ إما يقع ليكون عقابا أو ثوابا ، فالفاسق متى الأعمال تنقل روحه إلى أجساد الحيوانات الخبيثة ، الملائمة الأفكار ، والمسخرة المؤلفة الممتحنة بالذهب . واختلفوا في الذي كانت جميع أفعاله شرا لا غير فيها فقال غير المليون أرواح هذه الطبقة هي الشياطين ، وقال المليون المتسبون إلى الإسلام إنها تنقل إلى جهنم فتعذب فيها على الدوام ، كذلك اختلفوا في الذي كانت جميع أفعاله خيرا لا شرا فيها ، فقال غير المليون أرواح هذه الطبقة هي الملائكة ، وقال المليون إنها تنقل إلى الجنة فتسبح فيها أبدا .

وذهبت الطائفة الثانية إلى أن الأرواح بعد مفارقتها للأبدان التي كانت متعلقة بها إما تنعاق بأجسام أخرى من نوع الأجسام التي كانت متعلقة بها أولا تنقل ، فالنفس الإنسانية بعد مفارقتها للبدن تنقل إلى جسم إنساني غير ذي روح . احتج المتسبون إلى الإسلام بأنهم وروا في القرآن الكريم ، الأولى هو وألها الإنسان ما هوى له الكرم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك . الثانية هو جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يبرؤكم فيه . فقالوا إن الخائب في الآية الأولى هو النفس الإنسانية والآية تنطوي

أن تلك النفس بشاء الله تعلقها بصورة الإنسان وقد بشاء تعلقها بغير صورة الإنسان، وهذا هو التناسخ .

وبجواب عن ذلك بأن المعنى ليس كما فهم ذلك المستدل، وإنما الآية تشير إلى أن للإنسان صوراً مختلفة في الحسن والقبح، والطول والقصر، ومشقة الله تعالى وحكمته اقتضت لكل نفس صورة خاصة من تلك الصور، لئلا تعلق بها النفس البشرية، وحيث أن الآية ما يفهم منه أن النفس الإنسانية تعلق بجسم آخر غير الذي كانت فيه .

وقالوا في الآية الثانية إن قوله تعالى ﴿يَلِدُوكُمْ فِيهِ﴾ معناه يخلقكم ويحكم في المذكور، وهو النوع الإنساني والأنعام، وحيث أن المفهوم من الآية أن النفس الإنسانية تخلق وتثبت في الجسم الإنساني وأجسام الأنعام .

وهذا هو التناسخ والجواب أن معنى الآية ليس كما فهم هذا المستدل بل معناها أن الله تعالى خلق لنا أزواجاً، أى أنشأ من أنفسنا، أى جنسنا توالد منها وقوله ﴿يَلِدُوكُمْ فِيهِ﴾ معناه يجعل لكم في الأنعام معيشة تمشون بها، فليس في الآية حيث ما ثبت التناسخ، ثم يقال لهذه الفقرة حيث إنكم تنسبون إلى الإسلام فيكفى في رد قولكم لإجماع جميع أهل الإسلام على خلاف قولكم في التناسخ، وفي المجازاة على الأعمال بتعلق الأرواح بأجسام أخرى .

أما من لا يعترض بالإسلام فقد استدلل على التناسخ بأن النفس البشرية قديمة، فهي موجودة بالفعل وكل موجود بالفعل فهو متناه، فالنفوس البشرية متناهية، بالأجسام غير متناهية، لأنها من الحوادث المتعاقبة، المستندة إلى ما يتناهى من الأوضاع الفلكية، فلم لم تعلق كل نفس إلا ببدن واحد لزم توزع

ما لا يتأهى^(١)، وهو النفوس على ما لا يتأهى وهو الأجسام، وهو محال بالضرورة، فوجب القول بالتناسخ.

ورد هذا الدليل بأننا لا نسلم قدم النفوس، للأدلة القائمة على أن ما سوى الله تعالى وصفاته حادث، أما الطائفة الثانية التى ذهبت إلى أن النفوس البشرية إنما تنقل في الجسم الإنسانى فقط فدليلها هو دليل الفرقة القائلة إن الأجسام لا تتأهى والنفوس متأهية، وقد علمت رده، وذكر ابن حزم في كتاب (الفصل) وجهها لإبطال قول الفلاسفة غير الإسلاميين القائلين بتعلق الروح بأى جسم، بعد مفارقتها الجسم الذى كانت متعلقة به، وحاصله أن الله تعالى خلق الأنواع والأجناس، ورتب الأنواع تحت الأجناس بفصل كل نوع من النوع الآخر بفصله الخاص به، الذى لا يشاركه فيه غيره.

وهذه الفصول المذكورة لأنواع الحيوانات إنما هى لأنفسها التى هى أرواحها فنفس الإنسان حية ناطقة، ونفس الحيوان حية غير ناطقة، هذا هو طبيعة كل نفس وجوهرها، الذى لا يمكن استعاضته عنه، فلا سبيل إلى أن يصير غير الناطق ناطقا، ولا الناطق غير ناطق، ولو جاز هذا لبطلت المشاهدات وما لوجه الحس وبديهة العقل.

أما الفرقة القائلة بتقل النفس الإنسانية في الجسم الإنسانى فيستدل على بطلان قولها بأنه لا يوجد في هذا العالم أمران بينهما تشابه تام، من جميع الجهات، بل لابد أن يتميز أحدهما عن الآخر بوجه (ما) فلا سبيل إلى وجود شخصين يتفقان في جميع الأخلاق، والأخلاق محمولة على النفوس وحيث كانت الأخلاق مختلفة، فالنفوس مختلفة، فوجب أن تكون نفس هذا الجسم غير النفس التى في الجسم الآخر.

(١) مكلدا في نسخة المطبوعة، وفيها خطأ مطبعي وقصوب حذف (لا) فتكون العبارة (لأن) نوع ما يتأهى وهو النفوس البشرية على ما لا يتأهى وهو الأجسام وهو محال، وذلك لأن هؤلاء يريدون أن النفوس البشرية متعاضدة.

والجملة فالقول بالتناسخ لم يقم عليه دليل صحيح وهو مخالف لجميع
الشرائع السماوية .

الدنيا والآخرة

لعلماء الكلام قولان في حقيقة الدنيا :

القول أنها ما على الأرض مع الهواء والجو .

والقول أنها كل المخلوقات عين الجواهر والأعوان غير البشر الآخرة ، قال
الشيخ زكي الأنصاري : وهذا يشمل ما أباح الله تعالى للإنسان استعماله وتسلطه وما
حظره عليه ، فإن ورد في بعض الآيات أو الأحاديث عدم الدنيا ، يرغيب عنها ،
فهو مصروف إلى ذلك المصطور على الإنسان ، كمنصرف مثال في غير وجهه إلى
والإحسان وخلق النوايا والفضائل .

وإن ورد مدح لها وترغيب في التمتع بها ، فهو ما أباح الله تعالى
للإنسان .

والجملة فالدنيا طريق للآخرة فينبغي للإنسان أن يأخذ بها قسراً ، فاحتمه ،
حتى لا تلهيه عن الآخرة ، وأما الآخرة فهي الدار التي أعد الله تعالى لحامية
كل إنسان على عمله خيراً كان أو شراً ، مجازاته على ذلك تشمل بالتبعية الدار
إن كان خيراً ، والعقاب مؤثماً أو دائماً ، على مقدار تداعى التي ارتكبت في
دار الدنيا من شرك أو غيره .

الموت ، ولحظة القبر ، ونعيمه وعذابه

فقال الأشرى إنه من الصفات الوجودية، وعرف بناء على ذلك بأنه صفة وجودية تضاد الحياة، وحيث يكون التقابل بينه وبين الحياة تقابل التضاد.

واستدل للأشرى بقوله تعالى في سورة الملك ﴿الذى خلق الموت والحياة﴾ فإنها أفادت أن الخلق تعلق بالموت كما تعلق بالحياة، والخلق لا يتعلق بالعدم لأزلية الأعدام، فخلق الخلق به يدل على أنه وجودى .

ونقل عن المحرلة وبعض أهل السنة أن الموت عدس، وعرف بناء على ذلك بأنه عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيا، فيكون التقابل بينه وبين الحياة تقابل العدم والملكية، وقال أصحاب هذا الرأى إن (خلق) فى الآية بمعنى قدر، فلا تدل على أن الموت وجودى .

أما الحياة فهى من الصفات الوجودية إجماعا، وهى صفة توجب لمن اتصف بها حالا لم يكن قبل طريها، مثل صحة العلم والقدرة، والواجب على كل مسلم أن يصدق بعموم فناء المخلوقات وأن ذلك الفناء يحصل عند فراغ الأجال المقدره .

فتة القبر

فهل إن فتة القبر هى التلجلج والتلثم فى الجواب، وقول هى سؤال الملكين منكرو نكير، وقد ورد أنه بعد انصراف الناس من دفن الميت بأته ملكان يقال لأحدهما منكرو، وللآخر نكير، يعمدان فيه فى الروح فيه، فيها حياة متوسطة بين الموت والحياة الدنيا، وورد إليه من الحواس والعقل ما يتوقف عليه فهم الخطاب، ويتأق معه رد الجواب حين يسأل، وعندئذ يقول الملكان له: من بك وما دينك، وما تقول فى الرجل الذى بهت فيكم؟ .

فيقول المؤمن: رى الله، ودينى الإسلام، والرجل المبعوث فىنا محمد ﷺ،

فيقولان له أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا في الجنة، فوراها جميعا، ثم يقولان له ثم نومة المروس .

وأما المخالف أو الكافر فيقول لا أدري، فيقولان له لا ديت ولا نلت، ثم يصيه ما قدر له من العذاب في قبره .

وهذا السؤال يقع للشخص الميت، ولو تمزقت أعضاؤه، أو أكلته الدباب أو حرق وسحق، وذرى في الهواء .

والحكمة في سؤال القبر إظهار ما كنهه العباد في الدنيا من إيمان أو كفر، أو طاعة أو عصيان، فالمؤمنون الطالحون يباي الله بهم الملائكة، وغيرهم يفضحون عند الملائكة .

أما كون السؤال باللغة السريانية أو أن كل إنسان يسأل بلغته فالأشبه تفويض الأمر فيه قد تعالى لأنه من الأمور الغيبية التي لا مدخل للخل فيها ولم يرد فيها دليل قاطع .

عذاب القبر ونعيمه

اتفق المسلمون جميعا على أن عذاب القبر ونعيمه حق، والمشهور أن العذاب يكون للجسم والروح، وقد^(١) نسب للمعتزلة أنهم ينكرون عذاب القبر لكن ذكر القاضي عبد الجبار رئيس المعتزلة في كتاب الطبقات تأليفه أنه قبل له مذهبهم أدام إلى إنكار عذاب القبر، وهذا قد أطبق عليه الأمة، فقال إن هذا الأمر لما أنكره أولا (ضرار بن عمرو) وقد كان من أصحاب الرأي ظننا أن ذلك مما أنكرته المعتزلة، وليس الأمر كذلك، بل المعتزلة رجلان: أحدهما

(١) راجع في هذا الموضوع شرح المؤلف للسيد الشريف ج ٨ ص ٣١٧ وما بعدها وشرح المقاصد للسعد ج ٢ ص ١٦٢ وما بعدها .

يجوز ذلك كما وردت به الأخبار، والثالث يقطع بذلك، وأكثر شيوعنا يقطعون بذلك، وحيث كان الاتفاق من الإسلاميين على نعيم القبر وعذابه قائما فلا يضر بعد ذلك احتمال الأدلة الثقيلة من القرآن، أو الحديث، وعدم قطعنا دلالتها، كما أنه لا حاجة للذكر أدلة قد ذكرها بعض الكاتبيين للمخالفين من أئمة الإسلام فإنك علمت أنه لا خلاف بين المؤمنين في عذاب القبر ونيعمه، نعم قد أنكر غير الإسلاميين عذاب القبر ونيعمه، فقالوا إن اللذة والألم، والسؤال والجواب، ونحو ذلك لا يتصور بدون العلم والحياة، ولا حياة مع فساد البنية، وبطلان المزاج، والمشاهدة تساعد على إنكار عذاب القبر ونيعمه، فإننا نشاهد الميت أو المقتول أو المصلوب يبقى مدة من غير تحرك وتكلم، ولا أثر تلذذ أو تألم، وربما يدفن في صندوق، أو لحد لا يتصور فيه جلوسه، بل ربما تأكله السباع، أو تحرقه النار فيصير رمادا تذروه الرياح، فالقول بعذاب القبر ونيعمه بعد أن سمعت ما ذكر غير معقول، وتجهيز وقوعه سفسطة .

والجواب عن هذه الشبهة هو أن الإنسان ليس عبارة عن ذلك الجسم فقط بل هو جسم وروح، ولا يلزم في الحياة البرزخية أن تتعلق الروح بكل أجزاء البدن، بل يكفي في تحققها تعلق الروح بأى جزء من أجزاء البدن، لأنها حياة أقل من الحياة الدنيوية، وعند ذلك يعذب الميت أو ينعم، وعدم ارتباطنا لا يضر، فإن الواحد منا يجلس بجوار النائم، ويكون النائم في ألم شديد، أو لذة عظيمة والجالس بجانبه لا يشعر بشيء من هذا، وبالجسلة فهذه الشبهة المذكورة لم تنتج استحالة عذاب القبر ونيعمه، وإنما أنتجت الاستبعاد، وحيث قد وردت الأحاديث الصحيحة في عذاب القبر ونيعمه، ودل ظاهر كتاب الله تعالى على أن في القبر علما فإنكاره لا يصح .

الساعة وأشراتها

الساعة هي الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم، ويضطرب نظامه، ويغرب بما يكون فيه من الأحوال.

ومعرفة ذلك الوقت على التعيين اختص الله تعالى به، كما دل عليه قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا نَاقُطَةً إِلَّا هُوَ﴾^(١) ومعنى الآية يسألك أيها الرسول عن الساعة فأتلين متى يرسلها ويصيرها، واستقرؤها، قل لهم إن علم الساعة عند ربي وحده، ليس عندي، ولا عند غمبي من المخلوق شيء منه، لا يكشف حجاب الخفاء عنها، ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الرب إلا هو، ووظيفة الرسل الإنذار بها والتحذير عنها، وقد جاءت آيات في كتاب الله تعالى، وورد عن النبي ﷺ ما يدل على قربها، قال تعالى ﴿الْقُرْآنُ السَّاعَةِ وَالشَّقِ الْقَمَرِ﴾ وقال تعالى ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وقال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وقال ﷺ (يشت أنا والساعة كهاتين) وأشار بالسبابة والوسطى، والمعنى أن القرب بين بعثة النبي والساعة كالقرب بين الإصبعين.

أما أشراتها وعلاماتها فأنا نذكر منها في هذا المختصر العلامات الكبرى المتفق عليها، وهي خمس، خروج الدجال، ثم نزول عيسى عليه السلام، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها.

أما الدجال فقد ورد في شأنه عدة أخبار صحيحة، تنبأه النبي، تدل على أنه سيظهر في آخر الزمان، إن شاء الله، يهلك الناس خوارق كثيرة، وغرائب يفتن بها خلق كثير، وأنه كافر وإن من أتبعه هلك ومن خالفه نجا، وأنه يقتل على يد عيسى عليه السلام.

جاء في صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى
ﷺ قال (ينزل الدجال ببعض السياخ التى بالمدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو
رجل هو خور الناس، أو من خور الناس، فيقول أشهد أنك الدجال الذى
حدثنا عنك رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال أراهم إن قتل هذا ثم
أحيينه، هل تشكون فى الأمر فيقولون لا، فيقتله ثم يحيه، فيقول حين يحيه والله
ما كنت قط أشد بصيرة منى اليوم، فيقول الدجال أقتله فلا يسلط عليه).

وأما نزول عيسى عليه السلام فقد جاء فى صحيح مسلم عن ابن السيب أنه
سمع أبا هريرة يقول، قال رسول الله ﷺ (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل
فيكم ابن مريم حكما مقسطا، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية،
ونهبى المال حتى لا يقبله أحد).

وجاء فيه أيضا عن أبى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت النبى
ﷺ يقول:

(لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم قال فينزل عيسى
ابن مريم فيقول أمروهم تعال حل لنا فيقول لا إن بعضكم أمراء تكرمه الله هذه
الأمّة).

وأما يأجوج ومأجوج فهما قبيطان من ولد يافث بن نوح عليه السلام
خلف الحاجز الذى أقامه ذو القرنين بين الجبلين الذى يقرب القطب الشمال
وقال الألويسي ذكر بعض أخبار اليهود أن يأجوج ومأجوج فى منتهى الشمال
حيث لا يستطيع أحد غيرهم السكنى فيه.

وجاء فى صحيح مسلم بعد ذكر الدجال، وهلاكه على يد عيسى عليه
السلام (ثم يأتي عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله تعالى من الدجال
فيمسح وجوههم ويمنحهم بلرجهم فى الجنة، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله
تعالى لى عيسى عليه السلام قد أخرجت عبادا لى لا يدان لأحد بقتالهم،

فحضر عبادى إلى الطور حيث الله تعالى بأجوج وأجوج) لئ أن قال فيوجب
نى الله وأصحابه إلى الله فيوسل عليهم كالنفذ لى أعتاقهم، فيصحبون فرسى،
وقال تعالى ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرِينِ إِنْ أَجُوجَ وَأَجُوجَ مُسَلَّدُونَ لى الأَرْضَ لَهْلَ
لَهْلَ لَكَ مَخْرَجًا عَلَى أَنْ لَهْلَ بَيْنَا وَبَيْنَهُمْ سِدًّا﴾ لئ أن قال ﴿وَإِذَا جَاءَ
وَعْدَ رَبِّ جَعَلَهُ ذُكَا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّ حَقًّا﴾ .

وعند ورود الأحاديث وأخبار القرآن عن بأجوج وأجوج، وأن بَيْنَا وَبَيْنَهُمْ
سِدًّا وحاجزا لا يزول إلا إذا تحقق وعد الله لا يسوغ لعاقل أن يشك لى أمرهم،
وما يدعيه بعض الناس من أن كثيرا من المستكشفين طافوا حول الأرض، ولم
يتروا بقعة من البرارى والبحار والجبال إلا وصلوا إليها، ومع ذلك لم يروا ذلك
السد، ولا من خلفه، لا يقدح فيما سمعته، لأن العقل يجوز أن يكون على ظهر
الأرض ما لم يره أحد إلى الآن، وعدم وجدان السالكين لا يستلزم عدم الوجود،
ولا مانع من أن يكون ذلك السد بسبب تقادم الزمان قد تراكمت عليه الأتربة،
وتجمدت واستحجرت، حتى صارت مع الجبلين سلسلة من الجبال، وبالجمل
فبعد ورود الكتاب وأخبار الصادق المعصوم من الكذب لا مضى لهذه
التشكيكات، ولا يصح الإصغاء إليها .

وأما مخرج الدابة فقد دل عليه القرآن الكريم قال تعالى ﴿وَإِذَا وَلَّعَ
الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِهِ لَا
يُعْقِلُونَ﴾ (١) والمضى إذا دنا وقوع مدلول القول والآيات الناطقة بمجىء الساعة
أخرج الله تعالى للناس دابة عظيمة، ذات قوائم، ليست من نوع الإنسان،
أصلا يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض، تكلم بالكفرة المذكورين للبعث
أنهم كانوا لا يتقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجىء الساعة وبأدائها .

وأما طلوع الشمس من مغربها فقد جاء لى صحيح مسلم عن لى هروء أن
رسول الله ﷺ قال :

«لا تقع الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون، فيومئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها بخيرا» وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (١) أى يوم يأتى بعض آيات ربك الموجبة للإيمان الاضطرارى لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل لإيمانها بعد، في ذلك اليوم، ولا نفسا لم تكن كسبت في إيمانها خيرا وصلا صالحا ما عساها تكسب من خير فيه، ليطلق الذى يترتب عليه ثواب الإيمان والعمل الصالح بأن التكليف على ما وهب الله المكلف من الإرادة والاختيار بالتمكن من الإيمان والكفر، واخير والشر .

والثواب والعقاب مبنى على هذا التكليف، وقد وردت أحاديث كثيرة منها ذلك الحديث السابق فيهد أن هذه الآية التى أبهت هى طلوع الشمس من مغربها، قبل الساعة، وليس بمستحيل على قدرة الله سبحانه وتعالى التى جعلت طلوع الشمس وغروبها على الحالة التى نشاهدنا أن تتعلق بتغير مجرى الشمس وجعل طلوعها من المغرب بدل المشرق، وقد ورد أنه بعد ذلك تخرج نار من جهة عدن، تسوق الناس إلى المحشر، فتنتهى الحياة الدنيا، وينتقل الناس إلى الدار الأخرى .

البعث والمعاد

البعث إحياء المولى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية .

وأما المعاد فستعلم مفهومه عند ذكر المذاهب في شأنه .

يختلف العلماء في المعاد فأنكره الفلاسفة الطبيعيون^(١) مستندين في ذلك إلى أن الإنسان هو هذا الهيكل المصنوع من طينته الأرضية، والقوى وجميع الأمراض، وغير خاف أن الإنسان بهذا المعنى، إذا زال عنه وصف الحياة ومات فنى، ولا يبقى منه إلا المواد العنصرية المنتشرة، وبذلك صار معدوماً، والمعدوم لا يعاد .

وتوقف جالينوس في المعاد فقال: لم يترجح عندي أن النفس هي المزاج أو جوهر يبقى بعد فناء البدن، فإن كانت هي المزاج: أى السوداء والصفراء والبلغم والدم فالمعاد لا يمكن، لأنه بالموت يتعدم المزاج، والمعدوم لا يعاد، وإن كانت جوهرًا باقيا بعد فساد المزاج كان المعاد ممكنا .

ولما كان المعاد قد أجمعت عليه الشرائع السماوية، والعقول لا تحمله، حتى إن بعض علماء الكلام يقول بوجوده، ليصل الثواب إلى المطيع، والعقاب إلى العاصي، وأيضاً فليس من الحكمة أن يكلف الإنسان، بمطالب يفعل بعض الأشياء ويترك بعض الأشياء، ثم يترك بدون حساب، ولا مجازاة، مع العلم بأن بعض الأفراد قهر نفسه ومنعها عن الشهوات، والبعض الآخر أعطاها سلطاناً مما تشتهي، وطاولها فيما استحسنته، من ظلم الغنى، وهتك عرضه، ونهب أمواله، بل من الصمت تركه مع هذا الحال، بدون أن يكون له حياة أخرى ينال فيها جزاء ما فعل في الحياة الدنيا خيراً أو شراً، ولقد منزه عن الصمت، فلا يليق أن يشمل ذلك الإنسان بدون بحث وإحادة .

ولما كان المعاد بهذه المثابة كان قول الفلاسفة الطبيعيين سائلاً عن درجة الاحتمار، ولذلك لم يقل به أحد من محققي الفلاسفة، أما رأى جالينوس فإنه لا يعد قولاً حيث إنه شاك غير جازم بطرف محاسن .

(١) راجع في هذا الموضوع شرح المؤلف للسيد الشريف ج ٤ ص ٢٩٤ وما بعدها وشرح للقاصد للسيد ج ٢ ص ١٥٥ وما بعدها .

ولذا اتفق المحققون من الفلاسفة وجميع الملّكين على أن المعاد حق واقِع لا
مُحَالَّة .

ولكنهم اختلفوا في كيفية، والأحوال في ذلك ثلاثة :

قول محققى الفلاسفة وقول محققى الأشاعرة والمتزهدية والمعتزلة والصوفية .
وقول جمهور علماء الكلام .

أما قول محققى الفلاسفة فهو أن المعاد روحانى فقط وعرفوه بأنه عود
النفوس إلى ما كانت عليه من التجرد عن التعلق بالبدن، واستعمال الآلات،
واتصالها بعالم المبردات، وأنكروا المعاد الجسمانى، مستندين إلى أدلة (ق
زعمهم) لا تفيد يقيناً، ولا يصح النظر إليها بعد إجماع المسلمين واليهود
والنصارى على المعاد الجسمانى، وورود نصوص القرآن الصريحة فيه، كقوله تعالى
﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا عَظَّمْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا هُوَ عَصِيمٌ مَبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَلَيْسَ عِظْلُهُ قَالٍ مِنْ بَحْمٍ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يَحْيَا الَّذِى أَنْشَأَهَا
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ عَظْلٍ عَلِيمٌ ﴾^(١) .

فقد روى أنها نزلت في أُمّ بن خلف الذى خاصم النبى ﷺ في أمر
للمعاد، وأتاه بمظلم قد رم ولى، قبضه فقتله بيده، وقال يا محمد أترى الله يمسى
هذا من بعد ما رم، فقال ﷺ نعم، ويحك ويدخلك النار .

وقوله تعالى ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ . بَلْ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ
نَسُوهُ بِنَاءِهِ ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ يَشْهَدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ
الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٣) فهذه الآيات وأمثالها صريحة في المعاد الجسمانى، ولا

(١) سورة يس الآية ٧٧ وما بعدها .

(٢) سورة القیامة الآية ٣ ، ٤ .

(٣) سورة فصلت الآية ٢١ .

داعى لتأنيها وصرفها عن ظاهرها ، فالتنكر للمعاد الجسماني منكر لما أجمع عليه أهل الملل الثلاث ، ولما دلت عليه النصوص الصريحة ، فإسلامه غير معتبر .
أما غير الفلاسفة من الملّين فقد اختلفوا في أن المعاد جسماني وروحاني ، لو جسماني فقط وهذا الخلا متفرع على الخلاف في أن الروح جوهر مجرد عن المادة ، أو جسم مادي ، قولان لعلماء الكلام .

فذهب محققوهم كالغزالي والراغب وبعض علماء المتزلة ، وكثير من الصوفية إلى أن الروح جوهر مجرد عن المادة ، متعلق بالبدن من غير حلول فيه ، وبناء على ذلك قالوا : إن المعاد جسماني وروحاني ويعرف المعاد على رأيهم بأنه رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرق ، وإلى الحياة بعد الممات ، ورجوع الأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة ، وإنما عرف بذلك التصرف الذي يفهم منه أن الجسم بعد الموت لم ينعدم ، وإنما تفرقت أجزأؤه ، لأن الذي يميل إليه كلام الغزالي ، وكلام كثير من موافقيه أن معنى الإعادة أن يخلق الله تعالى من الأجزاء المتفرقة لتلك البدن ، بدنا فيحد إليه نفسه المجردة الباقية بعد خراب البدن ، وهذا صريح في أن الجسم لم ينعدم ، وإنما تفرقت أجزأؤه ، كذلك يشير إلى أن الجسم المعاد مغاير للجسم الأول ، بحسب الشخص ، ولا ضرر في ذلك ، لأن الملائكة تحقق المعاد على كون الأجزاء الأصلية هي التي تجتمع بعد التفرق ، أما كونها تظهر على الحالة التي كانت عليها في الدنيا ، أو على حالة وصفت أخرى فلا يضر ، على أنه قد ورد ما يستفاد منه أن هناك تغورا بحسب الشخص .

فقد جاء في السنة « أن أهل الجنة جرد مرد ، وأن ضرس الكافر يكون مثل جبل أحد » ، وجاء في القرآن قوله تعالى ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ ، ويشير إلى هذا أيضا قوله تعالى ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ ، ولهذا يقال للشخص من الصبا للشيخوخة إنه هو بعينه وإن تبدلت الصور والميقات .
ولا يقال لمن جنى في الشباب وعوقب في المشيب إنها عقوبة لغير الجاني ،

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ نَفُصِّلُ لَهُمُ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ وَأَرْجُلَهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا ينافي أن هناك تفويها بين الجسمين بحسب الشخص والأوصاف، لأن الأسماء والألوان والأرجل من الأجزاء الأصلية، التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره، ولو قطعت قبل موته، بخلاف التي ليس من شأنها ذلك كالظفر والشعر، وأصحاب هذا القول قائلون إن الأجزاء الأصلية تبقى، وعند البعث تعود إلى الاجتماع.

وذهب كثير من علماء الإسلام إلى أن الروح جسم لطيف، نوراني، عار في البدن مريحان الماء في الورد.

وبناء على هذا قالوا إن المعاد جسماني فقط، ويعرف حينئذ بأنه الرجوع إلى الوجود بعد الفناء، أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرق، ورجوع الأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة، وهذا الفريق لم يختلف مع فريق المحققين في أن المعاد هو الجسم والروح، إلا أن فريق المحققين لما جرى على أن الأرواح جواهر مجردة قال إن المعاد جسماني بالنظر إلى الجسم، وروحاني بالنظر إلى الروح، التي هي من المبررات، وليست بجسم، أما هذا الفريق فقال إن المعاد جسماني فقط، ومعناه أن الجسم الذي هو هذا الهيكل يعاد والروح التي هي جسم سار في البدن تعود إلى الحلول في البدن.

وقد اختلف القائلون بالمعاد الجسماني فقط في كيفية، فنقل عن إمام الحرمين أنه اختار التوقف وعدم الجزم بكون الجسم بعد الموت ينعدم بالكلية، أو تفرق أجزأه، حيث قال يبرز حقلا أن تعلم الجواهر ثم تعاد.

ويبرز أن تبقى الجواهر وتزول أعراضها التي منها اجتماعها، ثم يعاد تأليفها، ولم يرد من السمع دليل قاطع على تصين كون الإعادة بعد العدم، أو بعد تفرق الأجزاء، فليس من المستبعد أن تتحول أجسام العباد إلى أجزاء متفرقة على صفة أجسام التراب، ثم يعاد تركيبها إلى الحالة المعهودة، وليس بمستحيل أن يعاد منها شيء ثم يعاد.

وقال صاحب المقاصد إن هذا القول هو الحق .

وقال بعض علماء الكلام تتعلم ولا يخفى منها شيء ثم تعاد بعد العدم واستدلوا في ذلك إلى أدلة منها قولهم إن الإجماع من زمن الصحابة رضي الله عنهم إلى زمن ظهور المخالفين من بعض المخزلة وأهل السنة انعقد على أن إعادة الأجسام بعد العدم وحيث لا عينة بظهور المخالف ، ورد هذا الدليل بمنع قيام الإجماع على ما ذكر ، وكل ما عرفت عن الصحابة أنهم جتمعوا على بقاء البزق سبحانه وتعالى وفناء الخلق ، وعلى أن الدائم حياة أخرى أبدية في المثل الأسرة ، ولم يكن من شأنهم الخوض في كون الإعادة بعد العدم ، أو بعد تفريق الأجزاء .

ومن أدلة هذا الفريق قوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر ﴾ أى هو الأول في الوجود ، فوجود العالم ليس مع وجوده ، بالآخر في الوجود فالتعالم ينفى ولا يشى من يتصف بالوجود سواء ، وهذا المنفى لا يتحقق إلا إذا تعلم الجسم كلاً وجزئاً ، أو ينطبع الاستدلال بهذه الآية بأنها ليست نصاً في ذلك المعنى المذكور ، ويحصل أن يكون معناه ^(١) هذا المرجع في كل شيء كما يقال في الشخص عند إرادة ملحه بأن حاجات الناس تنهى إليه (هو الأول والآخر) أى مرجع أصحاب الحاجات ، لا فرق بين حاجة وحاجة ، وتحصل غير ذلك ، وحيث لا تكون نصاً في المدعى فلا يصح الاستدلال بها .

ومن الأدلة قوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أى أن كل شيء من المخلوقات سهلك لا محالة ، والهلاك لا يكون إلا بالتعلم الشيء الهالك ، ويمكن أن يقال إن الهلاك كما يطلق على المعنى المذكور ، يطلق على الخروج عن الإنشاع المقصود به الاتق بماله ، كما يقال ، هلك الطعام إذا لم يبق صالحاً للأكل ، وإن صلح لمنفعة أخرى ، فالآية حيث محتملة ، وليست نصاً في

١٠٠ هكذا في النسختين المطبوعتين بالنظر (معا) ولرى أن الصواب هو المرجع في كل شيء .

المطلوب، وبالحجة فالأدلة التي استند إليها هذا الفريق لا تصلح لإثبات مدعاه .

وقال بعض علماء الكلام إن الأجسام لا تتعدم بالموت، بل تتفرق أجزاؤها وعند الإعادة تجميع الأجزاء ثانية، ويتكون منها الجسم، واستدلوا على ذلك بالنصوص القرآنية الثلاثة على أن المعاد يكون بجمع أجزاء الجسم بعد تفريقها .

مثل قوله تعالى حكاية لما وقع من سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلْ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ لَفُخْدَ أَرْمَةٍ مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَمْعًا ۚ ۱﴾ وقوله تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَلَيْسَ هَذِهِ اللَّهُ بِعَدِّ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حَارَكِ وَلَجْعَلِكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَشَرْنَا ثُمَّ نَكْسُوهُمَا لَئِمْ كُنْتُمْ مِنْهُمْ شَاكِرِينَ ۚ ۲﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِذَا مَرَقُمْ كُلَّ مَصْرُقٍ إِنْكُمْ لَفِي عِجَالٍ جَدِيدٍ ۚ ۳﴾ فإن قوله تعالى في الآية الأولى ﴿لَفُخْدَ أَرْمَةٍ مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَمْعًا ۚ ۱﴾ وقوله تعالى في الآية ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَشَرْنَا ثُمَّ نَكْسُوهُمَا لَئِمْ كُنْتُمْ مِنْهُمْ شَاكِرِينَ ۚ ۲﴾ وقوله تعالى في الثالثة ﴿وَإِذَا مَرَقُمْ كُلَّ مَصْرُقٍ ۚ ۳﴾ يدل على أن الإعادة هي ضم الأجزاء إلى بعضها بعد التفرق، وتأويلها وحملها على معانٍ آخر ينبر عنه ظاهرها .

وقال شيخنا الأستاذ محمد باقر في كتابه: القول المفيد ما نصه وقد تبين من الاستكشاف الحديث أن المواد البسيطة لا تتلاشى بالكلية، ولا تزيد ولا تنقص في الطبيعة، وإنما هي على الدوام في تحليل وتركيب، وأن تلاتي الأشياء بحسب ما يظهر لنا لا يدل على تلاشيها في الواقع، ونفس الأمر، ألا ترى أن

السكر يذوب في الماء فيظهر لنا أنه ثلاثي ولكن العقل يجزم بأنه ما ثلاثي، وإنما تفرقت أجزأؤه بحيث يمكن جمعها مرة أخرى كما تحقق ذلك بالعمليات الكيميائية، فإعدام العالم ليس إلا عبارة عن تغلبه وتفرقه، بحيث يكون كالسكر في الماء، أو التراب في الهواء، وإعادة ليست إلا عبارة عن جمع أجزأئه مرة أخرى بحيث تجتمع الأجزاء الأصلية لكل جسم، وتصلح بصيغة باقية لا تقبل الفناء، وتصور بصورة تناسب العالم الأخرى الذي هو من عالم الملكوت، وعالم الأرواح والملائكة، وهذا هو الذي تؤيده الأحاديث ١ هـ .

وهذا القول هو الذي يجب التعويل عليه، فإنه لا يرد عليه من التشكيكات ما يرد على القول بأن الجسم يتعدم ثم يعاد .

العقائد السمعية المتعلقة بالمعاد

- (١) هول الموقف (٢) الميزان (٣) الصحف (٤) الحساب (٥) المحرض
(٦) الصراط (٧) شهادة الأعضاء (٨) الشفاعة .

هول الموقف

هول الموقف هو ما يصيب الإنسان فيه من الشدائد والآلام، وقد دل مجموع الكتاب والسنة على أنه يحصل للإنسان في اليوم الآخر أمور كثيرة، قال تعالى ﴿بألمنا الناس انظروا إليكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ وقال تعالى ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ وفي حديث مسلم تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمنقار

ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبه، ومنهم من يكون إلى ركبته، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجسه العرق إلجأما، وأشار النبي ﷺ إلى فيه، وحقويه تنية حقو، وهو الكشح الذي بين الخافرة إلى الضلع والكتف. وقال تعالى ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ وقال تعالى ﴿يَوْمَ يُخَصَّصُ رُجُوهٌ وَسُودٌ وَرُجُوهٌ﴾ .

الميزان

جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن الله تعالى ميزانا نعرف به أعمال العباد، من خير أو شر، يوم القيامة، ولم يرد في وصفه ما يصح الاعتماد عليه فوجب الإيمان به، وتعميق فهم حقيقته إلى الله سبحانه بزمان .

قال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخًا وَاحِدًا﴾ وقال تعالى ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ يومئذ الحق ﴿وَقَالَ تَعَالَى ﴿فَلَمَّا مِنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينَهُ﴾ في يومئذ في محشة يخشى وأما من خلت مَوَازِينُهُ فَأَمَّهُ هَاطِيةٌ﴾، ولا داعي لصرف الآيات عن ظاهرها وتأويل الميزان بالعدل انشأت في كل شيء، كما قالت المعتزلة محتجين بأن الأعداء، أعراض، والأعراض لا توزن، فإن الآيات القرآنية يتبادر منها أن الميزان الميزان بالمعنى العرفي، وهو ما يعرف به أعمال العباد من خير وشر، وحيث إن القرآن أطلقه فالتبادر منه المعنى المتعارف، وعلى كل فمتكر أصل الميزان كافر، حيث إنه ورد في كتاب الله تعالى .

الصحف

الصحف هي ما تكتب فيها الملائكة أعمال المكلفين، من الأقوال والاعتقادات وأعمال الجوارح قال تعالى ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْفَمَةٌ طَائِرَةٌ فِي صَفْحَةٍ﴾

ويخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴿ وقال تعالى ﴿فأما من أولى كتابه
 يمينه . فسوف يخاصب حسابا يسيرا . وينقلب إلى أهله مسرورا . وأما من
 أولى كتابه وراء ظهره . فسوف يدعو ليورا ويصل مسجرا ﴿ ، وبالجملة
 فالصحف هي الكتب التي أحصت جميع أعمال العباد المكلفين ، وقد دل عليها
 كتاب الله تعالى والأحاديث النبوية الصحيحة ؛ والحمل على الحقيقة ممكن ،
 فيجب الإيمان بها بلا تأويل لعدم الحاجة إلى ذلك ، ونعوض حقيقة هذه
 بالصحف تركيفية الكتابة فيها إلى الله تعالى .

الحساب

الحساب معناه لغة العد واصطلاحا توقيف الله عباده في المعشر على أعمالهم
 خيرا ، وبشرها ، فعلا وقولا واعتقادا .

ينبغي أن يعلم الله تعالى بكلامه الذي ليس بحرف ولا صوت ، بأن ينزل
 عنهم الحجاب حتى يفهموا منه ما يريد أن يفهموه ، أو يكلمهم الله تعالى
 بأصوات وحروف يثقلها فيما يشاء ، وقد يكون الحساب من الملائكة ، وقد
 يكون منه تعالى ومن الملائكة جميعا في آن واحد .

وكيفيته متنوعة . فمنه اليسر ومنه العسر ، ومنه السر ومنه الجهر ، ومنه ما
 يكون بعد الفضل ، ومنه ما يكون معه العدل ، وذلك على حسب اختلاف
 الأعمال ، ومنه من تكافؤ الخلق من الإنس أو الجن ، فيكون بعد أنزل الصحف
 لقوله تعالى ﴿فأما من أولى كتابه يمينه . فسوف يخاصب حسابا يسيرا .
 وينقلب إلى أهله مسرورا ﴿ الآية .

وأما الحساب حساب الله تعالى فقط لعمده سرا ، حتى لا يعلم بذلك أحد
 من الإنس والجن ، والملائكة ، ولا يكون الحساب للمصومين ، ولا لمن ورد

استأثروهم في الأحاديث الصحيحة، وهم سبعون ألفاً أفضلهم أبو بكر رضي الله عنه، وقد نطقت النصوص الكثيرة بالحساب، وكذلك الأحاديث من ذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ والآية السابقة، وقوله ﷺ (حاسبوا أنفسكم قبل أن تموتوا) والحكمة في الحساب مع أن الله تعالى عالم بتفاصيل الأعمال إظهاراً لفضائل المتقين وفضائح العصاة على رؤوس الأشهاد تنجيماً لمسرة الأولين وحسرة الآخرين .

الحوض

ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال (حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه أكثر من نجوم السماء، من شرب منه فلا يظأ أبداً)، وأنكر المعتزلة وجود حوض بهذا المعنى، وقالوا إن الحوض عبارة عن نوع من الرضا والرضوان، يتفضل به الله تعالى على من يشاء من عباده، وهذا تأويل ينو عنه لفظ الحديث المذكور، فالحق وجوب اعتقاد أن لبننا ﷺ حوضاً موروداً كما دل عليه الحديث، ولكون ثبوت الحوض بالحديث لم يكفر منكروه وإن فسق .

الصراط

الصراط لغة الطريق الواضح وشراً جسر ممدود على متن جهنم بين الموقف والجنة، يرده جميع الخلاق من المؤمنين والكافرين، للمرور عليه، هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، كما ورد في الحديث الصحيح . وقد ورد أن الملائكة عليه مختلفون، فمنهم من ينجو من الوقوع في النار، وهؤلاء يتفاوتون في سرعة

المردود ويطهه، على قدر تفاهوتهم في الأحمال الصالحة، والإخلاص فيها وإيمانهم من المعاصي، ومنهم من لا يسلم من الوقوع في النار، وهؤلاء يتخلطون أيضا بقدر الجرائم التي ارتكبوها، فمنهم من يخلد في النار، ولا يخرج منها وهم الذين ماتوا على الكفر، ومنهم من لا يخلد وهم عصاة المؤمنين من جميع الأمم، وهم إلى ذلك قوله تعالى ﴿وإن منكم إلا واردة كان على ربك حتما محضاً﴾ ثم انجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جحاً^(١) أى تنجى الذين اتقوا على حسب تفاوت درجاتهم في التقوى، التي أدناها انتفاء الشرك بالله تعالى، وترك الظالمين الذين لم يتقوا أصلاً، وهم الذين ماتوا على الكفر جحاً.

وأنكر المعتزلة وجود الصراط بهذا المعنى، وقالوا إنه بهذا المعنى مستحيل لأنه لو كان على هذا الوصف لا يمكن العبور عليه لأحد، فإجماده عبث، وقال أهل السنة إن وجود الصراط بهذا المعنى من الممكنات العقلية، وقد وردت النصوص القواطع به، فيجب الإيمان به عملاً بالنصوص القطعية، قال تعالى ﴿فاسعوا الصراط﴾ وقال ﴿يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأنتى أول من يمجوز﴾ وكونه أدق من الشعرة وأحد من السيف لا يمنع إمكان العبور عليه عقلاً، غاية أنه مستبعد في العادة، وذلك لا يسوغ تأويل النصوص الواردة فيه، والحق وجوب اعتقاد وجود الصراط عملاً بظواهر النصوص مع تعويض علم حقيقته إلى الله تعالى.

جهادة الأعضاء

جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة بما عمل من خير أو شر، فيجب الإيمان بذلك، قال تعالى ﴿يوم

(١) سورة مريم الآية ٧١، ٧٢.

تهدد عليهم السهم وأرجلهم بما كانوا يعملون^(١) وقال تعالى
﴿وَقَالُوا لِمَلُومُهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهِمْ قَوْلٌ لَوْلَا أَنْطَقَ اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ
شَيْءٍ﴾^(٢).

الشفاعة

الشفاعة لغة هي الوسيلة والطلب، وعرفا سؤال الخير من الخير للغير، وهي
محبة أنيلع .

النوع الأول الشفاعة في فصل القضاء لإزالة الخلق جميعا المسلم وغيره من
طول الوقوف ومشتته، وهي مختصة به ﷺ بالإجماع، فقد ورد أن الناس
يذهبون في هذا الوقت إلى الرسل من آدم إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام؛
يسألونهم الشفاعة في الإنصاف من ذلك الموقف، فكل يبدى حجة يستند
عليها في تأخره عن الشفاعة، إلى أن يذهبوا إلى نبينا محمد ﷺ يسألونه
الشفاعة، فيقول أنا لها أنا لها، فيسجد تحت العرش فيقول الله له ارفع رأسك
وسل تعط واشفع تشفع فيرفع رأسه .

النوع الثاني: الشفاعة في إدخال فريق الجنة بغير حساب، وقال بعض
العلماء إن هذا النوع أيضا مختص به ﷺ .

النوع الثالث: الشفاعة في نهادة الدرجات وهذه ليست خاصة بالنبي
إجماعا وهذه الأنواع الثلاثة لم يخالف فيها أحد من علماء الكلام .

النوع الرابع الشفاعة فيمن استحق دخول النار من عصاة المؤمنين لارتكابه
كبيرة أن لا يدخلها .

(١) سورة النور الآية ٢٤ .

(٢) سورة فصلت الآية ٢١ .

النوع الخامس الشفاعة في إخراج قوم من النار دخلوها لأنكباهم كثير غير الشرك، وهذان النوعان وقع فيهما خلاف بين علماء الكلام، فأنكرهما المعتزلة والخوارج، وكل من قال إن مركب الكيفية مخلد في النار، وقال بهما الأشاعرة والماتريدية والكرامية، وبعض الرافضة.

احجج الفريق المانع بآيات كثيرة جاءت في كتاب الله تعالى قال جل جلاله ﴿لَمَّا تَفْعَمُ شَفَاعَةُ الشَّالِعِينَ﴾ (١) وقال تعالى ﴿يَوْمَ لَا تَنفَعُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُخْرَجُ مِنْهَا شَيْءٌ﴾ وقال تعالى ﴿يَوْمَ لَا تَنفَعُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُخْرَجُ مِنْهَا شَيْءٌ﴾ وقال تعالى ﴿يَوْمَ لَا تَنفَعُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُخْرَجُ مِنْهَا شَيْءٌ﴾ وقال تعالى ﴿يَوْمَ لَا تَنفَعُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُخْرَجُ مِنْهَا شَيْءٌ﴾ وقال تعالى ﴿يَوْمَ لَا تَنفَعُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُخْرَجُ مِنْهَا شَيْءٌ﴾.

والجواب أن هذه الآيات قطعية الثبوت، ظنية الأدلة، لأنها قد عصمت (٢) من الشفاعة لزيادة الثواب فإنها حاصلة للمؤمنين اتفاقاً، والعام إذا دخله التخصيص صار ظنياً، وحجتك يجوز تخصيصه بخبر الأحاد الصحيح، وهو قوله ﴿شَفَاعَتِي لأهل الكبائر من أمي﴾ وقد يقال لهذا الفريق المستدل بالآيات السابق ذكرها، أنه لا يجوز الاختصار على بعض القرآن دون بعض، ولا على بعض السنة دون بعض، ولا على القرآن دون بيان رسول الله ﷺ الذي غاطبه ربه بقوله ﴿فَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾، وقد جاء في القرآن ما يدل على صحة الشفاعة قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ

(١) الآية ٤٨ من سورة الم نشر.

(٢) الآية رقم ٤٨ من سورة البقرة.

(٣) حكاه روث الماوي في النسخين المطبوعين، وأعتقد أن فيها تحريفاً وصواب أن يقال:

لأنها قد عصمت بالشفاعة لزيادة الثواب.

ورضى له قولاً^(١) وقال تعالى ﴿ولا ترفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له^(٢)﴾ وقال تعالى ﴿ما من شافع إلا من بعد إذنه﴾ وغير ذلك من الآيات، وحيث إن القرآن قد اشتمل على آيات في موضوع واحد، بعضها بنفسه، وبعضها بغيره، ولا يمكن أن يكون محط الإثبات والنفي واحداً، لئلا يلزم التناقض في كلام الله تعالى وهو محال، فوجب إذناً أن تكون الشفاعة التي نفاها الباري سبحانه وتعالى غير التي أثبتها، فالشفاعة التي أبطلها هي الشفاعة للكفار المخلدين في النار، أما التي أثبتها فهي لمذنبى أهل الإسلام، وبذلك جاء الخبر الصحيح، قال عليه السلام «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٣).

الجنة والنار

الكلام على الجنة والنار يتحصر في ثلاث نقاط:
الأولى بيان مفهوميهما .

الثانية إثبات وجودهما قبل اليوم الآخر .
الثالثة إثبات كونهما باقيتين لا يفنيان .

المفهوم

الجنة لغة البستان، والمراد بها هنا دار الثواب، التي أعدّها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين .

(١) سورة طه الآية ١٠٩ .

(٢) سورة ساء الآية ٢٣ (٣) حتمت صحيح .

وقد ورد أنها سبع جنان: أعلاها وأفضلها الفردوس، فجنة المأوى، فجنة الخلد، فجنة النعيم، فجنة عدن، فدار السلام، فدار الإجلال. واختار هذا ابن عباس وجماعة.

ولهذه الجمهور إلى أنها أربع فقط، بدليل ما جاء في سورة الرحمن قال تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جتان﴾ جنة النعيم وجنة المأوى، ثم قال تعالى ﴿ومن دونهما جتان﴾ جنة عدن وجنة الفردوس، وقيل الجنة واحدة، والأسماء المتقدمة كلها صادقة عليها، لتحقق معانيها فيها، إذ يصدق عليها أنها جنة عدن أى أقامة، وجنة المأوى أى مأوى المؤمنين، وجنة الخلد ودار السلام، لأنها دار خلود وفيها السلامة، من كل خوف وحزن، وجنة النعيم لأنها مشحونة بأصناف النعيم، ودار الإجلال لأنها دار التعظيم للعباد الصالحين، والحق الذى يجب الإيمان به أن هناك دار ثواب، أعدها الله تعالى للمؤمنين من عباده سماها بالجنة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وأما أنها واحدة أو أكثر فالأسلم الإحصاء عنه، وتفويض علمه إلى الله تعالى، حيث لم يرد في ذلك نص قاطع.

والنار لغة جسم لطيف مرقى يميل إلى جهة العلو، والمراد بها هنا دار العقاب، التى أعدها الله تعالى للعصاة من عباده.

والذى يجب اعتقاده أن الله تعالى دار عقاب، أعدها للعصاة، تسمى نار جهنم لما سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم، وقد قال المفسرون لكل فريق من العصاة باب يدخل منه إلى النار، فباب للموحدين العاصاة، وباب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للمشركين، وباب للمنافقين.

وأما أن سبع طبقات، أو أكثر أو أقل، فلا يجب الإيمان به لعدم ورود نص قاطع يشهد بذلك.

وجود الجنة والنار قبل اليوم الآخر

ذهب جمهور المسلمين إلى أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وذهبت^(١) طائفة من المحلة والخوارج إلى أنهما لا يخلقان قبل يوم الجزاء، فليستا موجودتين الآن.

استدل جمهور المسلمين بدليلين الأول قصة آدَم عليه السلام مع زوجته حواء وإسكانهما الجنة ثم إخراجهما منها بسبب الأكل من الشجرة، وهذه القصة ذكرت في عدة آيات من كتاب الله تعالى، وفيها التصريح بلفظ الجنة، والنتيجة من ذلك اللفظ إنما هو دار الثواب، فيصرف إليه، حيث لا ضرورة إلى المدلول عنه.

وقد جاء في القرآن في وصف جنة آدم ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنْ لَا تَبْلُغَ فِيهَا وَلَا تَضْحَكُ﴾، وجاء في وصف الجنة التي هي دار الثواب ﴿وَلَا يَرَوْنَ فِيهَا كُفًّا وَلَا يَرْهَقُونَ فِيهَا لُبًّا وَلَا يَهُودًا﴾ فإذا نظرت إلى مجموع هذه الأوصاف ترجع عندك أن جنة آدم هي دار الثواب، وإذا ثبت أن الجنة مخلوقة، فالنار أيضا مخلوقة، لأن القائل يخلق الجنة لا قبل يخلق النار، ولكنكر لخلق الجنة منكر لخلق النار، ولا قائل بالفصل.

الدليل الثاني قوله تعالى في الجنة ﴿أُحْدِثُ لِلْمُحْسِنِينَ﴾^(٢) ﴿أُحْدِثُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقوله تعالى في النار ﴿أُحْدِثُ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٣) بصيغة الماضي الدالة على أن كلا من الجنة والنار قد أحده الله وبعثه لاستحقاقه، ولا يبيأ

(١) راجع في ١٠٠ للعرض شرح المؤلف للسيد الشريف ج ٨ ص ٣٠١ وما بعدها وشرح التلخيص للسيد ج ٢ ص ١٦١.

(٢) جوه الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

(٣) جوه الآية ٢٤ من سورة البقرة.

يَتَقَدُّ إِلَّا مَا كَانَ موجوداً، فدلّت هذه الآيات على وجودهما بالفعل، والقول بأنّه
غير بصيغة الماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه، مثل قوله تعالى ﴿أَنِّي أَمُرُّهُ﴾
وقوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ عذول عن الظاهر بدون مقتضى فلا يصار إليه .

وأما المنكرون لوجودهما فمنهم من تمسك بالعقل، ومنهم من تمسك بالسمع
فالتمسك بالعقل قال إن الله تعالى منزّه عن البعث في قوله وفعله، وأفعاله لا
تخلو عن حكمة، لذلك يجب أن لا توجد الجنة والنار قبل يوم الجزاء، لأن
إيجادهما لإثابة المطيع وعقاب العاصي، ولا إثابة ولا عقوبة قبل ذلك اليوم، فلو
وجدنا قبل ذلك اليوم لكان إيجادهما عبثاً، والعبث محال على الله تعالى، فوجب
أن لا يوجد قبل ذلك اليوم .

ويجيب عن ذلك بأن الحكمة في إيجادهما لم تنحصر فيما ذكر، فيجوز أن
يكون خلقهما قبل يوم الجزاء حكمة لم نطلع عليها، وكثير من أفعال الله تعالى
عجزنا عن إدراك حكمتها، ولكن لما دلت النصوص عليها وجب التسليم
والخضوع، وإن لم نفهم الحكمة، فكل ذلك الجنة والنار دلت النصوص
والأحاديث على وجودهما فيجب التسليم .

وأما التمسك بالسمع فقد استدلّ بدليلين الأول قوله تعالى ﴿أَكَلْهَا

دَامِمٌ﴾ مع قوله تعالى ﴿كُلْ شَيْءٌ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ .

ووجه الاستدلال بذلك أن قوله تعالى ﴿أَكَلْهَا دَامِمٌ﴾ معناه مأكول الجنة
دائم لا يلدنه فناء، وقوله تعالى ﴿كُلْ شَيْءٌ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ معناه كل شيء
من المخلوقات يلدنه الملاك لا يموت، ويحتمل يقال إذا كانت الجنة مخلوقة الآن
ويجب أن يلدن مأكولها الملاك، بمقتضى الآية الثانية لاندراجها فيما حكم عليه
بالملاك، ويحتمل لا يكون مأكولها دالماً، ولكن الآية الأولى تبطل هذا، لأنها
صريحة في أن مأكول الجنة لا يلدنه هلاك، فللعمل بالآيتين وعدم التنازع بينهما
ينبغي أن تكون الجنة غير مخلوقة الآن، وإذا ثبت هذا للجنة ثبت للنار .

والجواب أنه لا هـاى لأن المراد ، بدوام مأكول الجنة الدوام البدىل ، بمعنى أنه كلما ضى منه شىء جىء بىءله ، لأن دوام المأكول بعینه لا يتصور ، فإنه متى أكل فى ، وحيث كان المراد الدوام البدىل فلا تنافى بينه وبين الهلاك ، ويحصل أن يكون المراد من الهلاك الهلاك الإءعاءى ، بمعنى أن الممكن لما كان وجوده ضعيفا لاستفادته من الغير ، ألحق بالمالك المملوك ، ويحصل أن يكون الهلاك باقيا على حقيقته ولكنه يكون بتفريق الأجزاء لحظة ثم يعودان إلى ما كانا عليه ، وهذا كاف فى اهلاكما فهىكون الدوام الثانى حاصلًا ، وعليه قوله تعالى ﴿أكلاها دایم﴾ ولللاك الصورى بمعنى تفريق الأجزاء حاصل فى لحظة واحدة ، وعليه يحمل قوله تعالى ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾ .

الدلیل الثالثى قوله تعالى فى وصف الجنة ﴿عرضها السموات والأرض﴾ فهذه الآية بظاهرها تدل على أن عرض الجنة هو السموات والأرض ، فلو كانت الجنة موجودة الآن لكنا فى الجنة ، وهذا باطل .

والجواب عن ذلك أن المراد عرضها كعرض السموات والأرض وقد جاءت آية أخرى فى القرآن فيها التصريح بأن عرضها كعرض السموات^(١) والأرض فحصل الآية المستدل بها على التشبيه كما صرحت به الآية الثانية ، وعلى كل فهذا كتابة عن الاتساع .

بقاء الجنة والنار وعدم هلاكهما

قال صاحب الملل والنحل اتفقت فرى الأمة كلها على أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها ، ولا للنار ولا لعذابها ، إلا جهم بن صفوان وأبا الجذيل العللاف ، وقوما من الروافض ، فأما جهم فقال إن الجنة والنار بفنئان وهنئ أهلهما ، وأما

أبو الهذيل فقال إن الجنة والنار لا يفتنان ولا يفتن أهلها، إلا أن حركاتهم تنفى
 وهيون بمنزلة الجماد لا يتحركون، وهم في ذلك أحياء متلفون، أو مطفون،
 وأما طائفة الروافض فقالوا إن أهل الجنة يخرجون من الجنة، وكذلك أهل النار
 من النار، إلى حيث شاء الله، وليس لطائفة الروافض شبهة، فضلا عن دليل
 يصح أن يكون مستندا لقولهم، فكان قولنا ساقطا عن درجة الاعتبار، أما جهم
 ابن صفوان فاستند إلى قوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وإلى قوله
 تعالى ﴿وأحصى كل شيء عددا﴾ ووجه الاستدلال بالآية الأولى أنها تنبئ
 بمقتضى اشتغالها بمحل أداة العموم أن ما عدا الله تعالى وصفاته سيهلك، ومن
 ضمن ما عدا الله وصفاته الجنة والنار، وما فيها؛ فهما هالكان لا محالة.

والجواب عن ذلك يعلم بالوقوف على معاني الآية المحصلة لها، التي ذكرت
 في مبحث خلق الجنة والنار، ووجه الاستدلال بقوله تعالى ﴿وأحصى كل شيء
 عددا﴾ أنها أفادت أن جميع الأشياء قد أحصاها العدد، وكل ما أحصاه العدد
 فهو ذو نهاية، ومن ضمن ما يصدق عليه الشيء الجنة ونعيمها، والنار وعذابها،
 فيكون كل منهما قد أحصاه العدد فيكون متناهيا.

والجواب عن ذلك أن لفظ (شيء) في الآية معناه الوجود، والإحصاء إنما
 يكون لما خرج بالفعل ووجد، ومعلوم أن ما وجد في الخارج من نعيم الجنة
 وعذاب النار، وما تحقق من الأزمنة يفتن، ولكن يوجد الله تعالى غيوه، فكلما
 فتى نعيم وجد بدله، وكلما مضى زمن خلقه زمن آخر، وسعيد لا تدل الآية
 على فناء الجنة والنار بمعنى انعدامهما.

وأما أبو الهذيل فمستنده أن كل ما أحصاه العدد فهو ذو نهاية، والحركات
 ذات عدد فهي متناهية، والجواب أن الذي يقع عليه العدد هو الوجود بالفعل،
 ونحن لا نتنازع في أن ما وجد بالفعل متناه، ولكننا نقول متبع هذه الحركات
 التي وجدت بالفعل حركات أخرى توجد، وهكذا، وكان اللان لأن الهذيل أن
 يقول في نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار بقوله في الحركات، لأن الموجود منه في

المخرج يتقدم ويصير، ولو كان ما قاله أبو الخليل صحيحا لكان أهل الجنة من طلب دم، وكان حالهم كحال المفلوج، ومن سقى بنجا وهذا شقاء لا يسع .
أما بعد ما اختلفت عليه فرق الأمة الإسلامية فقوله تعالى ﴿عَالَمِينَ﴾ فيها
الهداية وقوله تعالى ﴿لَا يُلَاقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ وإجماع الفرق
المسبوكة بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وقوله تعالى ﴿عَالَمِينَ﴾ فيها
عادات السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد في حق
أهل النار وقوله تعالى ﴿عَالَمِينَ﴾ فيها عادات السموات والأرض إلا ما شاء
ربك عطفه غير مملوذة في حق أهل الجنة، وتعلق الخلود على دوام السموات
والأرض جبراً على عادة العرب من أن الشيء الذي يدوم ولا يتقطع يعلقونه على
دوام شيء، يطول زمنه، أما المشقة المذكورة في صيغة الاستثناء فإنما أتت بها لبيان
أن ذلك الخلود أمره موكول إلى مشقة الله تعالى، وليس واجبا عليه، غاية الأمر
أن ما جاء من الوعد والوعد هو الذي قضى بوجوب الخلود .

الدعوة إلى الإسلام ووجوب تبليغها وحكم من لم تبليغه

الإسلام أو الدين الإسلامي يتكون من أمور ثلاثة: اعتقادات، وأقوال
وأفعال، أوحى الله تعالى بها إلى نبيه محمد ﷺ، وأمره أن يبلغها إلى جميع من
أرسل إليهم، من الإنس والجن، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبُّكَ
شَكُورٌ﴾ وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ
لَمَّا بَلَغْتَ رِسَالَتِي﴾، وتضمن في صحت صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام
أن مما يجب لهم تبليغ ما أمروا به إلى الخلق، كملكك أمر الله وإلى نبيه
محمد ﷺ أن يسلك مع قومه ما يناسب حالهم من البيان وطريق الإنزال .
فالخواص وهم أصحاب النفوس المستعدة لإدراك المعاني الراضية في تحصيل
اليقين، أمر الله نبيه بأن يدعوهم إلى الإسلام، ويقم لهم الحجج القطعية،

والبراهين المصححة، على أنه حق في دعواه، والعلوم وهم أصحاب الطوبى
 الصحفية الاستعداد، شديدة الألف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم
 والمعادن التي لا تقوى على إدراك البراهين إن لم يكن عندهم عناد أمره بأن
 يدعوهم إلى الإسلام ويؤيد دعواه بخطابات المقتعة، والعبر النافعة، وإن كانوا
 معاندين لا تنفع فيهم الموعظة والعبر، أمره بأن يجادلهم بالطريقة الحسنی، وقد
 بينت هذه الطرق الحكيمة في قوله تعالى أمرا لنبيه بالتبليغ ﴿ادع إلى سبيل
 ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ قال بعض
 المفسرين «السبيل» هو الإسلام و «الحكمة» هي الحجة القطعية المزمجة
 للشبه، و «الموعظة الحسنة» هي الخطابات المقتعة والعبر النافعة، و «المجادلة
 بالتي هي أحسن» هي المناظرة مع الرغب واللين، واختيار الوجه الأسر
 واستعمال المقدمات المشهورة .

فهذه الطرق الحكيمة ذكرت في الآية ليختار الداعي إلى الحق منها ما
 يناسب حالة المدعو واستعداده .

وقد مكث النبي ﷺ مدة الرسالة وهو قائم بتبليغ التعاليم كما أمره الله تعالى
 بها .

وهذا التبليغ كما أوجبه الله تعالى على نبيه ﷺ أوجبه على أفراد أمته، ولكن
 على رجة الكفاية إن قام به البعض سقط عن ثباته، قال تعالى ﴿ولكن
 منكم أئمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾^(١) قال
 بعض المفسرين تناول هذه الآية مطالبة أفراد من الأمة بدعوة الناس إلى الإسلام
 واجتناب الشرك، والأمر بنحوه للوجوب، فربما أن يقوم من الأمة الإسلامية
 بالدعوة إلى الإسلام أفراد، حتى يخرج الجميع عن المهلة، ومنى حصول التبليغ
 فلا عذر لأحد ممن يلتزم الدعوة، فإن أبوا دأى الله بنحو من العقاب، وإن
 أعرضوا استحقوا الخلود في النار .

أما من لم تبلغه الدعوة بأن نشأ في مكان منقطع عن العالم وأخباره، فلم يعلم بإرسال نبي يدعو الناس إلى اعتناق دين سماوي، فقد اختلف علماء الكلام فيه من حيث نجاته وعلمها، والخلاف فيه متفرع على الخلاف في مسألة الحسن والقبح، وحاصل ما قيل فيها على الإجمال أن حسن الفعل بمعنى استحقاق فاعله المدح والثواب من الله تعالى، وقبحه بمعنى استحقاق المتصف به الذم والعقاب من الله تعالى، شرعى عند الأشاعرة، بمعنى أن كون الفاعل مستحقا للمدح والثواب أو لضدهما ليس ناشئا عن ذات الفعل، ولا عن صفة فيه، وإنما عرف من أمر الشارع ونبيه، فما أمر به الشارع فهو حسن وما نهى عنه فهو قبيح، ولو فرض وأن الشارع أمر بالمنهى عنه أو نهى عن المأمور به لانعكس الأمر، فلا حسن ولا قبح بالمعنى المذكور في الفعل قبل ورود الشرع. وعند المعتزلة والماتريدية عقل أى لا يتوقف على الشرع، لكن عند الماتريدية لا يستلزم حكما من الله تعالى وعند المعتزلة يستلزم حكما وقد تقدم هذا المبحث مستوفى بأدلة^(١).

وبناء على ذلك الخلاف قالت الأشاعرة إن من لم تبلغه الدعوة لا يؤخذ بشيء (ما) سواء كان من الأصول أو الفروع، لأن الشرع لم يصل إليه، وعند المعتزلة يؤخذ بإتيان الكفر، وإرتكاب ما يستقل العقل بإدراك قبحه، وعند الماتريدية لا يؤخذ، لأنهم وإن وافقوا المعتزلة في أن في الفعل حسنا وقبحا^(٢) بالمعنى المذكور، لكنهم قالوا إنه لا يستلزم حكما، وغاية الأمر أنه يصير موجبا لاستحقاق الحكم من الحكيم فما لم يحكم الله فليس في الفعل حكم أصلا، ولأجل ذلك اشترطوا بلوغ الدعوة في تعلق التكليف، فالكافر الذي لم تبلغه الدعوة غير مكلف بالإيمان، وغير مؤخذ بالكفر في الآخرة، وحيث كان

(١) راجع الجزء الثاني ص ١٤١ وما بعدها من هذا الكتاب.
(٢) راجع ص ١٤١ وما بعدها من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الخلاف في هذه المسألة فرع الخلاف في مسألة الحسن والقبح فالواجب صناعة في بيان المذهب الرجح أن نرجح ما ساعده الدليل في مسألة الحسن والقبح، وقد تقدم أن أرجح المذاهب فيها هو مذهب الماتريديّة، ومذهب الماتريديّة هنا عدم مؤاخضة من لم تبلغه الدعوة فيكون موافقاً لمذهب الأشاعرة فيها، وإن لم يتفق في مسألة الحسن والقبح. أما الاستدلال بقوله تعالى ﴿وما كنا مطيعين حتى نبعث رسولاً﴾ للفرق القاتل بعدم المؤاخضة والاستدلال بالأحاديث الواردة في تعذيب بعض أهل الفترة للفرق القاتل بالمؤاخضة فليس بصحيح، لأن الآية وإن كانت قطعية الثبوت لكنها ظنية الدلالة، كما يعلم بالرجوع إلى ما كتبه المفسرون في بيان مدلولها. أما الأحاديث فإنها أخبار آحاد لا تفيد في المسائل القطعية.

الدعوة إلى الإسلام في الصدر الأول وكتبه ﷺ ورسله إلى الملوك والأمم.

لما بلغ النبي ﷺ سن الكمال وهو أربعون سنة أرسله الله تعالى للعالمين بشيراً ونذيراً، ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ثم أنزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ﴾ الآية فصار لزاماً على النبي ﷺ أن يقوم بما أمره الله تعالى به، ويدعو الناس إلى توحيد الباري سبحانه وتعالى والتصديق برسائه، وترك عبادة الأصنام.

وأرى النبي أنه سيدهو قوماً إلى ترك ما ألفوه وحبب تفكيهم وعكوفهم على عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع.

ولو أنه فاجأهم بذلك وناداهم جميعاً وأنذرهم، وسفه عقولهم، لقاموا في وجهه، وثارَت نفوسهم واستغرتهم الخوة العرية لمأولته في دعوته.

فكر في طريق يسلكه يكون مأمون العاقبة، كغفلا بالوصول إلى الغاية المقصودة من البعثة .

فهذه التذكير إلى اتباع الحكمة والتأني في دعوته ففخرو نفراً ورزق منهم وعرف لهم قوة العزيمة، والميل إلى الحق، فدعاهم إلى الإسلام سرا، فأجابوه منهم السيدة خديجة زوجة رضى الله عنها، والخليفة الأول أبو بكر رضى الله تعالى عنه، والإنسان على كرم الله وجهه وكان إذ ذاك لم يبلغ الحلم، والأرقم بن أبي الأرقم .

وبعد أن آمن أبو بكر رضى الله عنه أخذ يدعو من يتق به سرا فأجابه كثيرون منهم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه، والزبير بن العوام، وكان ﷺ يجمع بهم في دار الأرقم، يعلمهم شئون دينهم، وما يلزمهم لمعادهم ومما شئهم، حتى أصبحوا صالحين للدفاع عن الدين والقيام بشعونه .

مضت ثلاث سنوات من مبدأ رسالته عليه الصلاة والسلام، وهو ماكد على نحو بعض الأفراد ودعوتهم سرا للإسلام، وتعليمهم ما يحتاجون إليه من شئون الدين، وهي مدة كافية في التمهيد للجهر بالدعوة، فلا ضرر حيث في الجهر بها .

لذلك أنزل الله عليه قوله ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فقدم النبي ﷺ إلى قومه بروح قوية، وعزم ثابت، فجهر بالدعوة، فاعتلى الصفا ونادى بطون قريش، فحضر منهم من استطاع الحضور، ومن لم يستطع أرسل رسولا يأتي إليه بالجهر .

فلما التأم عقدهم وقف رسول الله خطيباً بينهم، وشرح لهم دعوته، وأبان لهم أن تعظيم الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ليس من العقل والحكمة، وأنه يجب الخضوع لمخالق السموات والأرض دون سواه، وكان عليه الصلاة والسلام كده الرجاء في أن يجد إقبالا منهم، واستحسانا لما يلقاه عليهم، وهداهم إليه ولكن كان أكثر على خلاف ما يرجوه، فقد تصدى للإجابة نابيا عن لقوم عنه

أولهب وقال «تباً لك ألهنا جمعتا»، وبذلك انفرط عقد الاجتماع فأُنزل الله تعالى في شأنه ﴿بِئْسَ مَا آتَىٰ هَٰؤُلَاءِ مِنْ رَبِّكَ﴾ السورة .

أنزل الله عليه بعد ذلك قوله ﴿وَاللَّهُ عَشْرُونَ﴾ ، فصل بمقتضاها وجمع أقاربه، وخطب فيهم ناصحاً مرشداً، فهدى عنه أبو لهب ونادى في القوم قاتلاً «خذلوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه» فكان أبو لهب سبياً في إفساد هذا الاجتماع كما كان سبياً في إفساد الاجتماع الذي عمل بطرون قريش .

ولا يهولك أيها الناظر ما حصل للنبي في هذين الاجتماعين فظن أنه قد خذل، فإن فيما حصل حكمة عظيمة يدركها التأمل، فإن بدون قريش وأقاربه لو آمنوا بمجرد الدعوة لقال الناس إن قريشاً وآل عمدة يدسرونا، ليتخذوه ملكاً يخضعون به رقاب الناس، ويستذلون أعتاق العرب، وحينئذ تنقل أتباعه، ويكون ذلك مطعناً يتدفع به أعداء الدين الإسلامي، هذا الإعراض عن إجابة النبي ﷺ لم يقدمه عن السر في طريقه، بل استمر في دعوته بأخذهم بمب آهتهم وفسفه عقولهم، ويقول لهم: «أنتم خالفتم دين أبيكم إبراهيم» وأنذرهم سوء المصير، إن لم يقلعوا عن اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله، ثم أخذ يصف آباءهم بدم العقل، وعدم الهداية، فعظم ذلك عليهم، وقالوا لأبي طالب عنه إما أن تكفه أو نازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أسد القرينين، ثم يؤثر هذا على النبي وقال لعمه: «والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

بعد ذلك فكرت قريش في أن تسلك طريقاً آخر للقضاء على هذه الدعوة فهداهم تفكيرهم إلى أمرين:

أولهما: أن يقاطعوا الرسول وأتباعه مقاطعة تامة عامة، وكسروا بذلك وثيقة علقوها في جوف الكعبة تأكيداً لها .

لأنهما: أن يصيبا العذاب فوق رؤوس المستضعفين من المؤمنين، وعلى هذا الأساس ابتدئوا بتفتون خطيئهم، فحرموا معاملة النسي وأصحابه، حتى على الغرياء من مكة، وأبوا أن يبادلهم حتى أنواع الطعام .

والحق بأصحاب المستضعفين أنواع الأذى، ونكلوا بهم شر تنكيل . واستمروا على ذلك ثلاث سنوات، نفلوا فيها ما أقروه بعض غلظة، ولكن هذه القسوة والشفة نبت نفرا من أعظم قريش، وهم هشام بن عمرو، زهير بن أمية، المطعم بن عدي، أبو النجري بن هشام، زمعة بن الأسود إلى أن ما فعل مع محمد وصحبه ظلم وقطيعة ووحشية لا يصح إقراره، فاتفقوا ليلا على نقض الصحيفة، فلما أصبحوا غدا زهير فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال يأهل مكة أنا تاكل الطعام ونلبس الثياب، وينز هاشم والمطلب هلكنى لا يسمعون ولا ينعون والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة .

فعارضه أبو جهل وانتهى الأمر بأن قام المطعم بن عدي وشق الصحيفة . وبذلك استطاع الرسول والذين آمنوا معه أن يخرجوا من تلك الشدة، ولم يكذ الرسول ﷺ يتفلس من تلك الشدة، حتى أصيب بكارثة عظيمة فانتحط الموت عضدين عظيمين له، هما عمه أبو طالب، وزوجه خديجة رضى الله عنها، ففرح أهل مكة بذلك حيث زالت الحجب التي كانت تحول بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، فأقبلوا يلحقون به من الأذى ما يتفنون ظنا منهم أن هذا يقطع عن السر في طريقه .

ومن ذلك أن بعض السفهاء كان يحفر التراب على رأسه إذا مر أمامهم يمشون منه، وبعضهم كان يلقي عليه حال سجوده للصلاة أو ساخ شاة مذبوحة، بعضهم يضع في عنقه ثوبا ويشده ليخفيه، حتى غلبه منهم أبو بكر وقال: «أنتقلون رجلا أن يقول ربي الله» مضت عشر سنوات والقوم بالقبول لى عنادهم وإيثارهم، وإعراضهم، والرسول يستمر فى دعوته، ولا استئناس من إجاباتهم خطر له أن يستعين بهنى ثقيف، فذهب إلى الطائف

مستخفيا وكاشف أهله بملأه وما جاء لأجله، فردوا عليه دعوته وألغوا به سفهاهم، فجمعهم حولهم، وصاروا يقتلونهم بالأحجار ويرمون به، حتى سال منه الدم، فالتجأ إلى بستان في الطريق وألجأ إلى الله، وقال «يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت رب كل من تكلمت إن لم يكن لك غضب عليّ، فلا أبالي» .

بعد ذلك فكر النبي ﷺ في سلوك طريق آخر لنشر دعوته وهو عرض الدعوة إلى الإسلام على القبائل التي تقبل إلى مكة أيام الموسم فأبدا بعضا من جماعهم، الذين لهم دعوته ونعيم حبيته، ولكنه لم يسمع من معارضين له في طريقه من أهل مكة، فصاروا يقولون للوفود هو ساحر، بأن يقول هو سحر، يفرق به بين المرء وزوجه، وبين المرء وأهله، وبين المرء وأخيه، فأثر ذلك في نشر الدعوة ورجعت القبائل إلى مواطنها كما جاءت، ولم يسمع منهم سوى سعة من أهل يثرب منهم جابر بن عبد الله وعقبة بن عامر .

ولكنهم كانوا يخبرون دعوة إلى الإسلام بعد عودتهم إلى يثرب، فانضم إليهم عدد غير قليل، ولما جاء الموسم التالي قدم إلى مكة من المدينة اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج، فاجتمعوا بالرسول وأسلموا، وباعوه على أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بهتان يفترونه بين أنفسهم وأرجلهم ولا يمسونه في معروف، وفي الموسم الثالث وفد على الرسول من المدينة ثلاثة وسبعون رجلا، وامرأتان، فقبلوه وأسلموا، وعاهدوه على أن يكونوا له أنصارا، يمتنعونه مما يمتنعون منه نسائهم وأبنائهم، وبعد عودتهم إلى المدينة انضموا إلى الدعوة هناك .

فلم يخر سوى قليل من الزمن حتى ذكر سواد المسلمين بالمدينة بذلك صارت المدينة محقلا حصينا للإسلام، ومارس أهلها أفعال الإسلام وحياته . عند ذلك استشرت فرس أن النبي أصبح في أئمة يمشون طوره ويحفظونه، ويهتدون بشأن دينه في الجزيرة العربية، فأجمعوا أمرهم بعد تشار

ويبادل في الرأي على قتله، وأن يفرق دمه في القبائل، حتى لا يتمكن بنو عبد مناف من الأخذ بثأره، فيضخون للدية، وبذلك يستريحون وتطمئن نفوسهم فتدبوا من كل قبيلة شابا يمثلها في قتل النسي، وحلوا موعدا لتنفيذ ما ألفوه هذا مكرهم، ولكن لإرادة الله فوق كل لإرادة، فقد أعلم الله نبيه بما دبره الأعداء في سرهم، وأمره بالحقاق ببلد فيها ينشر الإسلام ويكون فيها لرسول الله ﷺ العزة والمنعة، فله تعالى في ذلك حكمة عظمى، فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المخضرون أن قريشا أرادوا ملك العرب، فصدوا إلى شخص منهم، وأوزعوا إليه أن يدعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم.

ول الليلة التي اتفقوا على تنفيذ خطتهم فيها اجتمع الشبان المكلفون بقتل النسي حول باب الدار، ورسول الله داخله، ولما جاء موعد خروجه ﷺ أمر ابن عمه عليا بالمبيت مكانه، ثم غطى عليا بيوته، وخرج على القوم وهو يقرأ ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ فألقى الله عليهم النوم حتى لم يره أحد، وسار في طريقه حتى التقى بصاحبه أبي بكر رضي الله عنه في المكان الذي اتفقا على المقاتلة فيه، فسارا حتى بلغا غار ثور فاختبأ فيه، وحفظهما الله بعنايته من الأعداء، وهذا فشل القوم في تدميرهم.

فخرجوا من الغار وسارا إلى يثرب من طريق غير مألوف للمسافرين، حتى وصلوا، وكان أهل المدينة قد سمعوا بخروج رسول الله ﷺ وطلبوه عليهم، فخرجوا بتظفونه حتى وصل إليهم، فوجدوا ألفوا مؤمنين صادقين، أنصارا مخلصين يؤثرون لإخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وبعد أن استقر بالمدينة هاجر من مكة أهل بيته إليه ونزع المشركون بعض المسلمون من المهاجرة، ولم يكذب رسول الله ﷺ بتفس قلبا حتى ابتلى بيوت المدينة، فقد أظهرها للنبي وأصحابه العداوة والبغضاء، وانضم إليهم سرا قوم لما تجاوز الإسلام حناجرهم وهم المناقضون، فكانوا عوناً لهم على النبي وصحبه، فأصبح للنبي ﷺ أعداء

في مكة وفي المدينة، يقفون في سبيل نشر دعوته، يلحقون الأذى بالمسلمين، فلم يكن بد من الإذن بقتال هؤلاء المناولين للرسول، الواقفين في طريقه، فأخذ النبي في مقاتلة هؤلاء المعاندين، تارة يخرج بنفسه مع المقاتلين وتسمى غزوة، وتارة يرسل عددا من الجيوش من غير أن يكون فيه وتسمى سرية.

استمر في مقاتلة هؤلاء الأعداء إلى أن جاءت غزوة الحديبية، وحصل فيها الصلح على الشروط التي وضعت لذلك فأصبح الطريق بمقتضى هذه المعاهدة مأمونا، وأمكن للنبي أن يتوسع في نشر الدعوة بإرسال الكتب، والرسول إلى الملوك والأئم بدعوتهم إلى الإسلام فأتخذ خاتما من فضة يختم به خطابه، كان نقشه (محمد رسول الله) وأبتدأ سنة ست من الهجرة في مكاتبة الملوك، فكتب إلى القيصر «هرقل ملك الروم» وإلى أمير بصرى، وإلى أمير دمشق، وإلى القوقس وإلى النجاشي وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين وإلى ملكي عمان وإلى غوهم.

وإلى أذكر من بين هذه الكتب كتابه عليه السلام إلى القيصر وإلى القوقس وإلى النجاشي وإلى كسرى ملك الفرس، أما كتابه إلى القيصر فهذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأنبياء، وبأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال: انظروا لنا من قومه أحسننا نسأله عنه، وتآن أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك، فأجاب ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمته سلمهم أيم أقرب نسبا لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فقال أبو سفيان أنا، لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره، فقال قيصر: أدن مني، ثم أمر بأصحابه

فجعلوا حلف ظهره، ثم قال لفرجانه، قل لأصحابه: إنما قدمت هذا أمامكم
لأشأله عن هذا الرجل، الذي يزعم أنه نبي، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا
من رد كنهه عليه إذا كذب، ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال هو
فينا ذو نسب، قال هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله، قال لا، قال هل
كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، قال لا. قال فهل كان من آياه
من مِلك، قال لا: قال فأشرف الناس يتهمونه أم ضغائلهم قال بل ضغائلهم،
قال فهل يزدنون أم ينقصون؟ قال بل يزدنون، قال هل يرتد أحد منهم سخطا
لدينه، قل لا: قال هل ينلر إذا عاهد؟ قال لا، ونحن الآن منه في ذمة لا
ندري ما هو فاعل فيها، قال فهل قاتلتهموه قال نعم، قال فكيف حرركم
وحرره، قل الحرب بيننا وبينه سجال، مرة لنا ومرة علينا، قال فيم بأمركم: قال
يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، ونهى عما كان يعبد آباؤنا، وأمر
بالصلاة والصديق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة.

فقال للملك إلى سائلك عن نسبه فرعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك
الرسول تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله
فرعمت أن لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجلا يأثم بقول قبل
قبله، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فرعمت أن لا،
قلت ما كان ليلر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل كان من
آياه من مِلك، قلت لا، فلو كان من آياه ملك لقلت رجلا يطلب ملك
أبيه، وسألتك أشرف الناس يتهمونه أم ضغائلهم قلت ضغائلهم وهم أتباع
الرسول، وسألتك هل يزدنون أم ينقصون، قلت بل يزدنون، وكذلك الإيمان
حتى يتم، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقلت لا، وكذلك الإيمان
حين يخلف بمشاشه القلوب، وسألتك هل قاتلتهموه فقلت نعم، وأن الحرب
بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسول تبلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك بماذا
أمر، فرعمت أنه يأمر بالصلاة والصديق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء

الأمانة، وسأنتك هل يفتد فذكوت أن لا، وكذلك الرسل لا تضر، فعلت أنه بنى، وقد علمت أنه مبعوث، ولم أعلن أنه فيكم، وإن كان ما كلمتى به حقا فسهلك موضع قدمى هاتين، ولو أعلم أنى أعصم إله لتكلفت ذلك، قال أبو سفيان فعلت أصوات الذين عنده، وكثر لفظهم، فلا أدري ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه، قال لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر، ولما سار قهصر إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له، ثم أمر بأبوابها فأغلقت، ثم قال يامشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتابعوا هذا النبي، فحاصروا حصنة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها مغلقة، فلما رأى قهصر نفرهم، قال ردوهم على، فقال لهم إنى قلت مقالتي أعتبر بها شلتكم على دينكم، فسجدوا له ورضوا عنه، فغلبه حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمته، وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام في كتابه ولكنه رد دحية ردا جميلا.

وكتب عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس أمير مصر من جهة قهصر كتابا أرسله مع حاطب بن أبى بلتعة كتابا قال فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط، وبأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا آلهة من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فأوصله حاطب الإسكندرية فلما قرأه قال ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده فقال حاطب أأنت تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله، فصالح سميت أعزده قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله، حتى رقت الله إليه، قال أعمست: أنت حكيم جاء من عند حكيم، ثم قال قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهد فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر

الضال، ولا الكلفن الكتاب، ووجدت معه آلة النبوة، إخراج المستور والإخبار
بالجوى وسأنتظر ثم كتب رد الجواب يقول فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم، أحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام
عليك، أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد
علمت أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك،
ويحت لك بمجالتين لهما مكان عظيم في القبط، وشباب وأهديت إليك بغلة
تركها والسلام) وكانت إحدى المجالتين مائة التي تسرى بها عليه الصلاة
والسلام، وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت ولم يسلم
للمقوقس، وكتب عليه الصلاة والسلام كتابها إلى النجاشي ملك الحبشة أرسله
مع عمرو بن أمية الضمري قال فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة،
سلام عليك أما بعد فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس،
السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته فلقى ألقاها
إلى مريم البتول الطيبة المحصنة، فحملت بهمى من روحه ونفخه، كما خلق آدم
بيده وإلى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاته على طاعته وأن تتجنى
وتوقن باللهي جاملي، فإن رسول الله وإلى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل،
وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى) فلما وصله
الكتاب أحترمه غاية الاحترام، وقال لعمرو حامله إلى أعلم والله أن عيسى بشر
به، ولكن أصراني بالحبشة قليل، فانتظروني حتى أكثر الأعوان، وأكين القلوب .

وأرسل رسول الله ﷺ كتابا إلى كسرى ملك الفرس مع عبد الله بن
حنظلة قال فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم
فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله
وحده، لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإنني أنا
رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين أسلم

تسلم، فإن آيت فإنما عليك إثم الجوس) فلما وصله الكتاب مزقه استكباراً،
ولما علم النبي ﷺ قال (مزق الله ملكه كما مزق) وقد حصل، فكانت مملكه
أقرب المالك سقوطاً.

أما رسله إلى الأمم ففي السنة العاشرة من الهجرة في شهر ربيع الآخر أرسل
عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد في جمع لبنى عبد المنان بنجران من أرض
اليمن وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاث مرات، فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم
إلهم بعث الركبان في كل وجه يدعوون إلى الإسلام، ويقولون أسلموا تسلموا،
فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجا، فأقام خالد بينهم يعلمهم الإسلام والقرآن،
وكتب إلى رسول الله بذلك، فأرسل إليه أن يقدم بوقدتم قنبل، وحين
اجتمعوا ﷺ قال لهم بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ١٩ قالوا كنا
نجنب ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدا بظلم، قال صدقتم وأمر عليهم زيد بن حصين.

وفي شهر رمضان من هذه السنة أرسل علياً في جمع إلى بني مزجع (قبيلة
يمانية) وعصمه يده، وقال (سر حتى تنزل بساحتهم فدعهم إلى قول لا إله إلا
الله، فإن قالوا نعم، فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك، ولأن يهدي الله بك
رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقتلهم حتى يقتلك) فلما انتهى إليهم لقي
جموعهم فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا ورموا المسلمين بالنيل، فصف على أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن
طلبهم قليلاً، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه، وباهمه رؤسهم، وقالوا
نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فنخذ منها حتى الله، ففعل ثم رجع
إلى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع.

وإن أردت أن تلم بجميع ما وقع من النبي ﷺ مع قومه من تدرجه في
الدعوة إلى آخر حياته فعليك بكتب السير، وبعد وفاة النبي ﷺ جرى الخلفاء
الراشدون في نشر الدعوة للإسلام على طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام،
فانتشر الإسلام في الجزيرة العربية وغيرها.

ظهور الخلاف بعده ﷺ

كان المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ على منهاج واحد في أصول الدين، وفروعه، سوى من أظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً، فقد كان رسول الله الصادق في قوله ينزل عليه الوحي السماوي، مبيناً حكم الله تعالى في جميع الشئون الدينية والأخرية، فيقوم بالتبليغ كما أمره الله، فلم يكن هناك مقتضى لوتورع الخلاف بينهم .

تولى رسول الله ﷺ، وانقطع الوحي، وجذبت حوادث لم يرد فيها نص قاطع، أو وردت فيها نصوص ولكنها خفيت على بعض الصحابة، فاختلقت فيها آرائهم ومبادئهم، فظهر أن الاختلاف بينهم في عصر أبي بكر وعمر وصدر خلافة عثمان رضي الله عنه لم يعتمد الفروع .

فاختلفوا في موضع دفن النبي ﷺ فكان رأى أهل مكة أن يدفن في مكة، لأنها مولده ومبعثه، وقبلته، وكان رأى أهل المدينة أن يدفن بها، لأنها دار هجرته، ودار أنصاره، ورأى آخرون نقله إلى بيت المقدس، لأن قبر جده الخليل عليه السلام هناك، وزال ذلك الخلاف بما رواه أبو بكر رضي الله عنه .

وهو قول النبي ﷺ «إن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون» فدفعوه في حجرته بالمدينة .

ثم اختلفوا بعد ذلك فيمن يكون إماماً وخليفة، يقوم بشئون المسلمين فكان رأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم، ورأى المهاجرين أن يكون الخليفة منهم، لأنهم أول من آمن به، وصبروا على الأذى، وهم قومه وعشيرته، وهم من قرش والعرب لا تدعى إلا لهم، فهم أولي بالخلافة من غيرهم، فأذعنت الأنصار لقرش وحصلت البيعة لأبي بكر رضي الله عنه، ثم اختلفوا بعد ذلك في ثوبت التركات عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكانت السيدة فاطمة ترى

أنها أحق بميراث النبي ﷺ وانتهى الخلاف في ذلك بما رواه أبو بكر رضي الله عنه وهو قول النبي ﷺ :

(نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة). ثم اختلفوا بعد ذلك في وجوب قتال مانعي الزكاة، فرأى أبو بكر وجوب قتالهم، وقال (لو منعوني عقالا مما أعطوا رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه) وخالفه عمر وقال كيف تقاتلهم وقد قال ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها) فقال أبو بكر (ألم يقل إلا بحقها) فس حقيها إنشاء الزكاة، كما أن من حقها إقامة الصلاة. واختلفوا أيضا في نورث الإخوة مع الجسد، وفي أمور كثيرة لا يورث اختلافهم فيها تضليلاً ولا نفسياً، لأنه لم يكن الباعث عليها هوى، ولا مجرد رغبة، بل الباعث إقامة مراسم الدين، والحفاظة على قواعد الإسلام والوصول إلى الحق.

وبعد مضي ست سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه، اختلفوا في أمره، لأشياء حصلت منه، لم يرض عنها بعض الصحابة، وكانت النتيجة لذلك أن قتل عثمان رضي الله تعالى عنه، ثم اتسعت دائرة الخلاف إلى أن تعدت إلى العقائد الدينية، فقد حدث في زمان المتأخرين من الصحابة أن (معد الجهنى) التابعي (وغيلات الدمشقي) ويونس الأسواري أنكروا إضافة الحمر والشر إلى الله تعالى، وقال إن الله تعالى لم يقدر على خلقه شيئاً مما هم عليه، وفي زمن خلافة عليّ كرم الله وجهه، بعد وقوع الحرب بينه وبين معاوية، وحصول التحكيم صرح قوم من جنده بأن التحكيم خطأ، وطلبوا من عليّ أن يفرغ نفسه بالخطأ، بل بالكفر، وكانوا يرون أن الخلافة تكون بالاختيار ولا يتعين كون الخليفة قرشياً، وأن العمل جزء من الإيمان، ومن ذلك الفريق تكون طائفة الحوارج.

كذلك ظهرت بدعة سيفه في أيام عليّ، كان على رأسها عبد الملك (١)، ابن سبأ فقد أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ بالإمامة من بعده وأحدث القول برجعة عليّ بعد موته، ورجعة رسول الله ﷺ، وزعم أن عليا لم يقتل، وأن فيه الجزء الإلهي، وأنه هو الذي يحيى في السحاب، وأن الرعد صوته والبرق ضوؤه، وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملؤها عدلا، كما ملكت جورا، ومن هذا تكونت فرق الشيعة.

ونشأت طائفة المرجعة لما رأت الخوارج يكفرون عليا وعثمان، والقائلين بالحكيم، ورأت من الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان، ومن ناصرهم، وكلاهما يكفر الأمويين وهنهم، والأمويون يقاتلونهم، ويرون أنهم مبطلون، وكل طائفة تدعى أنها على الحق، وأن من عداها كافر، فظهرت المرجعة، تسالم الجميع، ولا تكفر طائفة منهم، وتقول أن الفرق الثلاث: الشيعة والخوارج، والأمويين مؤمنون، وبعضهم مخطيء وبعضهم مصيب، ولنا نستطيع أن نعين المصيب منهم، فلترك أمرهم إلى الله فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فليسوا إذا كفارا، ولا مشركين، بل مسلمين، ونرجى أمرهم إلى الله تعالى الذي يعرف سرائر الناس، ويحاسبهم عليها وأهم ما بحثوا فيه تحديد الإيمان والكفر، والمؤمن والكافر.

الاحتلاف في المشابهة

نزل القرآن الكريم ومن آياته ما يتعلق بالصلاة والزكاة، والصوم والحج، وأحوال القيامة، والجنة والنار، ومنها ما يتعلق بصفات الباري سبحانه وتعالى من العلم والقدر والإرادة وغير ذلك.

وقد ذكر أرباب السمر والحديث الأمور التي كانت الصحابة تسأل رسول الله ﷺ عنها، كالطهارة والعبادة والمعاملات .

ولم يكن من بين هذه الأمور التي سألوها عنها معنى صفة من صفات الباري كذلك لم ينقل أنها كانت موضع بحث لهم، كالأحكام الفرعية، ولا أنهم فرقوا بين كونها صفة ذات، وصفة فعل، وكل ما عرف عنهم في هذا الباب مجازاتهم للقرآن الكريم، مع التنزه وعدم التعطيل، فأثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة، والحياة، والإرادة والسمع والبصر، والجلال والإكرام، وأثبتوا ما أطلقه على نفسه من الوجه، واليد، والاستواء، ونحو ذلك مع نفى مماثلة للمخلوقين .

ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شيء من ذلك الوارد، وكانت كلمة الجميع واحدة، وهى إجراء الصفات كما وردت مع التنزه وعدم التشبيه . ومضى عصر الصحابة والتابعين والشأن في صفات الباري سبحانه وتعالى كما سمعت، إلى أن ظهرت بدعة (جهنم بن صفوان) والمعتزلة في نفى صفات الباري سبحانه وتعالى، ثم حدث بعد ذلك مذهب التجسيم والتشبيه، المضاد لمذهب الاعتزال، الذى تغالى في عقيدته حتى شبه الباري سبحانه وتعالى بمخلقه، إما في الذات وإما في الصفات، متمسكا بظواهر الآيات الدالة على التشبيه، غافلا عن قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء ﴾ ، وكان ذلك بعد المائتين من سنى الهجرة على يد زعيم طائفة الكرامية محمد بن كرام .

عند ذلك قام السلف من أصحاب الحديث، وأخذوا بقرىءن مذهب أهل السنة والجماعة، في متشابهات آيات الكتاب، وأخبار النبي ﷺ، فجرى الإمام أحمد بن حنبل، وداود بن علي الأصفهاني، وجماعة من أئمة السلف على منهج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث، مثل مالك بن أنس، ومقاتل بن سليمان، وسلكوا الطريق الأسلم، فقالوا تؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا تتعرض للتأويل، بعد أن تعلم قطعا أن الله عز وجل لا يشبه شيئا من المخلوقات وجرى غير الإمام أحمد ومن وافقه على منهج آخر، وهو تأويل تلك

الألفاظ المشابهة، وحملها على معنى تحمله، مع التنزيه عن مماثلة الخلق، وكل من الفريقين استند إلى ما يؤيد رأيه، وقد تقدم في مبحث صفات السلوب، بين أدلة كل فريق وبيان مذاهب المجسة والمشبهة مع شبههم، والرد عليهم، نرجع إليه إن شئت .

بدء الكلام في التنزيه

،أصول العقائد مع ذكر أشهر المتصدين لذلك

جاء القرآن الكريم بخبرنا عن أمهات العقائد الدينية، التي يجب على كل مسلم أن يعتقد بها، بحث إذا جعلها لا يكون مسلماً، فبين لنا أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن مشابهة خلقه، وعن النقائص، وأنه قادر مريد، عالم حي، سميع بصير، واحد قديم، باق، وأنه بعث الرسل لمصالح الخلق وأرشدنا إلى ما يثبت ذلك من الأدلة الكونية، في آيات كثيرة، وبلغ النبي ذلك إلى أمته بين ما يحتاج إلى إيضاح .

فأخذ السلف عن الكتاب الكريم، وعن رسول الله ﷺ هذه العقائد، ولم تشق نفوسهم إلى التوسع في البحث فيها، ولا إلى التفصيل .

ولكن عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد واختلفت مشارب الناظرين في ذلك، فمنهم من سار وراء العقل، وأحمل النظر إلى المنقول، كمعبد الجهنى الذي قال إن الله لم يقدر على خلقه الشر وكان ذلك في آخر زمان الصحابة .

مما هم عليه تنزيها له عن الظلم المستحيل عليه تعالى، وكجهنم بن صفوان الذي ظهر أمره قبل المائة من سنى الهجرة، فقد هداه تفكيره إلى

نفى^(١) صفات لله زائدة على ذاته، لأن إثبات صفات زائدة، يؤدي إلى تعدد القدماء .

وأعتقد أن نفى الصفات هو غاية التنزيه، وكالمعتزلة فقد ساروا أيضا وراء العقل فقط، ووافقوا (جهنم بن صفوان) في قوله، وزادوا عليه قولهم إن فعل العبد حاصل بقدرته على الاستقلال، محتقنين أن هذا هو غاية التنزيه .

ومن الطوائف من قام يناضل هاتين الطائفتين، وبثب صفات لله تعالى، زائدة على الذات، متمسكا بظواهر الآيات المشابهة، مهملًا عقله وتفكيكه، فأداه ذلك إلى القول بالتجسيم والتشبيه، وظهر ذلك الرأي على يد زعيم هذه الطائفة (محمد بن كرام) بعد المائتين من سني الهجرة .

ومن هذا يتبين لنا أن الطوائف التي تكلمت في العقائد وتنزيه الباري سبحانه وتعالى لم تسلك طريق الجادة، فإن العقل وحده كثيرا ما يضل، والقل وحده قد يحتمل .

عند ذلك شعر فريق من المتمسكين بطريقة السلف أن الخلاف بين طوائف الأمة قد اتسعت شقته، وأن الحق أصبح في خفاء، وأن ترك هذه الطوائف وأقوالهم يؤدي إلى التلبس على العامة وتفريق الكلمة .

والواجب على من يرى في نفسه القدرة على رد هذه الشبهات وتمييز الصحيح من السقيم، أن يقوم بتفنيد شبه التي استندت إليها الطوائف، وبيان العقيدة الصحيحة وكيف يستدل عليها فقاموا بتفنيد تلك الشبه، وسلكوا طريقا وسطا، فلم يكتفوا بقوة تفكيكهم ولم يقفوا أمام المنقول جامدين، مهملين عقولهم، بل حرصوا على المنقول ونظر فيه، وألوا بكل ما نقل، فوفقوا بين الآيات وبعضها، وكذلك الأحاديث، وأعملوا عقولهم في دائرة محدودة، فكان

(١) هكذا وردت العبارة في النسختين المطبوعتين، وأرى أن الأول أن تكون العبارة فقد حده تفكيكه إلى عدم زيادة صفات لله تعالى على ذاته خوفا من تعدد القدماء .

ذلك موصلاً إلى عقيدة صحيحة موافقة لما كان عليه النبي وأصحابه، أرشدوا إليها العامة. ومن أشهر هذه الطائفة (الحسن البصري) فقد كان له مجلس للتعليم والإفادة بالبحر، يعلم الناس فيه العقائد الصحيحة ويحذروهم من الفتن والشبهات.

الإسرائيليات والقصاصون والوضاعون

الإسرائيليات

هى العقائد غير الإسلامية، والأساطير التى دسها اليهود، ومن اعتنق دينهم من النصارى فى الدين الإسلامى، منذ القرن الأول الهجرى، مثل ما نسب إلى يوسف عليه السلام مع زليخا، وما نسب إلى داود وسليمان عليهما السلام، وما ذكروه فى مدة الدنيا، والأخبار والمغيبات، اعتقادا على كتب أنبيائهم التى دخلها التغيير والتبديل، والأحاديث التى نسبوها إلى النبى ﷺ كذبا .

هذه الإسرائيليات نقلها إلى المسلمين بعض اليهود الذين اعتنقوا الدين الإسلامى غير غلصين، أو كانوا غلصين فى إسلامهم، ولكن علقوا بأذهانهم هذه الأساطير، وهم على دين اليهودية، لأنهم كانوا أميين، فنقلوها إلى المسلمين وتقبلها المسلمون على أنها صحيحة، حتى وصل من أمور المسلمين أنهم اعتمدوا عليها فى بيان معانى آيات القرآن، وتفصيل المجمل منه، فامتثلت كتب التفسير فى القرون الأول بها .

وقد وفق الله تعالى من المسلمين من قام بتمييز الفث من السمين، ونبه الأمة إلى مقدار ضرر الأخذ بهذه الإسرائيليات، والاعتماد عليها، فالواجب على كل مسلم نيلها، لأن منها ما يضر بالعقائد الدينية كتقلهم أن أبواب عليه السلام مرض حتى ظهر اللود فى كل جزء من أجزاء جسمه، وكتبهم الماصى إلى بعض الأنبياء، فإن هذا يخالف ما يجب فى حق الرسل عليهم الصلاة وسلام .

ومنها ما كان من قبيل الرجم بالغيب كالإخبار بمدة الدنيا، واختراع الأحاديث لذلك .

القصاص هو الذي يجلس في المسجد وحوله الناس يذكرهم بالله ، ويروى لهم
حكايات وأحاديث ، ويقصها عن الأمم الأخرى ، وأساطير لا يحمد فيها على
الصدق قبل ما يحمد على الترهيب والترهيب .

وقد استحدث القصص في صدر الإسلام في آخر خلافة عمر رضي الله
عنه ، فقد ورد أن نهما الداري استأذن عمر أن يذكر الناس ، فلم يأذن له ، وفي
آخر ولايته أذن له أن يذكر الناس يوم الجمعة ، قبل أن يخرج عمر ، خشية أن
يدخل في ذلك القصص أساطير ، وبعد موت عمر أذن له عثمان أن يذكر الناس
يومين في الجمعة ، وقد نما القصص واتسع أمره ، لأنه يتفق ويحول العامة ، وأكثر
القصص في الكذب ، حتى إن الإمام علياً كرم الله وجهه لما رأى ذلك طردهم
من المساجد ، واستثنى الحسن البصري لتحريمه الصدق .

وقد عرف من ألقصاصين : الحسن البصري ، وقم الداري ، وكعب الأحبار ،
ورهب بن منه .

أما الحسن البصري فكان شأنه في القصص أن يذكر الناس بهول اليوم
الآخر ، ويخوفهم من العقاب ، ويحذرهم من ارتكاب المنكرات ، ويستخرج
العظة من الحوادث ، ولا يتعرض في وعظه للأساطير .

وأما نعيم الداري فقد كان من نصاري اليمن ، وأسلم سنة تسع من الهجرة وهو
أول من قصر في مسجد رسول الله ﷺ ، ويظهر أنه كان يهدس على الناس ما
ليس في الدنيا ، حتى اجترأ على الكذب على النبي ﷺ فقد روى أن روح بن
زناغ زاره فوجده يتنقش شعراً لقرسه ، وحوله أهله ، فقال له أما كان في هؤلاء
من يكفئك ، قال بلى ، ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من امرئ
مسلم يتنقش شعراً ثم يعلقه عليه إلا كتب الله له لكل حبة حسنة »
وهذا الحديث ظاهر الوضع فإن الجزاء لا يتناسب والعمل .

أما كعب الأخبار فقد كان يهودياً من اليمن، وأسلم في خلافة أبي بكر أو عمر على خلاف في ذلك، وانتقل بعد إسلامه إلى المدينة، ثم إلى الشام، وكان يقص كثيراً وتوسع في نقل الإسرائيليات المخالفة لعقائد المسلمين .

وأما وهب بن منبه فقد كان من أهل الكتاب وأسلم، وروى عنه أخبار كثيرة، وتخصص بتسليق بأخبار الأئمة وقصص الأنبياء .

وهذا القصاص الذي حصل من نبي الداري، وكعب الأخبار، وهب بن منبه وكل أمثالهم أدخل على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية، كما كان بابا يدخل منه على الحديث كذب كثير، وأفسد التاريخ، وأضاع معلم الحق، وأدخل في العفائد ما يقضى العقل باستحاله فكان له أثر غير صالح .

الوضاعون

الوضاعون في اصطلاح المحدثين هم الذين يختلقون الأحاديث ويضيفونها إلى النبي ﷺ كذبا .

الأحاديث المروية عن النبي ﷺ لم تدون كما دُون القرآن، بل اعتمد أصحاب النبي فيها على الذاكرة، وقد نشأ من عدم تدوينها أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث، ونسبته كذبا إلى الرسول، وبخاصة بعد أن كثرت الفتوحات الإسلامية، ودخل في الإسلام من لا يحصى من فارسي، ورومي، وهريري، وبصري، وكان من هؤلاء من لم يتجاوز إيمانهم حناجرهم فقد كان الوضع كفة مزعجة .

والحامل على وضع الأحاديث أمور:

(١) المحصومة السياسية فالمحصومة بين أبي بكر وعلي، ومعاوية، وبين

عبد الله بن الزبير وعبد الملك، ثم بين الأمويين والعباسيين، كانت سببا لوضع
كثير من الأحاديث، فقد وضعت الشيعة أحاديث كثيرة في مدح علي،
وأخبطه بالخلافة، وفضله على سائر الصحابة .

كذلك وضع المتحمون للأمويين أحاديث لتأييدهم، وكذلك المتحمون
للعباسيين، وقد قال ابن عرفة إن أكثر الأحاديث المذكورة في فضائل الصحابة
اختلت في أيامهم، تقربا إليهم بما يظنون أنهم يرغبون به أنوف بني هاشم .

(٢) الخلافات الكلامية فقد كان بعض الفرق الخطابية والرافضة يضمنون
الأحاديث انتصارا لمذهبهم، روى ابن حبان بسنده إلى عبد الله بن يزيد المقرئ
أن رجلا من أهل البصرة رجع عن بدعته، فجعل يقول: انظروا هذا الحديث
عن تأليفه فإننا كنا إذا رأينا رأيا جعلنا له حديثا، وروى الخطيب بسنده
عن حماد بن سلمة قال أخبرني شيخ من الرافضة أنهم كانوا يجتمعون على وضع
الأحاديث، وقال الحاكم كان محمد بن القاسم من رؤوس المرجئة وكان يضع
الحديث على مذهبهم .

(٣) تقرب بعض الناس لبعض الخلفاء والأمراء فقد كان ذلك يحملهم على
وضع أحاديث توافق أفعالهم، فقد ورد أن غياث بن إبراهيم دخل على المهدي
ابن منصور وكان يحبه اللهو بالحمام، فوضع له حديثا (لا سبق إلا في خف
أو حافر أو جناح) فأمر له بعشرة آلاف درهم، فما قام ليخرج قال المهدي:
أشهد أن قتاك قذا كذاب على رسول الله ما قال رسول الله ﷺ (جناح)
ولكنه أراد ليغرب إلينا .

(٤) تساهل بعضهم في باب الفضائل والترغيب والترهيب، ونحو ذلك، مما
لا يترتب عليه تحليل حرام أو تحریم حلال، وقد جوزت الكرامية الوضع في هذا
الباب، وقالوا إن قول النبي (من كذب علي متصدنا) معناه أن يقول إنه
شاعر، أو مجنون، وهذا مخالف لإجماع المسلمين، وهذا التساهل أداهم إلى

وضع أحاديث كثيرة في فضائل الأشخاص، حتى من لم يروه النبي ﷺ،
وفضائل آيات القرآن وسوره، كالذى روى عن أبى عصمة نوح بن أبى مریم أنه
وضع أحاديث في فضائل القرآن وسوره، بعنوان أن من قرأ سورة كذا فله
كذا، وروى ذلك عن عكرمة عن ابن عباس، وثارة يروى عن أبى بن كعب،
ولما سئل من أين هذه الأحاديث ١٩ قال رأيت اشتغال الناس بفقه أبى حنيفة،
ومغازى ابن إسحاق، وأعرضوا عن حفظ القرآن فوضعت هذه الأحاديث
حسبة لله تعالى .

وبالجملة فالوضع في الأحاديث أدخل على المسلمين أمورا كثيرة؛ ليست من
دينهم، بعضها يرجع للعقائد، وبعضها يرجع لتحليل المحرم وتحريم الحلال،
وبعضها يرجع لتفضيل الأشخاص، وغير ذلك، وجرى الله نقاد الأحاديث خوفا
فقد اشتغلوا بالتنقيب عن هذه الأحاديث الموضوعة، وصنفوا فيها كتباً خاصة
بها وذكرها أمورا تدل على الوضع، منها إقرار الراوى بوضع الحديث، الذى رواه
ومنها الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير، أو الوعد العظيم على الفعل
الحقير، ومنها كون الراوى رافضياً، والحديث في فضائل أهل البيت، ومنها كون
الحديث لدلالة (١) الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى، ومنها
ركعة المعنى .

(١) مكملاً ورد التصريح في المصحفين للطبوعين، وهو أن الكلام فيه تحريف والأولى أن يقال:
ومنها كون الحديث يمازى دلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة... الخ.

الحملات الحربية على الدين الإسلامى

في الصدر الأول وعلاقته بالعقائد

ذكر محمد صديق حسن خان في كتابه (غيفة الأكيوان في افتراق الأمم على الملعب والأديان) إن الفرس بلغت من سعة الملك، وعلو اليد، على جميع الأمم، ووضحة الشأن، أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكنوا يحدون سائر الناس عبدا لهم، فلما امتنوا بزوال دولتهم على أيدي العرب . وكانت العرب في نظر الفرس أقل الأمم خطرا عظم الأمر عليهم، وتضاعفت لديهم المصيبة، وأرادوا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يظهر الله تعالى الحق، تنصر المسلمين عليهم وتدخلهم، فلم يصلوا إلى غرضهم، فرأوا العنود عن الحرب إلى حملة أخرى توصيلهم إلى تفريق كلمة المسلمين، وإفساد عقائدهم بهلك تلك تضمحل دولتهم وتزول .

أظهر فريق منهم الإسلام واختلطوا بالمسلمين، واستألفوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، واستبشاع ظلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى، حتى أخرجوهم عن طريق المهدي، فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا يتظر، يدعى المهدي، عنده حقيقة الدين، فهو الذي يأخذ^(١) عند الدين، أما الصحابة الذين ليسوا من آل البيت فهم كفار، لا يصح أن يأخذ عنهم الدين، ولهم خرجوا إلى القول بأدعاء النبوة، ولهم سلكوا بهم إلى القول بالحلول وسقوط الشرائع، وآخرون تلاصقوا بهم فأوجروا عليهم محسن صلاة في كل يوم وليلة، وآخرون قالوا بل هي سبع عشرة صلاة في كل صلاة خمس عشرة ركعة .

(١) مكلا في تصنيف الطويحي وروى الصواب: يؤخذ من الدين بسبع عشرة .

وقد أظهر عبد الله بن سبأ المسيوى اليهودى الإسلام لكيد أهله ، فكان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وقد أحرق على كرم الله وجهه منهم طوائف قالوا بألوهيته ، ومن هذه الأصول حدثت الإنماعيلية الفائلين بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر ، وحدثت أيضا القرامطة وهم الذين يؤولون شرائع الإسلام ، ويصرفونها عن ظواهرها ، إلى أمور زعموها من عند أنفسهم ، ويؤولون آيات القرآن تأويلا بعيداً ، يتحلوه من عند أنفسهم اه .

ومن ذلك يعلم أن الفتن التى انتشرت بين المسلمين من عهد عثمان رضى الله عنه وأوجبت ضعفهم وفرقت كلمتهم ، حتى فى العقائد ، إنما نشأت من عمل الذين تظاهروا بالإسلام من النرس ، واليهود ، فقد دسوا على المسلمين شيئاً كثيراً استحسنته قصار النظر ، فاعتنقوه بينهم ، حتى تكونت بذلك فرق شتى ، كل فرقة تكذب الأخرى ، أو تكفرها ، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمع كلمة المسلمين على الحق .

جهود المعتزلة وإمام أبو الحسن الأئمة

لما مضى وشرح طريقته

المعتزلة فرقة من الفرق التي لها شأن في علم الكلام، وأراء في الإلهيات ومقدماتها، ومناصب في السمعات، ولقبت هذه الفرقة بالجهمية والقدرية، كما لقبت بالمعتزلة، أما تلقيبهم بالجهمية فلأنهم واقفونهم في نفى الصفات عن الله، ولعل القرآن، وقولهم إن الله لا يرى، وأما تلقيبهم بالقدرية فلأنهم واقفونهم في قولهم إن الإنسان قدرة، توجد الفعل بانفرادها، واستقلالها، دون الله تعالى ونفوا أن تكون الأشياء بقضاء الله تعالى وقدره .

وأما تلقيبهم بالمعتزلة فذهب بعض الكتاتيب إلى أنه لئن من أن واصل بن عطاء كان مجلس إلى الحسن البصري، فدخل رجل وسأل الحسن فقال بالإمام الدين: ظهر لي زمانا جماعة يكفرون صاحب الكيفية، معنى وعبدية الخوارج، وجماعة أخرى يرجعون صاحب الكيفية ويقولون لا تضر مع الإيمان مصيبة، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف تحكم لنا أن نعتقد في ذلك فتفكر الحسن، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكيفية مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، ثم قام إلى أسطوانته من أسطوانات المسجد، وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن، أن مرتكب الكيفية ليس بمؤمن، ولا كافر، وثبت له الترتيب بين المرتبين قائلا إن المؤمن اسم مدح، والفاقد لا يستحق المدح، فلا يكون مؤمنا، وليس بكافر أيضا لإقراره بالشهادتين، ولوجود سائر أعمال الخير فيه، فإذا مات بلا توبة خلد في النار، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير، لكن يخفف عليه. فقال الحسن قد اعتزل عنا واصل، فسمى هو وأصحابه معتزلة .

وذهب البعض إلى أنهم محموا معتزلة لأنهم اعتزلوا قول الأمة، وقيل سموا معتزلة لقولهم إن صاحب الكيفية اعتزل عن الكافرين والمؤمنين .

وهذه التسمية لم يمرض عنها كثر منهم، وكانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، أما العدل فلأنهم نزهوا الله تعالى عما يقوله خصومهم، من أنه قدر على الناس المعاصي، ثم عذبهم عليها، وقالوا إن الإنسان حر فيما يفعل، ومن أجل هذا عذب على ما يفعل، وهذا عدل، وأما التوحيد فلأنهم نفوا صفات الله تعالى وعدلوا القول بها تعديدا للإله، وقد اشتهر من أوائل الداعين إلى الاعتزال (واصل بن عطاء وعمر بن عبيد) فأما واصل فكان من الموال ولد في المدينة سنة ٨٠ هـ ثم انتقل إلى البصرة. وجمع من الحسن البصري وغيره وثق سنة ١٣١ هـ.

وأما عمرو بن عبيد فهو من الموال أيضا، وتلمذ للحسن البصري واعتنق رأى واصل بن عطاء في الاعتزال، وقد نشأ الاعتزال بالبصرة وانتشر في العراق واعتنقه من خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد وفي العصر العباسي تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان: مدرسة البصرة ومدرسة بغداد.

وكان أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري قد أخذ عن أبي علي محمد بن عبد الوهلب الجبائي، ولزمه عدة أعوام، واعتنق مذهب الاعتزال عدة سنين، حتى صار من أئمة المعتزلة، ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة، وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا، ونادى بأعلى صوته من عرسي فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان ابن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد الرد على المعتزلة، مزين لفضائلهم ومعاليتهم. وأخذ من حيث في الرد عليهم وصف كتب كثيرة في الرد عليهم وبيان عقيدته التي اعتنقها.

وجملة عقيدته حدوث العالم، ووجود الباري، وأنه لا خالق سواه، وأنه قديم متصف بالعلم والقدرة، وسائر صفات الجلال، لا شبه له ولا ضد، ولا ند له ولا يمل في شيء، ولا يقوم بذاته حادث، ليس في شيء، ولا جهة، ولا يصح عليه الحركة والانتقال، ولا الجهل، ولا الكذب، ولا شيء من صفات النقص،

مرئ للمؤمنين في الآخرة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، غنى لا يحتاج
 لشيء ولا يجب عليه شيء، إن أناب فبفضله، وإن عاقب فبعدله، لا
 غرض لفعله، ولا حاكم سواه. لا يوصف فيما يفعل أو يحكم بمجور ولا ظلم،
 وهو غير متحيز، ولا له حد، ولا نهاية وله الزيادة والنقصان في مخلوقاته، والمعاد
 الجسماني حق، وكلنا المجازاة، والمهابة والصراط، والميزان، وخلق الجنة والنار،
 وخلق أهل الجنة فيها، وخلق الكفار في النار، ويجوز العفو عن المذنبين،
 والشفاعة حق، وحق الرسل بالمعجزات حق من آدم إلى محمد، والإمام يجب
 نصبه على المكلفين، والإمام الحق بعد رسول الله أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان،
 ثم علي، والأفضلية بهذا الترتيب، ولا نكفر أحدا من أهل القبلة، إلا بما فيه
 نفى للصانع القادر العليم، أو شرك، أو إنكار للنبوة، أو إنكار ما علم بحججه
 التي به ضرورة، أو إنكار لجمع عليه قطعا، كاستحلال المحرمات المجمع على
 حرمتها، وكان الإجماع قطعا.

هذا يحمل عقيدة الأدهري، وهي عقيدة السلف من المحدثين وأهل السنة
 والجماعة.

ترجمة الفلسفة اليونانية وظهور أثرها في العقائد وامتزاج مسائلها وطريقة التأخيرين في ذلك .

ذكر علماء التاريخ أن المأمون أحد خلفاء بني العباس عرف عنه سعة العلم وحرية الفكر، وميله إلى القياس العقل، فلم ير بأساً من نقل علوم اليونان إلى اللغة العربية، فابتدأ بترجمة كتب الفلسفة، وكلف من يقوم بذلك. وعلوم الفلسفة كثيرة بهنس منها في بحثنا الآن: علم الطبيعيات وعلم الإلهيات .

أما علم الطبيعيات فهو الباحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية، والعنصرية، وما يتولد منها، من حيوان وإنسان، ونبات، ومعادن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب، والبخار، والرعد، والبرق، والعواصف، وفي النفس الإنسانية والحيوانية والنباتية .

وأما علم الإلهيات فهو الباحث عن الوجود المطلق، فيبحث أولاً في الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات، من الماهية والوحدة والكمية، والوجوب والإمكان وغير ذلك، ثم ينظر في مبادئ الموجودات، وأنها روحانيات، ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها، ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدأ .

ولما نقلت كتب الفلسفة إلى اللغة العربية أعجب بها فلاسفة الإسلام وخاصة ما نقل عن أفلاطون وأرسطو فأقبلوا عليها، واشتغلوا بها، واستحسنوا كثيراً من مبادئها المستمدة من العقل المحض، فدافعوا عنها، ولم يكتفوا بذلك، بل زججوا بأنفسهم في المازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين، مؤيدين مزاعمهم بالأدلة العقلية، التي اشتملت عليها هذه الكتب المعربة . ومن أشهر فلاسفة الإسلام الذين اشتغلوا بهذه الكتب وعكفوا عليها

أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ وأبو علي بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ .
هذا الطريق الذي سلكه فلاسفة الإسلام كان سببا في تغير طريقة التنزيه
في علم الكلام، والتوسع في مباحثه، وخلط مسائله بمباحث الطبيعيات
والإلهيات .

قد ذكر ابن خلدون في مقدمته، والأستاذ الإمام في رسالة التوحيد ما يفيد
أن السلف نظروا في القرآن الكريم، فرأوا فيه آيات كثيرة تدل على تنزيه الباري
سبحانه وتعالى، عن النقائص، وعن مشابهة خلقه، ورأوا آيات أخرى ظاهرها
يوهم التشبيه، في الذات، وأخرى ظاهرها يوهم التشبيه في الصفات، فغلبوا أدلة
التنزيه لكبريائها، ووضح دلائلها، وجزموا باستحالة التشبيه وصرفوا آياته عن
ظاهرها، ووضوا علم المراد منها إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يتعرضوا لتأويلها .
وشذ عن رأى السلف مبتدعة، اتبعوا ما تشابه من الآيات، وتوغلوا في
التشبيه، واخرقوا فيه، فغلب بعضهم إلى التشبيه في الذات، وذهب بعضهم
إلى التشبيه في الصفات .

ولما كثرت العلوم والصنائع وبلغ الناس بالتدوين والبحث، وألف المتكلمون
في التنزيه، حدثت بدعة المعتزلة في تعميم التنزيه، المستفاد من آياته، فقالوا
بنفي صفات المعالي، حتى لا تتعدد القدماء، وقضوا بأن القرآن مخلوق .

فكان ذلك سببا لاهتمام أهل السنة بإقامة الأدلة العقلية على عقائدهم،
وبإبطال هذه البدع، وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن
الرابع الهجري، وسلك مسلكا وسطا، فنفى التشبيه، وأثبت صفات المعالي
بطريق النقل والعقل، ورد على المبتدعة فيما ابتدعوه، وفيما مهدوه لأفهامهم من
القول بالصلاح والأصلح، والتحسين والتفويض العقلين، وأكمل العقائد بالكلام
في البعث وأحوال الجنة والنار، والثواب والعقاب، ثم ألحق بذلك الكلام في
الإمامة لأجل الرد على بدعة الإمامية، ورأيهم في الإمامة، حيث اعتقدوا أنها
من عقائد الإيمان .

وسموا مجموع هذه المباحث (علم الكلام) واتقنى طريقة الأشعرى تلاميذه
كابن مجاهد وغيره .

ونصره جماعة من أكابر العلماء، كإمام الحرمين، والأسفرائيني، وأبى بكر
الباقلاني، وسموا رأيهم بمذهب أهل السنة والجماعة، غير أن هؤلاء المناصرين
لمذهب الأشعرى بعد تقريرهم ما بهى عليه رأيهم، من نوايس الكون، أوجبوا
على المعتقد أن يؤمن بتلك المقدمات ونتائجها، كما يجب عليه اليقين بما تؤدى
إليه من عقائد الإيمان، ذهابا منهم إلى أن عدم الدليل يؤدى إلى عدم الدلول،
ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالي والإمام الرازى، ومن أخذ
مأخذهم، فحالفوهم في ذلك وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر
بطلانها، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها، فلا وجه للحجر في
الاستدلال .

كما أنهم أغلوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات، وما
يتصل بها من الأمور العامة، وأحكام الجواهر، والأعراض، ومذاهبهم في المادة
وتركيب الأجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بعلم الكلام، بمس شيئا من مبادئ
الدين، واشتدوا في نقله، ثم توغل المتأخرون من بعدهم في الجرى على
طريقهم، وخلطوا بمباحث علم الكلام بمباحث العلم الطبيعي، والإلهيات،
وجعلوا جميعها علما واحدا، حتى التبس الأمر على الناظر في كتب التوحيد،
التي وضعها المتأخرون، مثل كتب البضاوى^(١) والعضد، فظن أن جميع
المباحث الموجودة في هذه الكتب من مسائل علم الكلام، وليس كذلك عما
علمت .

(١) قصد بكتب البضاوى كتابه للسى طبع الأنيز . قصد بكتب (العضد) كتابه
السى للوفد في علم الكلام، وكتاب السى (العقائد العضدية).

أظهر الفرق الإسلامية في المسائل الاعتقادية

رؤوس الفرق الإسلامية بحسب: أهل السنة، الخوارج، الشيعة، المرجئة، المعتزلة .

أما أهل السنة فهم أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي ومن سلك طريقهما، وهؤلاء لم يفترقوا إلا في أمور بسيرة مثل كون الإسم عين للسمى أو غيوه، ومعنى القضاء والقدر، وكون وجوب الإيمان بالفعل أو بالشرع، ومفهوم الإيمان وغير ذلك من الأمور، التي تقع عادة بين أهل الطريقة الواحدة، ولا تقتضي تخلفاً في المذهب . ولذلك لم يعرف أن أحداً من علماء الكلام أو من المزيهين جعل أهل السنة فرقتين، بل كلمة الجميع على أن أهل السنة والأشاعرة والماتريدي فرقة واحدة، وطريقتهم هي ما عليه النبي ﷺ وأصحابه، فقد سلكوا في إثبات العقائد مسلكاً وسطاً، جمع بين العقل والنقل كما يعلم ذلك بالاطلاع على ما دون في الكتب الموضوعة لنقل مذهبهم .

الخوارج

لما اختلف معاوية مع عليّ كرم الله وجهه ونشب القتال بينهما في وقعة (صفين) وأحس معاوية وصحبه بالهزيمة، طلب من عليّ تحكيم كتاب الله تعالى بينهما، فاختلف أصحاب عليّ في قبول طلب معاوية، وبعد تردد وجدال بينهم قبل عليّ التحكيم، فاختار أبو موسى الأشعري ليكون مثلاً لعليّ وقومه، واختار عمرو بن العاص ليكون مثلاً لمعاوية وصحبه، في ذلك الوقت قام فريق من جند عليّ، وأظهروا عدم انرضا عما فعله عليّ، وقالوا إن التحكيم خطأ لأن حكم الله في الأمر واضح، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من الممارين أيضاً الحق، وهنا الشك لا يصحح، لأنهم لم يماروا إلا وهم موقنون أن الحق في

جانهم ، وقالوا لا حكم إلا لله ، وطلوا من على أن يقر على نفسه بالخطأ ، بل بالكفر لقوله التحكيم ، كما طلبوا منه الرجوع عما أبرمه مع معاوية من الشروط ، فإن أجابهم إلى ذلك عادوا إليه وفانلقا معه ، وإلا فلا ، فلم يجيبهم على كرم الله وجهه إلى طلبهم لمصلحة ظهرت له .

ولما بشوا من رجوع على وصبه إلى رأيهم أجمعوا أمرهم على الخروج إلى قرية قريبة من الكوفة ، نسي حروراء ، وسما حين ذاك بالحرورية نسبة إلى هذه القرية ، وسما أيضا بالهكمة أى الذين يقولون لا حكم إلا لله ، وسما أيضا بالخوارج لأنهم خرجوا على على كرم الله وجهه وصبه ، وسما أيضا بالشرأة أى الذين باعوا أنفسهم لله وأخذوا بنشرون تعاليمهم ، فتكلموا أولا فى الخلافة ، وقالوا بصحة خلافة أى بكر وعمر ، وبصحة خلافة عثمان سبه الأولى ، ولما غير وخالف طريقة أى بكر وعمر ، وأتى بما أتى من تقديم أقرابه ، وغير ذلك وجب عرله ، وأقرروا بصحة خلافة على ، ولكنهم قالوا أخطأ فى التحكيم ، وحكموا بكفره لما حكم ، وطعنوا فى أصحاب الحمل ، طلحة والزبير ، وعائشة ، كما حكموا بكفر أى موسى الأشعري وعمر بن العاص .

واتفق جمهورهم على نظريتين الأولى : أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختار الإمام فليس له أن يتناول أو يحكم ، وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيا ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب عليه أن يخضع خضوعا تاما لأوامر الله ، وإلا وجب عزله . النظرية الثانية فى العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وغيرهما سبزه من الإيمان وليس الإيمان الاعتقاد بالله وحده .

ثم تفرقا بعد ذلك ، إلى فرق كل فرقة تحالف الأشعري فى بعض تعاليمها بملت من المسلم ، وإذا اختار الإمام فليس له أن يتناول أو يحكم ، وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيا ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب عليه أن يخضع خضوعا تاما لأوامر الله ، وإلا وجب عزله . النظرية الثانية فى العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وغيرهما سبزه من الإيمان وليس الإيمان الاعتقاد بالله وحده .

ومن أشهر فرقهم النجدات التابع نجدة بن عامر ، وأهم تعاليمه التي انفرد به أن الدين أمران : معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، وما عدا ذلك فالتناس معنويون يجهله إلى أن تقوم عليهم الحجة ، وإن من أداه اجتياحه إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور ، ومن أشهر فرقهم الإباضية نسبة إلى رئيسهم عبد الله بن أباض الحميري ، ومؤلا لم يتغالوا في الحكم على مخالفهم ، كالأزارقة ، بل قالوا بكل مناهكة غيرهم من المسلمين وتوارث الخارجي وغيره .

الشيعة

الشيعة هي طائفة تغالت في حب آل البيت ، ووصل بهم التغالى إلى الخروج عن حد الاعتدال .

كانت البصرة الأولى لهذه الطائفة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة رسول الله ﷺ أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه ، وأولى أهل البيت العباس عم النبي ، وعلى ابن عمه ، وعلى أولى من العباس ، لأمرين :

الأول أنه من السابقين إلى الإسلام ، وزوج فاطمة بنت رسول الله ، والثاني أن كفاية الشخصية وفضله وعلمه ، وجهاده ، لا يمكن لأحد أن ينازع فيه ، أو ينكره ، ثم تمت هذه الفكرة بمرور الزمان ، وبالطاعن في عثمان ، ولكنها لم تصل إلى حد تكفير أصحاب رسول الله أو رفع على إلى مقام النبوة ، أو الأولوية ، بل زالت على هذا الحال إلى أن كثرت الفتوحات الإسلامية ، وبسط المسلمون سلطانهم على جهات كثيرة ورأت الأمم الأخرى مثل : الفرس واليهود والنصارى أن دولهم على شرف الضعف أو الزوال ، وأن مجدهم سائر إلى الغناء ، فشرعوا يميلون للإسلام والمسلمين ، فلم يروا أنجح في ذلك من التظاهر باعتراف الإسلام ، واتخاذ حب آل البيت ستاراً ، يضعون وراءه كل مذهب شاعت له أمولهم ، وسلكه لهم نفوسهم ، مما يؤدي إلى هدم دين الإسلام والتليس على

المسلمين في عقائدهم، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول برجعة على آل الدنيا، وقال الشيعة إن النار محرمة على الشيعة إلا قليلا، كما قال اليهود: لن نحسنا النار إلا أهماما معدودات، والنصرانية ظهرت في قول بعضهم أن نسبة الإمام على آل الله كنسبة المسيح إليه، وقالوا إن اللاهوت اتحد بالإنسوت في الإمام، وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبدا، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي، ونحت التشيع لآل البيت ظهر القول بتناسخ الأرواح، وتجسيم الإله والحلول، وتستر بعض الفرس بالشييع وحاربوا الدولة الأموية، ولم يكن لهم حامل على ذلك إلا كراهيتهم للعرب ودولتهم.

كذلك نحت سائر التشيع وضعت أحاديث كثيرة، بخصوص التوبة بشأن آل البيت، لا يعرفها رجال الحديث، ولا يقولون بها، كما حصل تأهليل لبعض الآيات، والأحاديث تنبر عنه الألفاظ والتراكيب.

وأساس نظرية الشيعة محصورة عندهم في آل البيت، والإمام عندهم بعد النبي ﷺ الإمام على، ثم تسلسل بعده الإمامة في آل البيت على خلاف بينهم في الترتيب، والاعتراف بالإمام، وأن الطاعة له جزء من الإيمان والإمام في نظرهم ليس كما ينظر إليه أهل السنة فعند أهل السنة الإمام نائب عن صاحب الشرعة في المحافظة على أركان الدين، وإقامة حدوده، وتنفيذ أحكام الشرعة الفراء، ليس له سلطة تشريعية.

أما عندهم فالإمام أكبر معلم، فالإمام الأول وهو على كرم الله وجهه قد ورث علوم النبي ﷺ، وهو معصوم من الخطأ، وهزغون أن العلم نوعان: علم الظاهر، وعلم الباطن، وأن النبي علم هذين النوعين، ليس وأطلعه على أسرار الكون، وخفايا المغيبات، فهو بعلم باطن القرآن وخائره. وكل إمام بعلم سر. يأتي بعد هذه العلوم، فقد اختصت هذه الطائفة في شأن الأئمة وتسلسل اختلافات كثيرة، حتى وسئل عدد فرغوا إلى عشر من كتاب الاستغفار في الحنفية (الترغيب). يوم الأربعاء.

وبلغ هذه الفرق أربع الزهنية والإمامية والكيسانية والغلاة .

أما الزهنية فهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن عليّ كرم الله وجهه ، هؤلاء تفرقوا إلى ثلاث فرق أشهرها الجارودية ، والسلحانية . أما الجارودية أصحاب أبي الجارود فيعتقدون أن النبي نص على إمامة عليّ وصفاً لا تسمية ، ويقولون إن الصحابة كفروا بمخالفته ، والإمامة بعد الحسن والحسين شوري في أولادها .

وأما السلحانية أصحاب سليمان بن جريرة فقالوا الإمامة شوري فيما بين الخلق وتعتقد برجلين من خيار المسلمين ، وتصح إمامة المفضل مع وجود الأفضل ، ولذلك صحت إمامة أبي بكر وعمر ، مع كون عليّ أفضل منهما ، وكفروا عثمان وطلحة والزبير وعائشة .

وأما الإمامية فقالوا إن محمداً ﷺ نص على خلافة عليّ ، وقد اغتصبها أبو بكر وعمر ، وتبرأ منهما ، وقدحوا في إمامتهما ، وجعلوا الاعتراف بالإمامة جزءاً من الإيمان ، وقد تفرقت هذه الطائفة إلى خمس عشرة فرقة منها الأثنى عشرية والإسماعيلية أما الأثنى عشرية ، فهم الذين يمسلمون الأئمة إلى اثني عشر إماماً وأن الإمام المنتظر هو الثاني عشر من نسله إلى عليّ كرم الله وجهه .

وأما الإسماعيلية يعرفون بالقرامطة فأصل دعوتهم قائمة على إبطال الشرائع وتأجيل النصوص الواردة في العبادات ، كقولهم : الوضوء عبارة عن موالاة الإمام ، والصلاة عبارة عن التاطق الذي هو الرسول ، بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَكُنْ عَنِ الْمَشَاءِ وَالنَّكَرِ﴾ .

وأما الكيسانية فهم أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي أخذ بثأر الحسين رضي الله عنه ، ويقال له كيسان ، وقد اخترت هذه الطائفة إلى فرق يجمعها شيان أحدهما قولهم بإمامة محمد بن الحنفية لانيهما قولهم بجواز البدء على الله عز وجل وأما الغلاة فقد تفرقوا إلى فرق كثيرة أشهرها السبائية وهم

• المرجئة •

المرجئة هي الطائفة التي أُرْجأت أمر المختلفين من الصحابة الذين تقاتلوا إلى يوم القيامة، فلم تُحكَم بخصاً مريق، وإصابة آخر، نشأت هذه الطائفة لما رأت الخوارج يكفرون علياً وعثمان والقائلين بالتحكيم، ورأت من الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان، ومن ناصرهم، وكلاهما يكفر الأمويين وبلغهم، والأمويون يقاتلونهم ويرون أنهم مبطون .

وكل طائفة تدعى أنها على الحق، وأن من عداها كافر، فظهرت هذه الفرقة نسالم الجميع، ولا تكفر طائفة منهم، وتقول إن الفرق الثلاثة الخوارج، والشيعة والأمويين، مؤمنون، وبعضهم مخطئ، وبعضهم مصيب، ولا نستطيع تعيين المصيب فلترك أمرهم جميعاً إلى الله، ثم بحثوا في الإيمان والكفر، والمؤمن والكافر، فأوصلهم بحثهم إلى معان تتناسب وطريقهم، فرأى كثير منهم أن الإيمان هو المعرفة بالله، وبرسوله، فمن عرف أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن. وفي هذا رد على الخوارج في قولهم، إن الإتيان بالفرق وتترك الكيثر من أركان الإيمان، ورد على الشيعة القائلين إن الإيمان بالإمام، والطاعة له جزء من الإيمان، وغلا بعضهم فقال إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب فقط، وإن حصل في المعتقد ما يناق الاعتقاد من قول أو فعل .

المعتزلة

تقدم في بحث (ظهور المعتزلة وقيام أي الحسن الأشرى لمناهضتهم) بيان تاريخ نشأتهم وظهورهم، ولأن نذكر تعاليمهم، وبعض فرقهم .
أما تعاليمهم فهي القول بأن مركب الكيفية ليس بمؤمن ولا كافر،
وهي فاسقا ويخلد في النار .

والقول بأن العهد يخلق أفعال نفسه خيرا كانت أو شرا، والقول بنفي صفات زائدة على الذات، والقول بوجوب الصلاح والأصلح، والقول بالتحسين والتفويض العقلين، والقول بأن الله لا يرى في الآخرة، والقول بأن كلام الله مخلوق، وبعد اتفاقهم على هذه الأمور اختلفوا عشرين فرقة، كل فرقة تعطى الأخرى نهما ذهبت إليه، فمن فرقهم الواصلية أصحاب وأصل بن عطاء، قالوا بنفي الصفات، وقال الشهرستاني في الملل والنحل شرعت أصحاب وأصل في هذه المسألة بعد ما طالعوا كتب الفلاسفة، وانتهى نظرهم إلى أن ردوا جميع الصفات إلى كونه عالما قادرا، ثم حكموا بأنهما صفتان ذاتيتان، اعتباطتان، للذات القديمة. وقالوا بإسناد أفعال العباد إلى قدرهم، وبالمعتزلة بين المعتزتين، وذهبوا إلى الحكم بتخطئة أحد الفريقين، من عثمان وقتليه، وجواز أن يكون عثمان لا مؤثما ولا كفرا، وأن يخلد في النار، وكنا على ومقاتلوه، وحكموا بأنه بعد قصة الجمل لا تقبل لعل وطلحة والزهر شهادة، ومن فرق المعتزلة المذهبية أصحاب أبو المذبل العلاف شيخ المعتزلة ومقرر طريقتهم، وهؤلاء قالوا إن حركات أهل الجنة والنار ضرورية مخلوقة لله، إذ لو كانت مخلوقة لهم لكانوا مكلفين، ولا تكليف في الآخرة، وقالوا إن أهل الجنة والنار تنقطع حركاتهم، ويصرون إلى محمود دائم. وقالوا إن الله عالم بعلم هو ذاته، قادر بقدرته هو ذاته، حي بحياة ذاته، وأغنوا هذا القول من الفلاسفة الذين يعتقدون أنه تعالى باحد من جميع جهاته، لا تعدد فيه أصلا، وقالوا مراد بإرادة حادثة لا في شيء .

ومن فرقهم النظامية أصحاب إبراهيم بن سيار النظام الذى طالع كسب
الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، وهذه التفرقة تقول إن الله تعالى لا يقدر
أن يفعل بعباده فى الدنيا، ما لا صلاح لهم فيه ولا يقدر أن يهتد فى الآخرة أو
ينقص من ثواب وعقاب لأهل الجنة والنار، وتقول إن إرادته تعالى لفعله، هى
خلقه على وفق علمه، وإرادته لفعل العبد أمره به، وتقول إن الإنسان هو
الروح، والبدن آلتها، وتقول الأعراض أجسام والجواهر مؤلف من الأعراض،
وتقول إن حقيقة العلم والجهل المركب واحدة، والاختلاف بينهما بأمر خارجى،
وكذلك الإيمان والكفر حقيقتهما واحدة، والامتنياز بينهما بأمر خارجى، هو
مطابقة تلك الصور لمتعلقها، وعدم مطابقتها له .

وللى هنا انتهى المنهاج المقرر فى التوحيد لطلاب كلية أصول الدين
والحمد لله أولا وآخرا

الصفحة	الموضوع
٥	رسالة سيدنا محمد ﷺ
٦	الأدلة على صدق دعواه الرسالة
١٥ — ٦	الأدلة العقلية — القرآن الكريم
٧	سوته قبل البعثة وبعدها
٨	إعجاز الكتب السماوية بنبؤته عليه السلام
١٠	بشارات الإجماع
١١	إعجاز الأنبياء السابقين
١٢	إعجازه بالنبوءات
١٥ — ١٦	الأدلة الحسية
١٦	صوم رسالته ﷺ
١٩	الشريعة المحمدية دائمة لا تتسخ
٢١ — ٢٥	شبه المتكبرين لبعثه ﷺ
٢٦	الصحف والكتب السماوية التي أنزلت قبل القرآن
٢٦	ما طرأ على الكتب السماوية من تحريف
٢٦	مفهوم التحريف
٢٨ — ٢٤	الدليل على وقوع التحريف
٣٥	القرآن الكريم — معناه
٣٥	المكمل والدليل من القرآن
٣٦	جمع القرآن الكريم
٣٨	إعجاز القرآن الكريم بيان وجوه الإعجاز
٤١	للسلك الثالوث لإثبات إعجاز القرآن
٤٤	القول المختار في إعجاز القرآن

تابع فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٤٧	مفاهيم القرآن الكريم
٤٨	إنه صالح لجميع الناس، وإن الشريعة التي جاء بها طريق وسط
٤٩ — ٥١	الإيمان بكل ما جاء به القرآن ختوم لكل أنواع ثلاثة
٥٠	النوع الأول وحكمه
٥٠	النوع الثاني وحكمه
٥١	النوع الثالث وحكمه
٥٦ — ٥٢	منهج القرآن الكريم في الاستدلال على إثبات الصانع
٥٦	علاقة القرآن بالعلم على اختلاف أنواعها
٥٩	الرد جوسع على ما وجهه الأعداء من المطاعن
٦٠	المطاعن التي وجهها للمؤمنين
٧٨ — ٧٢	شبه القصارى
٧٩	حقيقة الإيمان
٨٠	لقول العلماء في الإيمان
٨٥ — ٨١	نظرة في الأصول
٨٥	نبذة الإيمان وتلخيصه
٨٧	مباحث الإسلام
٨٩	مركبات الإسلام للعلم والعلم
٩٣	الإسلام دين النظرة
٩٦	أثر الإسلام في انتشار العلم ولقد على من زعم أنه أضر العقل البشري
٩٩	بيان أن الإسلام أفضل الأديان
١٠٠	دين البر
١٠١	دين القصارى

تابع فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الدين الإسلامى	١٠١ - ١٠٤
بيان مزايا الإسلام	١٠٥
ما يتركه بعض المسلمين مخالفين به تعاليم الإسلام ليس حجة على الدين	١٠٦
التقليد فى العقيدة الإسلامية وحكمه	١١٠
عقائد المولم وما فيها من دخل	١١٤
الشبه للمنطقة بالجهاد والإرث وتعدد الزوجات	١٢٠ - ١٤٠
الجهاد فى الإسلام	١٢٠
الموت فى الإسلام	١٢٦
الموت عند قدماء الرومان واليونان	١٢٧
الموت عند قدماء المصريين	١٢٨
الموت عند اليهود	١٢٨
الموت عند العرب قبل الإسلام	١٢٩
رأى بعض المسيحيين فى الموت	١٢٩
الموت فى الشريعة الإسلامية	١٢٩
أسباب الموت	١٢٩ - ١٣٤
الشبه للمنطقة بتعدد الزوجات والطلاق	١٣٤
حال المرأة قبل الإسلام وحالها بعد الإسلام	١٣٦
تعدد الزوجات وأسبابه	١٣٩
التعدد فى الإسلام	١٤٠
الطلاق قبل الإسلام	١٤١
الطلاق فى الإسلام	١٤٢
الطلاق - وجودها - مفهومها	١٤٤

الصفحة	الموضوع
١٤٦	حصة الملاككة
١٤٨	الفاضل بين الأنبياء والملاككة
١٥١	الجن والشياطين
١٥٢	النفوس البشرية
١٥٤	حدوث النفوس البشرية
١٥٥	بقاء النفوس البشرية
١٥٦	بطلاق الناسخ
١٥٩	الدنيا والآخرة
١٥٩	الموت وحقه القدر ، نعيمه وعقابه
١٦٠	قصة القوم
١٦١	عذاب القبر ونعيمه
١٦٣	الساعة وأشرافها
١٦٦	البعث والمعاد
١٦٣ - ١٦٩	آراء العلماء في البعث
١٧٣	العقائد السميعة المتلفة بالمعاد
١٧٣	عمل للوليد
١٧٤	الجزال - الصحف
١٧٥	الحساب
١٧٦	المحرض - الصراط
١٧٧	شهادة الأعضاء
١٧٨	الشفاعة والبرامية
١٨٠	الجنة وقار - مفهوما

تابع فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
وجود الجنة والنار قبل اليوم الآخر	١٨٢
بقاء الجنة والنار وعدم خالتهما	١٨٤
الدعوة إلى الإسلام ووجوب تبليغها	١٨٦
الدعوة إلى الإسلام في الصدر الأول	١٨٩
كذب الرسول إلى الملوك والأئمة	١٨٩
كتابه إلى القنصر (ملك الروم)	١٨٩
كتابه عليه الصلاة والسلام إلى المقرئ عظيم القبط	١٩٧
كتابه عليه الصلاة والسلام إلى النجاشي ملك الحبشة	١٩٩
ظهور الخلاف بعدة <small>عنه</small>	٢٠٠
الاختلاف في المشاهة	٢٠٢
بطلان الكلام في التنزه وأصول العقائد	٢٠٤
الإسرائيليين والقصاصين والوضاعين	٢٠٧
الإسرائيليات	٢٠٧
القصاصين	٢٠٨
الوضاعين	٢٠٩
الحملات الحفية على الدين الإسلامي في الصدر الأول	٢١٢
ظهور المحترقة وقام أبو الحسن الأشعري لمناقضتهم	٢١٤
ترجمة الفلسفة اليونانية وظهور أثرها في العقائد	٢١٧
أشهر الفرق الإسلامية في المسائل الاعتقادية	٢٢٠ — ٢٢٨
الحوارج	٢٢٠
الشعة	٢٢٢
المرجئة	٢٢٥

تابع فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٢٢٦	الحالة
٢٢٤ - ٢٢٩	المهرت

...

رقم الإيداع ٩٥/٩٨١٨